المدخل الى



الأستاذ الدكتور

عبد الهادى محمد والى

أستاذ علم الاجتماع بجامعة طنطا

٢٠٠٢ ٢٠٠٣



" فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع

الناس فيمكث في الأرض كذلك

يضرب الله الأمثال "

صدق الله العظيم

الفصل الأول

تعريف علم الاجتماع وفروعه

مقدمـــة

لعل من نافلة القول أن علم الاجتماع اليـوم يواجـه مواقـف معقـدة ، وتحديـات عديـدة . وإن هـذه المواقـف وتلـك التحديـات ليست جديـدة علـى هـذا العلـم ، لأنـها واجهتـه عـبر مسـيرته . واكتمـال نضجـه . فمـن المعـروف أن الموضـوع . والنظريـة والمنـهج هي أعمدة أى علم من العلوم الإنسـانية ، أو الطبيعيـة . وفـى علـم الاجتماع كـانت هـذه الأعمـدة تتـأثر بمـا يطـرأ علـى المجتمعـات الإنسانية ، ومسرح الفكر الإنسانى من تغيرات تتمثل فـى ظـهور أفكار ومنظورات واتجاهات جديدة ، أو اضمحـلال نسـبى لأفكـار ومنظورات واتجاهات أخرى .

فمن حيث الموضـوع كـان العلـم يوسـع نطـاق رؤيتـه بشـكل مستمر ويواجه الأوضـاع الجديـدة التـى تطـرأ فـى مجـرى التطـور الإنسانى ، ويسبر أغوار موضوعات لم يعهدها من قبـل ، ويدخـل ممارسات بحثيه فى مجالات أو سع وأرحب مما كان يمارسـه مـن قبـل . ومـــن حيـث النظريـة سـيطرت علـى العلـم اتجاهـات "إمبيريقية" أو واقعية تجمع معطياتها من الحيـاة الإنسـانية قـدر الاستطاعة، ورغم كل هذا تقف عاجزة عن إخراج إسهامات نظرية واضحـة ومحـددة تتمـيز بالشـمول ، والاسـتمرارية النسـبية ، أو

تفسر نطاقاً واسعاً من الظواهر والأفكار والتساؤلات والقضايا المتجددة التى يطرحها الواقع الاجتماعى المتغير .

وفى هذا المجال أيضا ثارت اعتراضات عديدة ، فحواها أن نظرية علم الاجتماع قد فشلت فى توجيه البحث العلمى ، ووقعت تحت التأثير الأيديولوجى لجماعات أو نظم يعينها ، وانغلقت على غيرها . وظهر فى مجال الاجتماع جدل طويل حول استقلالية هذا العلم ، وإمكانية تحرره من التأثير الأيديولوجى ، أو تحقيق قدر من الحيادية بين هذه المواقف الأيديولوجية .

وعلى الصعيد المنهجى نرى أن علم الاجتماع اهتم لفترة طويلة بالأمور التى تتعلق بالأسرة ، والجماعات السلالية ، والمجتمع الحضرى ، والريفى ، والجريمة والطلاق ، وكانت معالجاته فيها مدرسية . ولكن الأمر قد تغير فى الآونة الحديثة فأصبح علماء الاجتماع يؤمنون بأنهم يستطيعون أن يدرسوا أى جانب من جوانب الحياة الإنسانية ، أى نظام ، وأى قطاع ، أو جماعة ، أو صورة من صور السلوك . فاتجه علماء كثيرون إلى القول بأن علم الاجتماع يستطيع أن يدرس الجوانب الصورية للعلاقات الاجتماعية مثل التعاون والتنافس ،

والتكامل ، والصراع ، ودراسة معدلات التفاعل . وفى ضوء هذه التطورات كان على علم الاجتماع أن يطور من مناهجه وأساليبه فى البحث والتحليل . وفى فترة من الفترات احتلت عملية تكميم العلاقات الاجتماعية – أى استخدام الأساليب الكمية للتعبير عن عمق ظاهرة بعينها – احتلت هذه العملية مكانة طاغية . لكنها أفضت فى النهاية إلى تسطيح التحليل السوسيولوجى وجعلت منه عملية شكلية وغير مكتملة .

هذه نماذج سريعة للأزمات التى واجهت علم الاجتماع عبر مسيرته التطورية ، ومع ذلك فإنه تجدر الإشارة إلى أن ظهور الماركسية ونموذجها التطبيقى فى الاتحاد السوفيتى كان قد طرح على بساط البحث منظورات مختلفة ، وجديدة . تفاءل بها الكثيرون ، وجعلوها فى الموقع المقابل للنظريات الرأسمالية ، حتى ولو لأغراض المقارنة . واليوم وفى ظل الضربات القاصمة التى وجهت للمعسكر الشرقى ، فإن كثيراً من المنظورات الشرقية فى علم الاجتماع قد أصابها نوع من الاضمحلال ، والانزواء .

والمتابع للتطورات العالمية يدرك انفراد اتجاه نظرى واحد بالسيطرة على ناحية النظرية والتطبيق . ومن هنا فإن

موقفاً جديداً يواجه علم الاجتماع ، ولم تكتمل رؤيته بعد لمواجهته والتعامل معه . ومن ناحية أخرى فإن هذا العلم بفروعه المتعددة لم يقدم الإجابات الشافية على ما جرى ، هل هو عجز فى النظرية ، أم قصور فى التطبيق ، وما هو المخرج من كل ذلك .

ومع كل ما أثرناه هنا من مشكلات أو أزمات ، إلا أننا لازلنا نؤمن بقيمة هذا العلم وكفاءته ، بل وضرورته لمواجهة القضايا الجديدة فى الفكر الإنسانى ، والممارسة التطبيقية ، وما يترتب عليها من نظم وتفاعلات وأوجه سلوك .

والكتاب بصورته الراهنة موجه لقارئ الاجتماع وطلابه .. وهو قابل للمراجعة والحذف والإضافة ندعو الله أن ينفع به .

والله الموفق

الإسكندرية أكتوبر ٢٠٠٢ عبد الهادى والى

إهداء

إلى كل من أحببت ، وهم كثير ...

أساتذتى الأجلاء ... من كان منهم على قيد الحياة .. أمد الله فى عمره .. ومن كان بين يدى الله رحمة ورضوانا ...

زملائى الذين تأثرت بهم ، وأثرت فيهم ...

تلاميذى الذين علمتهم وتعلمت منهم ...

أسرتى زوجتى وأبنائى الذين أحاطونى بأكرم المشاعر ...

ولا يزال فى الحياة متسع للحب والوفاء ...

عبد الهادى والى

محتويات الفصل الأول :-

أولاً : تعريف علم الاجتماع

ثانياً : فروع الاجتماع

أولاً : تعريف علم الاجتماع

تعتبر مسألة تعريف علم الاجتماع ، وتحديد مجالات اهتمامه نقطة انطلاق ، وبداية منطقية لكثير من الكتابات التى ظهرت فى علم الاجتماع ، وكان الهدف منها توجيه القارئ إلى هذا العلم وتقديم صورة واضحة عن موضوعة ، والمسائل التى تشغل اهتمام المشتغلين به ، وهذا هو نفس الأسلوب الذى سنحاول اتباعه هنا بهدف توضيح الرؤية أمام الدارس الجديد لهذا العلم .

وقد كان العالم الفرنسى أوجست كومت Auguest Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧) هو الذى أطلق على علم الاجتماع هذا الاسم (Sociology) ، وقد بذل جهداً كبيراً فى تحديد علاقة هذا العلم بغيره من العلوم وفى صياغته لهذا الإسم ألف بين كلمة يونانية - وأخرى لاتينية ، وكان ذلك عام ١٨٣٠ تقريباً . والكلمة اليونانية هى Logos ومعناها " العلم " ، والثانية وهى اللاتينية Societas وتعنى المجتمعات أو الجماعات أو الأسرة أو القرية أو المدينة أو ما أشبه ذلك من صور الاجتماع البشرى ، وقد شاع استخدام هذا الإسم واعترف به الجميع منذ ذلك الوقت حتى الآن.

ولم تكن هذه التسمية هى الوحيدة من نوعها ، ولكن سبقتها محاولات أخرى ، فسبق أن أطلق عليه سان سيمون S. Simon وهو عالم فرنسى أيضاً إسم الفسيولوجيا الاجتماعية Social- Phsiology كما أطلق عليه عالم بلجيكى هو كيتيليه Quetelet إسم الفيزياء الاجتماعية Social physico وبعد ذلك كتب عبد الرحمن بن خلدون كتاب (العبر) الذى عرف بعد ذلك بإسم مقدمة ابن خلدون . وفى هذا الكتاب أطلق بن خلدون على هذا العلم إسم العمران البشرى ، أو الاجتماع الإنسانى ، كما أطلق كارل ماركس على هذا العلم اسم علم المجتمع Science of society وكان ذلك بعد تسمية أوجست كومت ، ثم تبع ذلك جيدنجز Giddings الذى وافق على تسمية كومت مع تعديله ليكون الإسم علم الاجتماع الاستقرائى Inductive Sociology وسار العالم الفرنسى رينيه مونيه R. Maunier على نفس الطريقة فوافق على تسمية كومت مع اقتراحه تعديل الإسم ليكون علم الاجتماع المقارن Conpartive Sociology .

وهكذا يتضح أنه كان هناك خلاف كبير حول تسمية علم الاجتماع رغم ما أشرنا إليه من أن تسمية أوجست كومت قد استقرت حتى يومنا هذا ، وانتشرت فى سائر الأوساط العلمية

ويرجع هذا الخلاف من ناحية إلى أن كل تسمية أطلقت على علم الاجتماع اعتمدت على تصور كل عالم من العلماء لموضوع العلم .

فنجد أن سان سيمون مثلاً يتصور أن موضوع هذا العلم هو دراسة وظائف الظواهر الاجتماعية على نفس النحو الذى تدرس به العلوم الطبيعية وظائف الظواهر الطبيعية ، من هنا كان تفضيله لتسميته بعلم الفسيولوجيا الاجتماعية ، كما أن كارل ماركس قد تصور أن موضوع العلم هو دراسة البناء الاجتماعى للمجتمع فى صورة كلية ولذلك رفض تسميته بعلم الاجتماع وأطلق عليه علم المجتمع ، ومن ناحية أخرى فقد كان لدى البعض الآخر تصور معين لمنهج علم الاجتماع ، فقد اعتقد جيدجينز أن المنهج الذى يجب اتباعه فى هذا العلم هو المنهج الاستقرائى الذى يتدرج فيه البحث من دراسة الملاحظات الجزئية للظواهر إلى التوصل إلى تعميمات تنطبق على عد كبير من الظواهر الفردية ، بمعنى انتقال الباحث من الخاص إلى العام ، أو من الجزئى إلى الكلى أو من البسيط إلى المركب ، ومن هنا فإنه يفضل إطلاق اسم علم الاجتماع الاستقرائى . أما العالم الفرنسى الذى أشرنا إليه وهو رينيه مونيه فقد كان يعتقد أن المنهج المفيد فى الدراسات العلمية الاجتماعية هو المنهج المقارن الذى يتبع الوحدة ، وكذلك فإن المقارنة فى رأيه مرحلة

ضرورية سابقة على التفسير ، فمن الضرورى أن يقوم علم الاجتماع فى البداية بالمقارنة والتقريب بين الظواهر التى يصفها وذلك فى محاولة للوقوف على أوجه التشابه والاختلاف بينها ، ثم ينطلق من ذلك تفسير هذا التشابه ، وذلك الاختلاف وبناء على ذلك فإن التسمية المفضلة عنده هى علم الاجتماع المقارن ومعنى ذلك كله أن الاختلاف فى التسمية كان يرجع بالدرجة الأولى إما فى تصور معين لمنهج هذا العلم ، وكان كل من العلماء – يريد أن يكون هذا التصور متضمناً فى التسمية ذاتها وبنفس الطريقة الخلافية تباينت وجهات نظر العلماء حول تعريف علم الاجتماع وعملية التعريف هذه قد حظيت باهتمام كبير من جانب علماء الاجتماع المحدثين ، لأن الاتفاق على تعريف محدد لهذا العلم يسهم فى توفير أسس مشتركة وفى التقريب بين وجهات النظر التى قد تتصارع فى نطاق هذا العلم ، وقد تعددت وجهات النظر فى تعريف علم الاجتماع تبعاً لتعدد وجهات النظر فى تحديد الحقيقة الاجتماعية ذاتها .

ونود أن نشير هنا وفى البداية إلى أن التعريف بأى علم يجب أن يقوم على تصور دقيق لعناصر ثلاثة هى :

موضوع هذا العلم ، ومنهجه وأغراضه وثالثاً تاريخ الدراسة والبحث فيه .

ومن حيث الموضوع ذهب ابن خلدون إلى أن موضوع هذا العلم هو العمران البشرى ، بما يتضمن من حوادث اجتماعية أو وقائع اجتماعية تتصل بجميع أوجه النشاط الإنسانى ، فللإنسان نشاطه الدينى والأخلاقى ، والعائلى ، والاقتصادى ، والثقافى ، وهذه كلها أمور يدرسها العلم .

أما أوجست كومت فقد اهتم بتعريف الظواهر الطبيعية والكيميائية ، والبيولوجية وتحديد موضوعات هذه العلوم ، ولكنه لم يفعل ذلك بالنسبة لعلم الاجتماع ، لأنه تصور أن هذا العلم يدرس الظواهر التى لا تدرسها العلوم الأخرى والسابقة عليه فى الظهور ، ولذلك فإن موضوع هذا العلم عنده هو الإنسانية بأسرها ، لأن كل الظواهر الإنسانية هى ظواهر اجتماعية بالدرجة الأولى .

وعلى العكس من ذلك رأى هربرت سبنسر أن على علم الاجتماع أن يصف ويفسر نشأة وتطور النظم الاجتماعية كالأسرة ، والضبط الاجتماعى ، والعلاقة بين النظم وأن يقارن بين المجتمعات المختلفة من حيث نوعها ، وتطورها ، كما يهتم بالبناء الاجتماعى ،والوظائف الاجتماعية فى المجتمع بصفة عامة .

وقد جعل اميل دوركهم Emile Durkheim من الظواهـر الاجتماعيـة موضوعـاً رئيسـياً لعلـم الاجتمـاع وحـاول تحديـد الخواص التى تميز هذه الظواهر عن غيرها من الظواهر الطبيعية وغير الإنسانية . وقد رأى أن لهذا العلم بالضرورة فروعا تتـوازى مع الموضوعات التى يدرسها والمجالات التى يهتم بها

ثم قـدم مـاكس فيـبر Max Weber تعريـفاً عامـاً لعلـم الاجتماع على أنه العلـم الذى يحـاول الوصـول إلى فـهم تفسـيرى للفعل الاجتماعى Social action مـن أجـل الوصـول إلى تفسـير سببى أو علمى لمجرى هذا الفعل ونتائجه

وقد صدرت تعريفات كثيرة غير ذلك لكـن يمكـن أن نشـير إلى بعض الملاحظات حولها على النحو التالى

أولاً تتفـق معظم التعريفـات التـى وردت لعلـم الاجتمـاع على أنه يدرس الفعل الاجتماعى والسلوك الإنسـانى . والتفـاعل الاجتمـاعى . والجماعـات الاجتماعيـة . والظواهـر الاجتماعيـة . والأنسـاق الاجتماعيـة . والنظـم الاجتماعيـة . والتنظيمـات . والعمليـات الاجتماعية مع تركيز خـاص علـى بنـاء ووظيفـة هـذه الأشكال او صور الاجتماع

ثانيا التعريفات السابقة وغيرها مـن التعريفـات تتنـوع من

حيث الضيق والاتساع . فهناك من يحدد موضوعات العلم بأن يقول أنه يدرس الفعل الاجتماعى ، وهناك من يرى موضوعه متمثلاً في دراسة المجتمع ككل .

وهذا يعكس بدوره عدم الاتفاق على موضوع العلم ، ولعل مرد ذلك إلى هيمنة بعض التوجيهيات النظرية والأيديولوجية .

وقد اشتمل هذا الاختلاف على تصور أن علم الاجتماع هو ذلك الفن الذى يتضمن علاج مشكلات المجتمع ، كالفقر ، والجريمة ، والرذيلة ، ومشكلات الأسرة وغيرها ، وأنه يعمل على القضاء على ما يسبب تعاسة الإنسان ، ولكن هذا التصور ينطوى على خلط بين علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية باعتبارها فناً تطبيقياً . ولكن علم الاجتماع يهدف فى حقيقة الأمر إلى رصد الوقائع الاجتماعية ، أو الظواهر الاجتماعية ، والكشف عن تكراراتها النمطية ، ووصفها وتحليلها وتفسيرها بطريقة علمية بغرض الكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الظواهر فى نشأتها وتطورها ، إلى أن أصبحت على حالتها الراهنة . وفضلاً عن ذلك يهتم بمحاولة التنبؤ بما قد يحدث مستقبلاً إذا توافرت نفس الشروط السابقة .

ولعل هذا التعريف يشير إلى أن علم الاجتماع قد أصبح جديراً بتسميته كعلم ، وأنه يمثل على هذا النحو نمطاً فكرياً يبتعد عن التفكير الفلسفى ، أو الميتافيزيقى ، وأن موضوعه هو دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة واقعية كما يقرر أوجست كومت . ولما كانت كل الظواهر ، والوقائع الإنسانية ، ظواهر اجتماعية ، فإنه يوسع نطاق هذا العلم ويجعله متمثلاً فى الإنسانية ككل . فالإنسانية ككل هى موضوع هذا العلم . ولم يقدم كومت كما أشرنا تعريفاً محدداً للظاهرة الاجتماعية ، الأمر الذى فعله دوركيم من بعده .

وفى ضوء ما سبق فإن علم الاجتماع شأنه شان العلوم الطبيعية يدرس المادة التى تشكل موضوعه بهدف استخلاص القواعد والقوانين التى تخضع لها ، ومحاولة التنبؤ باحتمالات المستقبل فى ضوء هذه القوانين وحينما يتوصل إلى هذه القواعد فإنه يضعها أمام المصلحين والمخططين والمنفذين لكى يهتدوا بها فى مواجهة أو علاج المشكلات التى تطرأ فى المجتمع .

ولما كانت العلوم الاجتماعية كل منها على حده يعجز عن دراسة وتفسير السلوك الإنسانى فى شموليته وكليته ، وكذلك عن دراسة وتفسير الأبعاد الاجتماعية لكل منها ، فإنه أصبح لهذا العلم أهمية كبيرة . ففى دراسات الاقتصاد ظهر الاجتماع

الاقتصـادى ليـدرس ويفسـر السـلوك الإنسـانى الكـامن وراء العمليـات الاقتصاديـة مـن إنتـاج واسـتهلاك وغـير ذلـك . وفـى دراسـات السياسـة ظـهر علـم الاجتمـاع السياسـى ليـدرس إلى أى مدى تعمل النظم السياسية على تنظيم حياة المجتمـع ، والكشـف عن الخلفية الاجتماعيـة لهـذه النظـم . وفـى الدراسـات القانونيـة ظهر علم الاجتماع القانونى ليفسر الأبعـاد الاجتماعيـة للقـانون ، ومدى تعبيره عن حاجات اجتماعية كلية وهكـذا . ومـن هنـا فـإن علم الاجتماع أكثر عمومية من العلـوم الاجتماعيـة الأخـرى ، بـل يمكن القول أنه يتداخل معها جميعاً بشكل أو آخر .

كما إنه يستعين بنتائجها فـى تحقيـق تحليلاتـه . ولذلـك نجد العالم الأمريكى بيترم سـوروكن يقـول أن علـم الاجتمـاع هـو دراسة الخصائص المشتركة بين كـل أنـواع الظواهـر الاجتماعيـة ، وهذا هو مصدر عمومية هـذا العلـم ، وإلى جـانب ذلـك فـهو يفـرد تخصصاً معيناً لكـل نـوع مـن هـذه الظواهـر ، وهـذا يجعلـه علمـاً عاماً ، وخاصاً فى الوقت نفسه .

ومعنـى نك أن علـم الاجتمـاع لـه موضوعـة الخـاص ، ألا وهو الدراسة العلمية المنسقة للعلاقات الاجتماعيـة المتبادلـة التـى تنشأ بـين الأفـراد فـى المجتمـع مـن حيـث طبيعتـها ونشـأتها ، وتكوينهـا ، ووظائفهـا ، وديناميـاتهـا ، والتغيـرات التـى تطرأ

عليها عبر الزمن .

فالفرد لا يمكن أن يعيش منعزلاً عن غيره من الأفراد ، لكن مع غيره من البشر ، حيث تنشأ علاقات تعاون ، وتنافس ، وصراع ، وتوافق ، وتكيف ، وغير ذلك من العلاقات ذات الطبيعة الخاصة . ولعل وجود الإنسان واستمراره فى الحياة ناتج عن هذه العلاقات ، والروابط الجمعية التى تربطنا بالآخرين وقد يقال أيضاً أن علم الاجتماع يدرس البناء الاجتماعى ، ويقصد به تلك الوحدات الأساسية التى يتألف منها المجتمع ، وهى دائماً فى حالة تفاعل . أى أن البناء الاجتماعى هو نسيج العلاقات المتبادلة بين كل هذه الوحدات الأساسية للحياة الاجتماعية . ويضاف إلى دراسة هذه العلاقات دراسة أنواع النشاط الاجتماعى ، والتفاعل الذى يقوم بين الأفراد ، والجماعات ، والذى يؤدى إلى قيام نظم ، وتنظيمات اجتماعية ينتمى إليها الأفراد ، ويشبعون حاجاتهم من خلالها .

وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أن بعض العلماء يعرفون علم الاجتماع بأنه العلم الذى يدرس (المجتمع) ككل لا يتجزأ ، فإن هذه النظرة تنم عن اعتقاد بعمومية هذا العلم . وقد اعتقد رواد علم الاجتماع الأول بأن المجتمعات الإنسانية فى تغير مستمر ، لذلك فإن جزءاً كبيراً من دراسات علم الاجتماع

ينصب على دراسة التغير الاجتماعى ، فى محاولة لاستخلاص قوانين هذا التغير واتجاهاته فى الماضى والحاضر ، ومحاولة التنبؤ بشكلها فى المستقبل .

ويلتزم علم الاجتماع بوصف الظواهر الاجتماعية ، وتحليلها وتفسيرها ، ومحاولة الكشف عن العلاقة بينها وبين غيرها ، وأيضاً محاولة فهم التلازم فى الحدوث والتلازم فى الغياب وغير ذلك من الترابطات التى تفيد الدارس وتثرى دراسته ، وتعمق فهمه للمجتمع . وليس أدل على اهتمام علم الاجتماع بالتحليل من قول أحد العلماء وهو (جونسون) أنه العلم الذى يتناول الجماعات الاجتماعية بالتحليل ، فهو قد جعل التحليل صفة ملازمة للعلم ليرد على القائلين بأنه علم وصفى

وهكذا شهدت مسألة تعريف علم الاجتماع اختلافاً كبيراً فى وجهات نظر العلماء الذين عرضنا لمحاولاتهم وأفكارهم ، وهذا الاختلاف قد صاحب انتقال العلم من مجال الدراسات النظرية والفلسفية ، والتأملية إلى مجال الدراسة العلمية المحكمة .

وعبر هذا المسيرة ثار جدل آخر حول ما إذا كان هذا النوع من الدراسات يشكل نسقاً علمياً ، مثل غيرها من الدراسات ..؟ وفى هذا الصدد ذهب بعض الدارسين إلى أننا نطلق عليه علم

الاجتماع تجاوزاً ، لأنه مجرد دراسات تختلف عن الدراسات العلمية الأخرى ، فدراسة عالم الطبيعة أو الكيمياء أو غيرها تختلف عن دراسة علم الاجتماع ، لأن علم الاجتماع مجرد تجميع غامض لحقائق أو وقائع غير مترابطة . ولا يمكن تسجيلها بدقة ، كما لا يمكن التنبؤ فى مجالها بشكل دقيق . ويرى هؤلاء أن تلك الملاحظات تجعل منه علماً فى مستوى أدنى من غيره من العلوم .

على أن النظرة العلمية الدقيقة تجعلنا نعترض على هذه الادعاءات . فالمعرفة العلمية هى تلك المعرفة التى تعتمد على أسلوب أو طريقة معينة فى جمع المادة والوقائع ، وتعتمد على منهج معين معترف به . وإن الالتزام بمنهج محدد عملية توحد بين العلوم المختلفة . وتكون الفروق بينها قائمة على طبيعة المادة ، أو المعمل الذى تجرى فيه الدراسة .

وإذا كان (المعمل) الذى يجرى فيه علم الاجتماع دراساته ذى خصائص مختلفة ، ألا وهو " المجتمع " فإن ذلك لا يقلل من قيمة هذا العلم . فالمجتمع كما قلنا دائم التغير لأنه يرتبط بمشاعر وأحاسيس وتفاعلات البشر ، وآرائهم ، واتجاهاتهم ، وهذه كلها أمور لا تبقى على حال واحده ، ولكنها تتغير وفقاً للظروف التى تطرأ على حياة المجتمع ولكن علم

الاجتماع يدرس هذه الظواهر والوقائع بأسلوبه الخاص ، وتوصل إلى عدد من الطرق والقواعد المنهجية التى تتلاءم معها ، حتى الدراسات القائمة على التجربة دخلت مجال هذا العلم ، ولكن بمحكات ومعايير مختلفة ، وكذلك فقد أصبح أسلوب الملاحظة أسلوباً أساسياً فى دراساته .

ولعل الفرق بين نتائج الدراسة فى علم الاجتماع يختلف عن نتائج الدراسات العلمية الطبيعية فى جانب واحد ، وهو أن الصدق فى مجال العلوم الطبيعية يمكن أن يكون مطلقاً ، لأنها تتعامل مع مادة صماء لا تتغير إلا بإضافة عنصر أو عناصر جديدة. وقد تظل على ما هى عليه منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، على حين قد تتغير الظواهر الاجتماعية بين يوم وليلة ، أو بفعل حادث طارئ غير متوقع .

كذلك فإن علم الاجتماع بعد أن أرسى قواعده المنهجية ، والإجراءات التى تكفل حيدة الباحث فى مجاله ، والقواعد الخاصة بالتزام الموضوعية ، فإنه بهذا قد قطع شوطاً كبيراً فى مجال العلمية .. وإذا كان العلم يهدف من دراساته إلى تحقيق قدر أكبر من الموضوعية ، والتوصل إلى عدد من القوانين التى تحكم الظواهر ، والوقائع ، وصياغة نظرية أو نظريات تفسر الواقع . فإن هذا هو حال علم الاجتماع فهو يبحث فى تكرارات

الظواهر الاجتماعية ، ويستخرج أنساقها العامة ، وقوانينها الأساسية ، ويحاول من خلال ذلك كله التنبؤ باحتمالات المستقبل

ومن أجل هذا فقد أرسى علم الاجتماع دعائمه كنسق علمى مستقل يتساوى فى ذلك مع كافة العلوم الأخرى . وقد شهدت الحقب الأخيرة ازدهاراً كبيراً فى دراساته . وظهرت مجموعة نظريات تفسر جوانب الواقع الاجتماعى الشامل ، وأصبحت كثير من الأمم تعتمد على دراساته فى مسائل الرأى العام ، والتخطيط والتنشئة الاجتماعية ، والسياسية ، والتنمية ، ومواجهة المشكلات النوعية وغير ذلك .

ثانياً : فروع علم الاجتماع :

أشرنا إلى أن تعريف علم الاجتماع مرتبط بموضوعه ، وعلى ذلك فإن تعدد جوانب هذا الموضوع يؤدى بالضرورة إلى تعدد المجالات التى يهتم بها هذا العلم ، ففى البداية كان أوجست كومت يرى أن موضوع هذا العلم يتمثل فى الاستاتيكا الاجتماعية Social Statics وهى دراسة المجتمع حالة ثباته واستقراره ، والديناميكا الاجتماعية وهى Social Dynamics دراسة المجتمع فى حالة تغيره وتطوره ، والكشف عن القوانين التى تحكم عملية الاستمرار هذه والتى تحدد مجرى التطور الإنسانى .

وبعد ذلك أخذت الميادين التى يهتم بها علم الاجتماع فى الاتساع والتشعب بعد أوجست كومت ، ولم تعد هذه الميادين قاصرة على ميدان أو اثنين ، فنجد إميل دوركيم يقسم هذه الميادين أو المجالات إلى :

أولاً : المورفولوجيا الاجتماعية : Social Morphology

وهى تتضمن دراسة الجوانب الجغرافية للبيئة وتأثيرها أو علاقتها بالتنظيم الاجتماعى ، هذا فضلاً عن دراسة السكان من حيث التخلخل والتوزيع فى المساحة السكانية .

ثانياً : الوظائف الاجتماعية : Social Physiology

وهذا الميدان يتضمن دراسة ظواهر أو نظم معينة مثل الدين ، والأخلاق ، والاقتصاد ، واللغة ، والجمال .

ثالثاً : علم الاجتماع العام : General Sociology

وهو يتمثل فى العلم بفروعه المتعددة والذى يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية فى المجتمع .

وقد اتسعت وتشعبت مجالات العلم بعد ذلك ، وبدأت بعض الفروع التى تهتم بطائفة من الظواهر فى الاستقلال النسبى ، وتبدو فى صورة علم اجتماع فرعى ، حتى أصبحت الفروع التى يتضمنها هذا العلم كما يلى :

١- **الإيكولوجيا البشرية Human Ecology** ويهتم هذا الفرع بدارسة علاقة الإنسان بزملائه فى إطار بيئة معينة Environment وأثر هذه البيئة على تلك العلاقة .

٢- **علم الاجتماع الصناعى Industrial Sociology** ويهتم بدراسة البيئة الصناعية والعلاقات الاجتماعية فى الصناعة والمجتمع والمصنع وما يتميز به هذا المجتمع والعلاقات المتبادلة خلال عملية الإنتاج وغير ذلك .

٣- **علم الاجتماع القانونى Sociology Of Law** ويهتم بدراسة القانون ودوره فى المجتمع ، ومدى تعبيره عن

حاجات أفراد هذا المجتمع ، ودوره في عملية الضبط الاجتماعي .

٤- **علم الاجتماع السياسي** Political Sociology ويدرس بناء القوة في المجتمع وعلاقة الحكومة بالمجتمع ، وتعبيرها عن حاجاته وجماعات الضغط في المجتمع ودورها في الأحداث الاجتماعية .

٥- **علم الاجتماع الريفي** Rural Sociology ويدرس مجتمع القرية وخصائصه وطبيعة العلاقات والنظم الاجتماعية السائدة فيه ، ونظم الإنتاج والتبادل والتعليم والدين في مجتمع القرية وغير ذلك مما يتصل بحياة الريف .

٦- **علم الاجتماع الديني** Sociology of Religion ويدرس الدين كنظام اجتماعي مؤثر في عمليات الضبط ، والتنشئة وتنظيم العلاقات ، والأخلاق ، وغير ذلك من شئون المجتمع

٧- **علم الاجتماع الحضري** Urban Sociology وهو يهتم بدراسة حياة المدينة وطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة فيها ، ووظائف الحضرية ، والترويح ، والاقتصاد وغيرها .

٨- **علم الاجتماع الاقتصادي** Economic Sociology وهو يهتم بحياة المجتمع من الناحية المادية ، وتنظيم الثروة وتوزيعها ووسائل تنميتها في المجتمعات المختلفة .

٩- **علم الاجتماع العائلى :** وهو يدرس القواعد التى يخضع لها نظام الزواج والطلاق ودرجات القرابة ، والتنشئة الاجتماعية ، والتفكك الأسرى ، ومشكلات الأسرة وغير ذلك

وسوف نعود إلى هذه الفروع بشىء من التفصيل لدراسة موضوعاتها وأساليب معالجتها لهذه الموضوعات ، وأهدافها من هذه المعالجة – بعد أن نستعرض البدايات التاريخية لظهور علم الاجتماع .

وملامح تطوره بدءاً من التفكير الاجتماعى البدائى ، حتى مرحلة استقلال علم الاجتماع كعلم له موضوعه وفروعه ومناهجه المتميزة .

الفصل الثانى

علاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى

محتويات الفصل الثانى :

علاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى :

إن التوصل للملامح الأساسية للدراسة في علم الاجتماع يقتضى أن نقف على علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية الأخرى . تلك التى تتداخل معه من حيث اهتمامها بجانب أو أكثر من جوانب المجتمع . فعلم الاجتماع يحاول تفسير السلوك الإنسانى سواء فى الماضى أو الحاضر أى أنه يشكل محاولة عملية منظمة لدراسة النماذج السلوكية للإنسان ، سواء منها ما يمكن استخلاصه مباشرة أو استنباطها من تراث متمثل فى الفنون ، والآداب ، والآثار ، وغيرها .

وما من شك أن محاولة وضع حدود فاصلة بين علم الاجتماع والعلوم الأخرى سوف تكون محاولة قاصرة ، ذلك أن السلوك أو الفعل الإنسانى ينتمى إلى معظم مجالات هذه العلوم ، أو يرتبط بها ، هذا فضلاً عن أن تداخل العلوم وتكاملها أصبح حقيقة واقعة بمعنى أن تفسير أى ظاهرة سلوكية لابد أن يأخذ فى الاعتبار الأبعاد السلوكية ، والنفسية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، ومع تسليمنا بصعوبة الفصل الحاسم بين موضوعات أو مجالات العلوم الاجتماعية إلا أن هذا لا يعنى وجود تمييز ولو لغرض التحليل العلمى بين المجالات التى يهتم بها كل فرع ، والمناهج التى يستخدمها فى محاولته تفسير

الظاهرة موضوع الدراسة .

وفى بعض الأحيان يطرح علماء المناهج بعض التساؤلات التى تساعد فى التمييز بين موضوع كل علم اجتماعى ومن هذه التساؤلات :

هل يركز هذا العلم بصفة أساسية على تداخل العلوم أم أنه يركز على جانب واحد من جوانبها ..؟ وإذا كان من النوع الأخير فما هو هذا المجال الذى يهتم به ..؟ وهل يهتم هذا العلم بمسألة التوصل إلى تعميمات نظرية ، وقضايا عامة أم يكتفى بالوصف الملموس للواقع الاجتماعى ؟

وهل يستخدم مقياساً ووسائل رياضية عند معالجته لمادة الدراسة ، أم أنه يعتمد على الملاحظة المباشرة ، والأساليب الأخرى لفهم السلوك الإنسانى ؟ وأى المداخل يأخذ به هذا العلم فى دراسته . وفى الجزء التالى سوف نحاول عرض العلاقة بين علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية :

أولا : علاقة علم الاجتماع بالفلسفة :

لعل من البديهات أن كل العلوم ، الطبيعى منها والاجتماعى ، قد نشأ فى أحضان الفلسفة ، وكثيراً ما يتردد القول بأن الفلسفة هى أم العلوم . ومع ذلك فقد راحت العلوم الطبيعية والإنسانية تبحث عن مجالاتها الخاصة وتطور البحث والدراسة فى هذه المجالات . حتى بدأ كل منها يشكل لنفسه ميداناً خاصاً ، ويطور أساليب خاصة فى البحث والتحليل . وكلما تبلور موضوع ، ومنهج ، ونظرية ، نشأ علم جديد ، وأخذ فى الاستقلال عن الفلسفة ،و اتخذ لنفسه صفات خاصة ومنظورات متميزة .

ولقد كان هذا هو حال علم الاجتماع ، نشأ كغيره من العلوم فى إطار الفلسفة ، أو فى أحضانها إن صح التعبير . واهتم بدارسة تاريخ الإنسانية ، وتاريخ المجتمعات فى نشوتها وارتقائها ، وتدهورها وظهر فى هذا النطاق ما يعرف باسم فلسفة التاريخ التى شكلت مرحلة متميزة على طريق نمو علم الاجتماع ، واكتمال ملامحه . ومع أن علم الاجتماع قد وجد فى سبيله للتطور الابتعاد عن الدراسات الفلسفية ، إلا أنه لا تزال هناك علاقات واضحة بينه وبين الفلسفة . فإذا كانت الفلسفة هى الدراسة المنسقة للفكر والمعارف الإنسانية ، فإن

علم الاجتماع يدرس الإنسان نظرة شمولية في إطار واقع اجتماعي له ملامحه الخاصة .

كما أن هناك نقاط التقاء بين الفلسفة وعلم الاجتماع تتمثل في التصورات التي تتشكل لدينا عن كل ما يحيط بنا ، كما تتمثل في العلاقة بين المادة والوعي ، أو العلاقة بين الأمور الذاتية والأمور الموضوعية .

ومعنى ذلك أن علم الاجتماع إذا كان قد شكل لنفسه مجالاً خاصاً ومنهجاً خاصاً ، واتخذ شكل العلم المستقل ، إلا انه ليس في غنى عما تمده به الفلسفة من قواعد للاستقراء ، والاستنباط ، ومنابع الأخلاق والدين وجذور المعرفة ، وغيرها من الأمور التي تحظى باهتمام مستمر من هذين العلمين .

كذلك فإن علم الاجتماع بدأ يقدم تفسيرات علمية لكثير من القضايا الفلسفية ، فاجتماعية المعرفة ، والأخلاق ، والوظيفة الاجتماعية للدين كل هذه من المسائل التي يسهم علم الاجتماع في دراستها دراسة علمية منظمة تضيف أبعاداً جديدة لدراستها من المنظور الفلسفي .

ولقد يفسر تأكيدنا على هذه الرابطة ، أن دارسي الفلسفة ينطلقون في كثير من دراساتهم من تيارات الفكر اليوناني ، كذلك يفعل علماء الاجتماع في دراسة النظرية

والفروع المختلفة مثل علم الاجتماع السياسي ، والاقتصادى وغيرها . فمنابع الفكر في العلمين واحدة ، وإن العوامل التى تجمعهما اكثر من العوامل التى تفرق بينهما ، بحيث يمكن القول أنه لا غنى لعلم الاجتماع عن الفلسفة ، أو العكس .

ثانياً : علاقة علم الاجتماع بعلم الاقتصاد :

علم الاقتصاد كما نعرف يهتم بدراسة نظم الإنتاج والتوزيع ، والاستهلاك . وقد عرفه " آدم سميث " بأنه العلم الذى يدرس طبيعة ثروة الأمم ومظاهرها الخارجية ، كما يعرفه " مارشال " بأنه دراسة الناس في حياتهم العلمية العادية . هذا ويهتم الاقتصاد بصياغة وتحديد المفهومات المرتبطة بنواحى الإنتاج والتوزيع والاستهلاك مثل مفهومات رأس المال ، والرأسمالية ، والعرض والطلب ، والنمو الاقتصادى ، والربح ، والدخل ، والاستثمار والتبادل ، والتكاليف ، والضريبة ، والثروة وما إلى ذلك .

ومع ذلك فإن هناك مجالات ، وموضوعات لم تلق الاهتمام الواجب من جانب علماء الاقتصاد . وأصبحت مجالاً خصباً لعلم الاجتماع وعلم النفس ، ومن هذه المجالات دور القيم والتفضيلات في التأثير على فرص عرض العمل ، وتأثير العادات والتقاليد على أسعار السلع ، والانتماءات الطبقية

لطائفة المنظمين أو المديرين ، والبناء الدافعى لدى أبناء هذه الطائفة ومدى إسهام التعليم والتربية فى مجال الإنتاج ، والعلاقة بين التعليم والتدريب ، والكفاية الإنتاجية ،و علاقة الاتجاهات والدوافع الاجتماعية ، والسياسية بالإنتاج ، هذا فضلاً عن الدراسات أو الموضوعات الخاصة بالأداء البيروقراطى داخل المصنع وأثره .

ولما كانت النظم والظواهر المختلفة فى المجتمع تتفاعل فيما بينها ، وتتبادل التأثير وأن علماء الاجتماع يحاولون دراسة علاقة النظام الاقتصادى ، ببقية النظم الاجتماعية الأخرى كالنظام السياسى ، والدينى ، والعائلى ، ودور النظام الاقتصادى ووظيفته داخل المجتمع فإن هناك العديد من الظواهر ، وأشكال السلوك لا يمكن فهمها دون إدراك علاقتها بالبناء الثقافى السائد داخل المجتمع .

ورغم ما حققه علم الاقتصاد من تقدم فى تحديد مفهوماته وموضوعاته ، واتفاق علمائه والمشتغلين به على الكثير من القضايا العامة ، والنظريات . ومقدرتهم على تطبيق هذه النظريات وتنفيذ المقترحات التى يتوصلون إليها ، ورغم كل هذا فإنه أصبح من المتفق عليه أن علم الاقتصاد وحدة كعلم نوعى ، وعلماء الاقتصاد وحدهم كعلماء متخصصين ليس بإمكانهم التكفل

بعمليات التنمية والتطوير الاقتصادى دون الاستعانة بالدراسات التى تجرى فى مجالات علم الاجتماع ، وما توصل إليه هذا العلم من فحص لمشكلات المجتمع وأسبابها فهناك ولا شك مجموعة من العوامل الاجتماعية ، مثل القيم والمعايير ، والمؤثرات السيكولوجية والعادات ، والتقاليد ، والاتجاهات ، وهذه لها دورها الكبير فى تحديد مسارات واتجاهات العمل الاقتصادى ذاته .

وهذه الأمور تكشف عن العلاقة القائمة بين علم الاجتماع وعلم الاقتصاد ، فضلاً عن أن هناك اتفاقاً شبه تام بين المشتغلين بالعلمين على بعض الأمور من والمفهومات والقضايا مثل الاهتمام المشترك بقياس العلاقة بين المتغيرات والنظرة إلى النسق العام ، والأنساق الفرعية ، وكذلك استخدام أسلوب المعالجة الإحصائية والرياضية ..و غير ذلك .

ثالثاً : علاقة علم الاجتماع بعلم السياسة :

كذلك فإن النظام السياسى ، والظواهر السياسية ذات تأثير متبادل مع غيرها من الظواهر الاجتماعية ودراسات علم السياسة خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تركز على موضوعين أساسيين :

الأول : هو النظرية السياسية بما تتضمن من آراء ونظريات بدءاً من " أفلاطون " حتى " ماركس " مروراً بغيرهم من العلماء مثل " ميكيافيلى " ، " وروسو "

الثانى : هو الإدارة الحكومية بما تتضمن من بناء ، ووظائف تقوم بها الأجهزة الحكومية المختلفة .

ولكن علم الاجتماع يأخذ بمدخل أكثر شمولاً من منظور العلوم السياسية ، فهو يهتم بدراسة كافة المتغيرات التى تشكل إطار الحياة الاجتماعية بما فى ذلك النظام السياسى ، والقوة السياسية ، كما يهتم بالعلاقات المتبادلة بين كافة نظم المجتمع بما فى ذلك النظام السياسى أو النظام الحكومى . كذلك ظهر فرع حديث من فروع علم الاجتماع هو الاجتماع السياسى الذى يشارك العلوم السياسية اهتمامها بنفس القضايا ، خاصة قضية القوة السياسية فى المجتمع ومن أهمهم " ماكس فيبر" M ax Weber وروبرت ميشلز Robert Michels فى مجال أبعاد الدراسة فى علم الاجتماع السياسى .

ومن أبرز الجوانب التى أوضحت العلاقة بين علم الاجتماع وعلم السياسة ، هو ذلك الفرع الجديد الذى أطلق عليه السلوك السياسى Political Behaviour ، وهذا الفرع يدرس السلوك الانتخابى والسلوك الحزبى ، واتجاهات المواطنين

وقيمهم نحو بعض المواقف والاتجاهات السياسية . والحركات السياسية داخل المجتمع ، والتنظيمات السياسية وعمليات اتخاذ القرار داخل هذه التنظيمات ، وقد أدخل هذا الفرع علم الاجتماع إلى نطاق العلوم السلوكية وبعد تعميق العلاقة بين علم الاجتماع والسياسة أصبح هناك كثير من علماء السياسة يتبنون المنظور السوسيولوجى فى معالجة قضايا السياسة ، بحيث يمكن تصنيف دراستهم ضمن العلوم السلوكية .

أى أنه يتضح من ذلك أن المدخل السوسيولوجى التكاملى فى علم الاجتماع يستوجب معالجة قضايا السياسة ، كالسلطة ، والضبط الاجتماعى ، والسياسى ، والبناء القانونى للمجتمع والتنظيمات السياسية ، كل ذلك من خلال ربطها ببناء المجتمع ، ونظمه الأخرى ، ومن خلال تفهم أصولها التاريخية ووظيفتها الاجتماعية داخل هذا المجتمع . وقد استطاع بعض علماء الاجتماع أن يقدموا من خلال هذا المنظور إسهامات قيمة لعلم السياسة نفسه .

رابعاً : علم الاجتماع والتاريخ :

بينما يهتم علم الاجتماع بدراسة العلاقات والوقائع الاجتماعية المتزامنة التى تقع فى الوقت الحاضر أو التى وقعت فى الماضى القريب ، فإن المؤرخين يتناولون بالدراسة تلك

العلاقات والوقائع من جوانب عمقها ، وزيادة قيمتها التاريخية ، والمؤرخون فى هذه الحالة يكتفون ببيان كيفية وقوع الأحداث ، وربما لا يحاولون البحث فى تفسير أسباب وقوعها من خلال ربطها ببناء المجتمع ونظمه . وعلى عكس ذلك نجد أن علماء الاجتماع يهتمون بالتركيز على العلاقات المتبادلة بين الوقائع والأحداث ، وعلى ما تؤديه كل منها من وظيفة اجتماعية داخل المجتمع . كذلك يتجاوز علم الاجتماع السرد الوضعى للأحداث إلى محاولة الكشف عما تشكله هذه الأحداث من قوانين عامة ، وما يربطها من سياق عام يشكل مساراً معيناً لحياة المجتمعات عبر تطورها التاريخى .

وليس معنى الإشارة إلى هذه الفروق بين العلمين أن هناك انفصالاً بينهما ، فكثيراً ما اهتم بعض المؤرخين بالتاريخ الاجتماعى ، أو تاريخ العادات والعلاقات ، والأعراف والنظم الاجتماعية والنماذج السلوكية داخل المجتمع . كما استعان البعض الآخر بالتحليلات السوسيولوجية فى مجال فهم الواقع والأحداث ، هذا فضلاً عن الدعوة لقيام فرع من علم الاجتماع والذى اهتم به كثير من العلماء ، وهو علم الاجتماع التاريخى . كذلك لا يشك أحد فى أهمية البعد التاريخى فى فهم نظم وعلاقات المجتمعات المعاصره . الأمر الذى يؤكد أهمية

التعاون بين علمى الاجتماع والتاريخ ، ويقول أحد العلماء أن المشتغلين بعلم التاريخ قد أخذوا فى المراحل الأخيرة يوسعون من إطار دراستهم ، بالبعد عن الدراسات الضيقة والمحدودة ، ويرى أنه فى ضوء ذلك فإن إقامة نوع من التعاون بين المؤرخين ، وعلماء الاجتماع سوف يحقق نتائج هامة فى مجال فهم الحياة الإنسانية وظواهرها المتشابكة . ويضاف إلى كل ما ذكرناه أن المنهج التاريخى فى علم الاجتماع يعتبر أحد المناهج الرئيسية فى البحث الاجتماعى ، ومعظم الدراسات التى أجريت فى مجال علم الاجتماع استعانت إلى حد بعيد بهذا المنهج من ناحية ، وبالسلطات التاريخية من ناحية أخرى .

خامساً : علم الاجتماع وعلم النفس :

يدرس علم النفس السلوك الإنسانى بكافة أنواعه ، الظاهر منه والباطن ، الشعورى منه واللاشعورى ، والفطرى منه والمكتسب . كما يهتم علماء النفس بدراسة العمليات العقلية كالإدراك والتصور والتخيل ، والتفكير ، والتعليم ، ويركزون على دراسة المشاعر والعواطف والدوافع ، والحوافز وغير ذلك . وتجرى دراسة كل هذه الموضوعات والجوانب فى إطار الشخصية التى ينظرون إليها علي أنه كل متكامل .

وهناك تقارب واضح بين علم الاجتماع وعلم النفس

الاجتماعى وهو الذى يدرس السلوك الاجتماعى الناشئ عن انخراط الإنسان فى التفاعلات الاجتماعية . فعلم النفس الاجتماعى يهتم بدراسة مجموعة من الموضوعات التى تحتل أهمية جوهرية فى التحليل السوسيولوجى مثل الاتجاهات ، والجماعات والرأى العام والفعل الاجتماعى ، وقياس العلاقات . وبهذا فإن علم النفس الاجتماعى يشترك مع علم الاجتماع فى دراسة الشخصية الإنسانية داخل السياق الاجتماعى ، والانتماءات الشخصية والطبقية والمهنية وغيرها من الأمور التى تؤثر على سلوك الفرد ، وتفاعله الاجتماعى .

كذلك فإن بعض علماء النفس يهتم بدراسة أثر البيئة أو المناخ على بعض العمليات العقلية كالإدراك ، والتصور والتخيل . أى أنهم يهتمون بالمضمون الاجتماعى والثقافى لهذه العمليات . ويقول عالم الاجتماع الأمريكى " وليم أوجيرن " أن علم الاجتماع قد أدرك أهمية دراسة الشخصية ، كما أدرك علم النفس أهمية دراسة الثقافة ، ومن هنا قام الترابط بن هذين العلمين .

وهناك اتجاه فى علم الاجتماع يعرف باتجاه الفعل الاجتماعى ، قد اهتم أنصار هذا الاتجاه بتحليل الفعل الاجتماعى إلى مكوناته الأساسية بهدف الوقوف على دوافعه وأبعاده وموجهاته وآثاره على الفرد ، والجماعة ، والمجتمع .

وأيضاً موضوعات كالقيم والتنشئة الاجتماعية ، والعلاقات المتبادلة بين العوامل الثقافية والعوامل السيكولوجية . هذا ورغم اختلاف مداخل الدراسة فى علم النفس عنها فى علم الاجتماع . إلا أن مثل هذه الاختلافات تتلاشى عند الممارسة الفعلية . بحيث يصعب التمييز بين ذوى المهارات فى التحليل السوسيولوجى وذوى المهارات فى التحليل السيكولوجى .

سادساً : علم الاجتماع والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) :

تدرس الأنثروبولوجيا موضوعات متنوعة ، ولذلك فهى ترتبط بالعديد من العلوم الأخرى ، مثل علم الآثار ، وفى وصف بقايا الثقافات الماضية ، والأنثروبولوجيا ، هى العلم الذى يدرس نشأة وتطور الأشكال الاجتماعية ، والعادات الإنسانية . والاثنوجرافيا وهى الفرع الذى يهتم بالدراسة الوصفية المقارنة للأحداث والظواهر الثقافية التى توجد فى زمن واحد ، وكذلك للأنثروبولوجيا علاقة بالتاريخ الثقافى ، واللغويات وبعض العلوم الطبيعية ، وعلوم الحياة . وهناك فرعان متميزان من فروع الأنثروبولوجيا يهتمان بدراسة البناءات الاجتماعية ، والثقافية للمجتمعات ، والنظم والعلاقات وأوجه التفاعل الاجتماعى ، وبالتالى فإنهما يشاركان علم الاجتماع فى اهتماماته الأساسية . وهذان الفرعان هما الأنثروبولوجيا الثقافية ،

والأنثروبولوجيا الاجتماعيـة والأنثروبولوجيـا باعتبارهـا تـدرس الثقافـة ترتبـط ارتباطـاً وثيقـاً بعلـم الاجتمـاع ، وتشـير الثقافـة بمعناها الضيق أو المحدود إلى نسق الرموز الـذى يتضمـن اللغـة ، والقيم والمعـانى المشـتركة بـين جماعـة معينـة أو لـدى شـعب مـن الشـعوب . وأيضـاً فـإن هنـاك موضوعـاً متمـيزاً للأنثروبولوجيـا الثقافية وهو دراسة الثقافة .

ولتداخل مواضيع ومنهج البحث فى علم الاجتمـاع ، وعلـم الأنثروبولوجيـا ، فقـد تم دمـج قسـم الاجتمـاع ، مـع قسـم الأنثروبولوجيا فى كثـير مـن الجامعـات الأمريكيـة . ورغـم هـذا التشابه والترابط الكبـير . إلا أن هنـاك مجموعـة مـن الاختلافـات بين علمى الاجتماع والإنسان مع أن هذه الاختلافـات فـى طريقـها إلى التلاشى أو الزوال . فقد ارتبطـت الأنثروبولوجيـا الاجتماعيـة منذ نشأتها بدراسة المجتمعـات البدائيـة . وهـى مجتمعـات لهـا سماتها المحددة بعكس الحـال فـى علـم الاجتمـاع الـذى ارتبطت نشأته بدراسة أكثر المجتمعات تطوراً وتقدماً ، وهى المجتمعـات الأوروبيـة . وقـد ترتـب علـى هـذا التبـاين اختـلاف فـى مداخـل الدراسـة فـى كـل مـن هذيـن العلمـين . فعلمـاء الأنثروبولوجيـا يميلـون لدراسـة المجتمعـات الصغـيرة أو المعزولـة . أو المكتفيـة ذاتيـاً . دراسـة كليـة شـاملة . بينمـا يـدرس علمـاء الاجتمـاع

عادة أحد جوانب المجتمع وغالباً ما يتخصص كل عالم فـى دراسـة موضوع أو نظام . فهذا يدرس نظام الأسرة ، وذلـك يـدرس التغـير الاجتماعى ، وثـالث يـدرس التنقـل الاجتمـاعى ، ورابـع يـدرس الطبقـات وخـامس يــدرس مجتمــع المصنــع ، وســادس يــدرس الجوانب السياسية وغير ذلك .

ووفقاً لتقاليد البحث الأنثروبولوجى فـإن علـى البـاحث أن يقيـم فـى مجتمـع الدراسـة إقامـة كاملـة لفـترة زمنيـة معينــة . مشاركاً فـى كثـير مـن نظمـه وعاداتـه وتقـاليده حتـى يتمكـن مـن ملاحظـة كافـة ملامـح الحيـاة الاجتماعيـة للمجمـع بنفسـه وتسجيلها كما يراها أو كما يستمع إليها مـن الإخبـاريين . بينمـا يعتمـد علـم الاجتمـاع علـى المنـاهج الإحصائيـة والأسـلوب الكمـى والأدوات الخاصة كالاستبيان وجدول المقابلة وغيرها .

وعلى كـل حـال فـإن التمييـز الحاسـم بـين علـم الاجتمـاع والأنثروبولوجيا أمر غير علمى خاصة فى العصر الحديـث الـذى ، أخذت فيه الأنثروبولوجيـا تطـور ميـدان دراسـتها ، فبـدأت فـى دراسة مجتمعات أوسع نطاقـاً ، وأكـثر تقدمـاً ، وتحضـراً وتعقـداً مثـل التنظيمـات الصناعيـة والإداريـة الكـبرى مـن خـلال المدخـل الأنـثروبولوجى هـذا فضـلاً عـن الاتجـاه المـتزايد نحـو اسـتخدام المعلومات الكثيرة فى الدراسات الأنثروبولوجية .

من كل هذا يتضح العلاقة أو الروابط بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، كما تتضح فى نفس الوقت الفروق الدقيقة بين العلمين من حيث مجالات البحث ومداخله .

سابعاً : علم الاجتماع والديموجرافيا :

شكلت الدراسات السكانية مجالاً هاماً من مجالات العلوم الاجتماعية ، وتبلورت دراساتها حتى أصبحت علماً مستقلاً . ومع هذا لا يزال الارتباط بين هذا العلم وبين علم الاجتماع قائماً وأساسياً ، وأبعد من ذلك فإن الدراسات السكانية وإن كانت قد تغلغلت فى دراسات علوم أخرى مثل الجغرافيا والاقتصاد ، إلا أن رباطها الأساسى لا يزال مع علم الاجتماع . وذلك من منطلق أن علم الاجتماع يدرس الإنسان باعتباره عضواً فى مجتمع ، ويتشكل فى جماعات نوعية تشغل مساحات مكانية ، وتضغط على وسائل العيش عند حد معين وقد تحقق وفرة عند حد آخر . وهذه الجماعات هى عماد الاقتصاد إنتاجاً واستهلاكاً . وعبر هذه العملية يتفاعل أعضاؤها ويتشابكون من خلال نظم وروابط واتجاهات معينة . ولكل منها سماتها وتركيبها وفئاتها العمرية وما إلى ذلك من الخصائص التى يدرسها علم السكان أو الديموجرافيا .

فإذا أردنا أن نضع أساساً لخطة تنموية لابد من الاستعانة بمعطيات هذا العلم ، وإذا كنا ندرس في مجال العلاقات والتفاعل فلابد من الاستعانة بمعطيات علم الاجتماع في مجال العلاقات والتفاعل ، والتعاون والتنافس والصراع وغير ذلك من الديناميات ، لكل هذا فالعلاقة واضحة بين العلمين ، والتعاون متبادل بشكل كبير ، ويهتم علم السكان بما طرأ على السكان من تغير ، وما يحدثه هذا التغير على حجم وتوزيع السكان وخصائصهم النوعية . فالأوضاع السكانية زيادة أو نقصاناً ذات آثار اجتماعية . فحينما تزايدت أحجام المدن ظهر التخصص وتقسيم العمل . وخطت الحضارة الإنسانية خطوات ملموسة على طريق النمو والتقدم . كما أن زيادة السكان قد تحدث مشكلات اجتماعية لابد أن يواجهها علم الاجتماع . ويشخص أسبابها ويقترح وسائل مواجهتها والقضاء عليها .

كما تمثل الهجرة السكانية موضوعاً مشتركاً للدراسة بين علم الاجتماع وعلم الديموجرافيا ، فقد تكون الهجرة إلى الخارج ، وقد تكون هجرة داخلية ويطلق على الأولى Emigration ، وعلى الثانية Immigration بينما الهجرة كظاهرة عامة يطلق عليها Migration ولعل ظاهرة الهجرة من الريف إلى الحضر ، خاصة في بلدان العالم الثالث أصبحت من

الظواهر التى تخلق أوضاعاً اجتماعية يهتم بها دارسو الاجتماع مثل التوافق ، والتفاعل مع الأوضاع الحديثة التى تواجه المهاجرين . وليس الأمر قاصراً على الآثار الداخلية . ولكن الهجرة كثيراً ما تخلق أوضاعاً على المستوى العالمى يهتم بها دراسو الاجتماع السياسى ، فكثير من الحروب والأزمات قد نشبت بفعل الهجرة من دولة لأخرى .

وهكذا يمكن القول إن العلاقة بين علم الاجتماع وعلم الديموجرافيا وطيدة . وهى تفرض ضرورة قيام نوع من التعاون المتبادل بين علمائهما الأمر الذى يضفى على دراستهما عمقاً كبيراً.

ثامناً : علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية :

تهتم الخدمة الاجتماعية بمساعدة الأفراد لتحقيق التوافق والأمن الاجتماعى . والاعتماد على النفس . وهى فى سبيل هذا تعتمد على المهارات السلوكية ، والمهارات الخاصة بالعلاقات الاجتماعية ، وكل هذا يقوم بالدرجة الأولى على المعرفة العلمية .

وعلى هذا فالخدمة الاجتماعية فن تطبيقى يسعى لنقل المعرفة العلمية إلى حيز التطبيق . ومن هنا فإنه يجد فى دراسات علم الاجتماع وعلم النفس وغيرهما ما يعينه على تحقيق أهدافه .

وقد كان هناك نوع من الخلط بين علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية، ولكن محاولة كل منهما تحديد أهدافه ومناهجه وأدواته قد اسهم فى إزالة هذا الخلط . فإذا كان علم الاجتماع يهتم بدراسة بعض مجالات الحياة الاجتماعية ويحاول تشخيص الأسباب المؤدية إلى بعض المشكلات ، فإنه يترك وسائل مواجهة هذه المشكلات للخدمة الاجتماعية لتنقل المنظورات التى توصل إليها إلى حيز التطبيق .

تاسعاً : علم الاجتماع والقانون :

قد يظن البعض أن علم الاجتماع منعدم الصلة بالقانون ، وأن كلاً منهما يمثل نسقاً معرفياً مستقلاً . ولكن واقع الأمر غير ذلك . فإذا كان القانون يهتم بتنظيم العلاقات بين الناس ، وفقاً لقواعد محددة يتساوى أمامها الجميع ، ويرتب أوجه العقاب لكل سلوك انحرافى ، وفقاً لقواعد محددة أيضاً ، فإنه ما من شك فى أن القانون بما يتضمنه من قواعد على المستوى القومى ، والدولى يرجع لأساس اجتماعى بالدرجة الأولى . ذلك أن نمو العلاقات الاجتماعية وتشعبها ، وتعدد أوجه النشاط الإنسانى يخلق نوعاً من التنازع ، وتضارب الآراء والرغبات ، الأمر الذى يفرض الحاجة لصياغة قانون ينظم حقوق الأفراد وواجباتهم ، وكذلك حقوق الدول وواجباتها فما لم تتطور العلاقات الإنسانية إلى

نوع من الصراع والجريمة ، لما كانت هناك حاجة للقانون الجنائى. وما لـه يشعر النـاس بالحاجـة إلى قـانون ينظم الملكيـة فـى كـل المجالات ، لما كانت هنـاك حاجـة للقـانون المدنـى . وهكـذا فإنـه يمكن القول إن القانون تعبير عن حاجات اجتماعيـة يفصح عنـها الأفراد والجماعـات ، ويضغـط الـرأى العـام مـن أجـل إشباع هـذه الحاجات بشكل ملائـم . ومـن هنـا فـإن المشـرع النـاجح هـو الـذى يملك ناصية الفـهم للواقـع الاجتمـاعى المتشـابك ، حتـى إذا صـاغ قاعدة قانونية خرجت معبرة عن حاجات النـاس ولم تغفـل جانبـاً من جوانب هذا الواقع .

ولما كـان التغـير الاجتمـاعى هـو سمـة الحيـاة ، وقانونـها العام ، فإن المشرع كثيراً ما يأخذ فى اعتبـاره حـدوث هـذا التغـير ويحسب حسابه ، ويجعل قاعدته القانونية مرنه ومتحسـبة لمثـل هذا التغير .

أبعد من ذلك أن هناك فرعاً حديثاً من فـروع علـم الاجتمـاع يهتم بدراسة المستقبل ، وهو علم اجتماع المسـتقبل ، وهـذا الفـرع يـدرس المـاضى ، والحـاضر ، ويركـز علـى اسـتخلاص مؤشـرات المستقبل ، ولا شـك أن نتـائج الدراسـة فـى هـذا العلـم تضـع أمـام رجـل القـانون أو المشـرع احتمـالات يمكـن أن تحـدث إذا سـارت الأمور فـى اتجـاه معـين . ولذلـك فـهو يستعين بـهذه الدراسـات

حتى يحقق أهدافه فى أخذ التغـير فى الاعتبار . والأمثلة على ما نقول عديدة ولا حصر لها ، وكلـها تؤكد أن العلاقة بين علم الاجتماع والقانون علاقة وثيقة لا يمكن تجاهلها . كما يؤكد أن التمييز بين العلمين هو لأغراض تحليلية فقط . ولعل أبرز دليل على ذلك يتمثل فى إدخال مبادئ القانون كمقرر أساسى على طلاب الاجتماع والعكس. هذا فضلاً عن المجالات التى يلتقى فيها العلمان مباشرة كالجريمة ، والسلوك الانحرافى ، والعلاقات المدنية ، والعلاقات الدولية ، وقوانين المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية .

عاشراً : علم الاجتماع والجغرافيا :

كان العلماء قد درجوا على الحديث عن ثنائية البيئة الجغرافية ، والبيئة الاجتماعية . ولكن التطورات الحديثة فى علم الاجتماع تذهب إلى أن الإنسان يعيش فى بيئة واحدة لها بعد اجتماعى ، وآخر فيزيقى ، وبالتالى أصبح مفهوم البيئة أكثر شمولاً من ذى قبل . وعلى ذلك فإن علم الجغرافيا يدرس البيئة الطبيعية وما يرتبط بها من ظروف الطقس والمناخ والتضاريس وطبيعة الأرض ، والموارد الطبيعية ، على حين يهتم علماء الاجتماع بتأثير هذه العوامل على حياة المجتمع اقتصادياً ،

وثقافياً ، وسياسياً ، وما تخلقه من عادات وتقاليد ونظم تتفق مع هذه البيئة .

وكثيراً ما نقرأ عن عادات ونظم وفنون ترتبط بشعب معين ، وفى الوقت نفسه غير مألوفة لشعب آخر . فعادات البدو تختلف عن عادات الحضر ، وكل منها وليد البيئة التى نشأ فيها وملائم لها . ولابد من دراسة هذه البيئة بشقيها الاجتماعى والفيزيقى . فالذى يقرأ عن نشاط سكان المكسيك مثلاً ، يجد أن العام ينقسم عندهم إلى قسمين الأول للعمل والإنتاج عند تحسن المناخ ، والثانى للهروب من الأمطار والأعاصير ، واستهلاك ما سبق إنتاجه ، ومن أجل ذلك نجد منازل للشتاء وأخرى للصيف ، ومنازل الشتاء مصممة لاستيعاب المخزون السلعى ، أو الغذائى ، ومزودة بأساليب للأمن والرقابة ، بينما منازل الصيف مكشوفة وفى الحقول . منازل الصيف تغلب عليها الروح الفردية . أما منازل الشتاء فتغلب عليها روح الجماعة والحياة الجماعية ولكل عاداتها وطقوسها . ومن هنا فإن من يدرس هذه المجتمعات لا يستطيع أن يدرس ظاهرة اجتماعية بمعزل عن مؤثراتها البيئية ، أو العكس

كذلك فإنه لا غنى للإنسان عن الإنتاج والعمل ، ويعتمد الإنتاج على نشاط السكان وحيويتهم ،و هذا النشاط وتلك

الحيوية ذات جذور مرتبطة بالبيئة وبالتالى فلابد من دراسة الجانبين معاً فى تكامل وجدير بالذكر أن العلاقة الوثيقة بين الجغرافيا وعلم الاجتماع قد أدت إلى ظهور فرع جديد من علم الجغرافيا يعرف باسم " الجغرافيا البشرية " وهو يهتم بالعلاقات المتبادلة بين الإنسان والبيئة الجغرافية .

ومع هذا فمن الخطأ الاعتقاد بأن الإنسان يقف سلبياً أمام الظواهر الطبيعية من مناخ ، وتضاريس ، وجيولوجيا ، لكن على العكس من ذلك فإن الإنسان قد تدخل فى هذه الظواهر ، فأنزل الأمطار . وأذاب الجليد ، وحفر الأرض ، واستخرج ما فى باطنها ، وتدخل فى كثير من هذه الأمور ، ليعدل من إيقاعها ، ويجعلها ملائمة لظروف الحياة والإنتاج والعمل ، والعلاقات الأخرى . ففى المناطق الحارة شيد المبانى بارتفاعات معينة تخفف من وطأة الحر . فضلاً عن الاكتشافات الحديثة التى أدت إلى التغلب على هذه الظاهرة ، كذلك صمم ملبساً ملائماً لهذه الظروف وعلى العكس من ذلك فى المناطق الباردة والمطرة شيد الطرق والسدود والقنوات بشكل يخفف من آثار هذا النوع من المناخ . كذلك صمم الملبس الذى يقيه وطأة البرد والمطر . وكل هذه الأمور لم تكن تتسنى للإنسان دون نشاط وتفاعل اجتماعى خلاق ، وكل تطور تكنولوجى يقف شاهداً على عظمة الإنسان فى

مقاومة الطبيعية القاسية ، وسيطرته على ظروفها ، وتسخيرها لصالحه .

من كل ما سبق نتبين أن علم الاجتماع ، وعلم الجغرافيا وجهان لعملة واحدة ، بل شقان لإطار واحد هو البيئة بمعناها الشامل ، ومن هنا فالعلاقة أكيدة ومستمرة ، خاصة في محاولات كل من العلمين لتوسيع إطار دراساته وبحوثه .

تعقيـــب :

إذا كنا قد استعرضنا في هذا الفصل علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية ، وذلك في محاولة لتحديد مدى استقلال هذا العلم عن غيره من العلوم الاجتماعية الأخرى ، فإننا يمكن أن نشير إلى أن هذا الاستقلال يعتمد على تميز علم الاجتماع أو انفراده بأسلوب خاص به في المعالجة . ومدخل خاص به في الدراسة ، ومناهج يعتمد عليها في تحليلاته لجوانب الحياة الاجتماعية ، وأخيراً يعتمد على مدى نمو وتطور الإسهامات النظرية في مجال هذا العلم ، أي توصله إلى تشخيص وصياغة القوانين التي تحكم الجماعات والتنظيمات الاجتماعية المختلفة .

وبعد ذلك يمكن أن نتساءل هل الاستقلال الذي نتحدث عنه استقلال مطلق ، أم أن هذا العلم يرتبط بغيره من العلوم الاجتماعية ، وما هي طبيعة هذه العلاقة ..؟ وهنا يمكن القول

إن علم الاجتماع قد انتهى من تحديد موضوعه ، ومجال اهتمامه ، ولا زال يسعى فى سبيل تحقيق أكبر قدر ممكن من الدقة فى هذا النطاق . كما أنه لازال يسعى لتأكيد دعائم استقلاله كنظام فكرى ، وعلم مستقل بذاته . ومع كل هذا فإنه لا يسعى لأن يكون استقلاله مطلقاً أو كاملاً ، لأنه سوف يظل يحتاج لمعطيات العلوم الأخرى من أجل تعميق التحليل والبحث فيه .

وعلى هذا فإنه تجدر الإشارة أن علم الاجتماع يشترك مع العلوم الاجتماعية الأخرى فى دراسة موضوع واحد وهو المجتمع ، والنشاط الإنسانى . والتمييز بينه وبين هذه العلوم يقوم على طريقة تناول هذا العلوم والمدخل العام الذى يوجه الدراسة فيه وكذلك الهدف من هذه الداسة . كما أن تمايز علم الاجتماع من حيث المدخل والهدف لا يمكن أن ينفى علاقته المتبادلة بالعلوم الاجتماعية الأخرى ، فليس هناك ما يمنع من استفادة علم الاجتماع بدراسات علم الاقتصاد والسياسة وعلم النفس ذلك أن العلم الاجتماعى ككل يسعى إلى تحقيق التكامل المفروض حول الإنسان والمجتمع ، الأمر الذى يبرر الحرص على استمرار العلاقة التبادلية بين الفروع المختلفة لهذا العلم .

الفصل الثالث

مناهج البحث فى علم الاجتماع

محتويات الفصل :

تمهيد :

أولاً : عناصر البحث الاجتماعى .

ثانياً : أنواع البحوث فى علم الاجتماع .

١ - البحوث الكشفية أو الاستطلاعية .

٢ - البحوث الوصفية .

٣ - البحوث التشخيصية أو التجريبية .

ثالثاً : مناهج البحث الاجتماعى :

١ - المنهج التاريخى .

٢ - المنهج التجريبى .

٣ - المنهج المقارن .

٤ - المنهج الإحصائى .

٥ - القياس الاجتماعى .

رابعاً : مراحل البحث الاجتماعى .

خامساً : أدوات جمع البيانات :

١ - الملاحظة .

٢ الاستبيان .

٣ - المقابلة .

سادساً : العينات

تعقيب

مقدمة :

يقوم علم الاجتماع كغيره من العلوم الأخرى بإجراء التجارب ، وتنفيذ البحوث التى يستنتج منها الباحث القواعد أو القوانين التى تخضع لها الظواهر ، والوقائع الاجتماعية وهذه القوانين تساعد بالتالى على التنبؤ بالظواهر الاجتماعية فى المستقبل،وكذلك على مواجهة ما يطرأ فى الحياة الاجتماعية من مشكلات على أسس علمية واضحة ،وقد أصبح هناك شبه اجماع الآن بين علماء الاجتماع على أن إستخدام وتطبيق المناهج العلمية فى إطار علم الاجتماع يشكل ضرورة أساسية لتحقيق شرط العلمية فى هذا النوع من الدراسات ، وعلى هذا الأساس فإن دراستنا فى علم الاجتماع تقوم على مبدأ أساسى وهو أن الظواهر الاجتماعية ظواهر ملموسة أو محسوسة يمكن مشاهدتها فى العالم الحسى أو الواقعى أى أننا لا نبحث فى أمور ميتافيزيقية ، ولكننا ندرس بطريقة تجريبية محسوسة ،وأسلوبنا فى ذلك هو المشاهدة المباشرة ،أوغير المباشرة (كدراسة التاريخ) فالباحث فى علم الاجتماع يستعين بكل ما هو مكتوب أو مدون عن المجتمع سواء كان قديماً أو حديثاً إذا وجد فيه ما يمكنه من معرفة أو إستنتاج شئ عن الحياة الاجتماعية الخاصة بالوسط الذى يدرسه،ثم إن على الباحث أن يخلص نفسه من كل فكرة سابقة على البحث،وخاصة الأفكار والآراء الشائعة التى قد تكون مصدراً

لأخطاء كبيرة ،فقد نعتقد فى دراستنا لبعض المجتمعات أن صلة الدم والنسب هى أساس تكوين الأسرة،بينما يظهر البحث الاجتماعى مثلاً أن ـ هناك أسراً فى مجتمعات أخرى تقوم على نظام التبنى ، وليس على أساس صلة القربى والدم ، وهنا لابد أن نطبق أسلوب الشك المنهجى بمعنى أننا يجب أن نشك فى كل فكرة شائعة لدينا عن الظواهر الاجتماعية إلى أن يتبين صدقها أو خطؤها،وهنا يقول " مارسيل موس " ،إننا نعتقد أننا نعرف كل شئ عن الحياة الاجتماعية لأننا نعيش فيها ،ولكن مع ذلك فالمعيشة والمشاركة فى الحياة الاجتماعية شئ ، ومعرفتها شئ آخر.

وفضلاً عما سبق فإننا يجب أن ننظر للظواهر الاجتماعية على أنها أشياء وبالتالى فإن علينا أن نقف حيالها موقفاً موضوعياً objective كما ندرس الظواهر المادية والطبيعية ،وهذا عكس الدراسة الذاتية subjective فالأمور الموضوعية هى التى لا تتوقف على رأينا ورغباتنا،أو على مجرد البراهين العقلية والنظرية ،بل وتتوقف علىالبحوث التى تجرى بشكل تجريبى وعملى على الواقع الاجتماعى، كما تخضع هذه البحوث للمقاييس الكمية ، أما الأمور الذاتية فهى تلك التى تتوقف على رأينا الشخصى واقتناعنا بالبراهين النظرية ، وأساليب العقل والمنطق،كما أنها لا تخضع للمقاييس الشخصية، ولكن للوصف

الكيفى ، فدراسة العلاقة بين سوء الحالة الاقتصادية ومعدلات السلوك الإجرامى تعتبر دراسة موضوعية لأن تقرير هذه الحقيقة تعتمد على ما يمكن استخلاصه عن طريق البحث الاجتماعى من نسب ، ومعدلات عن مستوى الحالة الاقتصادية ، ونسبة السلوك الإجرامى فى وقت معين ومجتمع معين ، ومثل هذه العلاقة لا يمكن أن نوضحها بحديث نظرى أو إستدلال منطقى ، وعلى العكس من ذلك إذا كنا ندرس هل من الأفضل أن تكون للإنسان عين واحدة أو إثنان فإن نتائج هذه الدراسة تعتمد على الآراء الذاتية والبراهين العقلية وهذه دراسة ذاتية.

وهنا نشير إلىما سبق أن ذكرناه من أن " دوركيم " هو الذى وضع مبدأ الشيئية فى مجال دراسته لمناهج البحث فى علم الاجتماع،ومن المبادئ الأساسية فى البحث الاجتماعى أيضاً أن نحدد مجال هذا البحث ،فإذا كنا بصدد دراسة ظاهرة الإنتحار فإن علينا أن نحدد فى البداية ماذا نقصد بالإنتحار وهل يختلف عن التضحية مثلاً،ثم ننتقل إلى تحديد نوع وطبيعة الظواهر التى تدخل فى هذا البحث ،وتلك التى لاتدخل فى مجاله وبعد ذلك علينا أن نحدد المفهومات والمصطلحات المستخدمة فى البحث فإذا كانت الدراسة تهتم أو تركز على دراسة المستوى الاقتصادى للعمال والفلاحين فإن علينا أن نحدد مفهوم العامل ،ومفهوم الفلاح لعدم الخلط ،وإذا كانت بعض المفهومات غير محددة من

قبل بشكل دقيق فإن علينا أن نستخلص ما يسمى بمفهوم أو مفهومات إجرائية Operational Definitions بمعنى أن تحدد المصطلح أو المفهوم بشكل يتلاءم مع الدراسة التى تجريها ، كأن نقول أن مفهوم العامل فى هذه الدراسة هو ذلك الشخص الذى يعمل فى عمل زراعى أو مرتبط بزراعة الأرض وليس له عمل آخر غير هذا العمل ،وهكذا الحال بالنسبة للمفهومات الأخرى التى ترد فى البحث،والمبدأ العام الأخير هنا يقوم على أساس أن تحديد مجال البحث لا يعنى أن ظاهرة ما تنفصل أو تنعزل عن غيرها من الظواهر ولكن الظواهر الاجتماعية فى المجتمع ترتبط ببعضها البعض وتتساند فى مجال الحياة الاجتماعية ، وفهم أى ظاهرة منها لا يتم إلا فى ضوء علاقتها وتفاعلها مع الظواهر الأخرى ، فقد يكون إنخفاض المستوى الاقتصادى فى المجتمع راجعاً إلى عوامل أخرى ثقافية أو أخلاقية، كسوء استخدام موارده ،أو سوء الإنفاق أو الإنفاق فى الخمر والمخدرات وغير ذلك ،وسوف نستعرض فى هذا الفصل البحوث فى علم الاجتماع ، ومراحل اجراء البحث ، ومناهج البحث ، ثم الأدوات التى تستخدم فى جمع المعلومات .

فى الواقع أن كل بحث قد بدأ فى ذهن الباحث عند ملاحظته موقفاً مشكلاً ،أو عندما يثور فى ذهنه تساؤل عن وضع معين ،حينما نرى ظاهرة تتكرر على نحو معين وملفت للنظر ،أو

يتجاوز التكرار العادى ،فإننا فى هذه الحالة نتساءل عن السبب وراء زيادة هذا التكرار،وهل يتخذ هذا التكرار نمطاً معيناً عند توافر ظروف معينة ؟ أو هل هناك علاقة بين زيادة هذا التكرار وبين وجود ظاهرة أخرى ..؟ فى هذه الحالة إذا حاولنا الإجابة عن هذه التساؤلات ،أو تفسير هذه الأوضاع بأسلوب منهجى ،فإننا نكون بصدد بحث اجتماعى ،وعلى ذلك فالبحث الاجتماعى هو محاولة الاجابة عن تساؤلات بطريقة علمية منهجية ولكل بحث عناصر ثلاث هى :

(أ) الموضوع :

لابد من وجود ظاهرة أو مشكلة معينة تثير اهتمام الباحث، وتحث فكرة ،وتدفعه لمحاولة البدء فى الكشف عن جوانبها الغامضة،وهذه الظاهرة يمكن أن تكون سوية أو مرضية ، السوية (بمعنى طبيعية أو عادية) مثل نظام الزواج أو التبادل أو نظام الأسرة وغيرها،والمرضى مثل ظاهرة الطلاق أو البطالة أو جناح الأحداث، أو الثأر أو التسرب الدراسي،وهنا يجب أن يكون موضوع البحث عاما، ويحقق أهدافاً عامة وليست شخصية،أى تكون له قيمة علمية عامة ، ودلالة اجتماعية عامة،فنحن لانبحث فى أسباب إنحراف شخص معين، أو أسباب طلاق

شخصين ،ولكن نبحث فى أسباب الإنحراف عموماً ،وأسباب الطلاق عموماً .

(ب) المنهج :

والعنصر الثانى من عناصر البحث الاجتماعى هو المنهج، وللمنهج قيمة كبيرة فى الدراسة ،والمنهج كما قلنا هو الذى يجعل دراسات علم الاجتماع علمية شأنها شأن دراسات العلوم الأخرى،ومع ذلك فإن تطبيق المناهج فى علم الاجتماع له حدود معينة لا يمكن أن يتخطاها ،وليس ذلك عن قصور فى علم الاجتماع أو مناهجه ولكن يرجع لطبيعة الظواهر التى يدرسها فهى ظواهر متغيرة،ولا تستقر على حال ومع ذلك فاستخدام المناهج ضرورة أساسية فى علم الاجتماع إذ أنه يساعدنا على تقييم المادة التى نحصل عليها.

(جـ) الهدف :

إذا كان العنصر الأول من عناصر البحث هو الموضوع،والعنصر الثانى هو المنهج فالعنصر الثالث هو الهدف فكل بحث فى علم الاجتماع يجب أن يهدف إلى الوصول لتفسيرات معينة حول الظواهر موضوع الدراسة ،كما يهدف لتقديم إضافات جديدة ،وقد يكون هدف البحث التحقق من صحة نتائج توصل

إليها باحث سابق ،فالبحث الذى لاهدف له ليس بحثاً علمياً،ولكى يكون للبحث هدف لابد أن يكون له موضوع ثم إختباره بدقة ،وبعد هذه المقدمة ننتقل للحديث عن أنواع البحوث فى علم الاجتماع ويكاد يجمع علماء المناهج على أن البحوث ثلاثة أنواع:-

الأول : البحوث الكشفية أو الإستطلاعية pilot:

وهى تلك التى تسعى لدراسة ظاهرة جديدة لم تسبق دراستها أو لا تتوافر عنها معلومات تعمل على صياغة قضايا أو فروض توجه البحث وهذا النوع من البحوث يعتبر مقدمة أو تمهيداً لبحوث تالية سواء قام بها نفس الباحث ، أو قام بها باحث آخر ويؤدى هذا النوع من البحوث إلى تنمية الفروض ، وتوسيع نطاقها واستجلاء بعض الأفكار ، والتوصل إلى بعض التوصيات وطرح بعض المشكلات والأولويات التى يجب أن يهتم بها البحث الاجتماعى وكلما توافرت للقائمين بهذه البحوث خلفيات أوسع عن دراسات سابقة أو عن التراث المرتبط بها، أو بيانات مسجلة ووثائقية أو معلومات من الرحالة والإخباريين وكبار السن ، كان ذلك من عوامل توفر الدقة فى نتائجها وتفسيراتها من ناحية وتشكيل أرضية واسعة النطاق لبحوث تالية من ناحية أخرى.

النوع الثانى : هو البحوث الوصفية Discriptive

فى هذا النوع من البحوث يقوم الباحث بعرض خصائص الظاهرة - أو المشكلة موضوع البحث بأسلوب وصفى تقريرى ، وليس من الضرورى فيه أن يبدأ بفروض معينة ولكن ليس معنى ذلك أنها تقف عند مجرد الوصف وإلا فقدت علميتها ، بل إنها تحاول تحديد تكررات الظاهرة وما إذا كانت فى تكرارها ترتبط بظواهر أخرى تؤثر فيها وتتأثر بها وبقدر ما يتسع نطاق هذه الدراسات تكون أهميتها وينبغى على الباحث فى هذا النوع من الدراسات أن يسجل الدلالات التى يمكن أن يتوصل إليها من تحليل المادة التى حصل عليها ، وذلك فى حدود الأهداف التى يسعى للوصول إليها فى بحثه ، وهذه النقطة الأخيرة تكشف لنا عن أهمية التصنيف الدقيق للبيانات والكشف عن الإرتباطات التى يحتمل وجودها بين مختلف المتغيرات ، ومعدلات هذه الإرتباطات كل هذا فضلا عما يؤديه التحليل المتعمق ، والتفسير الدقيق لهذه الإرتباطات.

ورغم أن وجود الفروض فى هذه الدراسات ليس ضرورياً إلا أنها مع ذلك ومن أجل مزيد من الضبط المنهجى يمكن أن تستعين ببعض الموجهات النظرية التى يمكن إستخلاصها من التراث

المتوافر عن الظاهرة موضوع الدراسة ، وهذه الموجهات عبارة عن الآراء ، ووجهات النظر ، أو نتائج الدراسات السابقة والتى يمكن أن تشكل أساساً يهتدى به الباحث فى دراسته .

النوع الثالث : هو البحوث التشخيصية أو التجريبية Experimental

وهو يعتبر أرقى أنواع البحوث فى علم الاجتماع لما ينطوى عليه من دلالة منهجية ودقة فى تنفيذ البحث والحصول على المعلومات وهذه البحوث من الضرورى أن تقوم على فروض تذهب إلى أن متغيراً معيناً على علاقة بمتغير آخر ، أو أن ظاهرة معينة تعتبر سبباً فى ووجود ظاهرة أخرى فقد نفترض فى بداية البحث أن هناك علاقة بين انخفاض المستوى الاقتصادى وبين ظاهرة جناح الأحداث أو بين البطالة والإنحراف أو بين الفقر والجريمة ، غير ذلك ، وفى هذا النوع من الدراسات نستخدم طرق الاحصاء ، والمعادلات الرياضية لتحديد طبيعة العلاقة بين الظواهر موضوع الدراسة .

ثانيا : مناهج البحث الاجتماعى : Sociological Research Methods

يقصد بمناهج البحث عموماً الطرق التى ينبغى أن يسير عليها الباحث فى دراسته لظواهر علمه،وذلك من أجل الوصول إلى نتائج تساعده فى الكشف عن طبيعة هذه الظواهر وماتتضمنه من أسباب ومسببات وما تخضع له من قوانين، ولما كانت العلوم جميعها تتفق فى اتجاهاتها الأساسية وأغراضها وهى الكشف عن طبيعة الظواهر وما تخضع له من قوانين فإنه يترتب على ذلك أن تتفق هذه العلوم فى بعض مناهج البحث التى تستخدم فى سائر العلوم ويطلق عليها " الطرق العامة " أو" المناهج المشتركة " .

وإلى جانب ذلك توجد مناهج للبحث خاصة بكل مجموعة من العلوم أو بكل فرع داخل هذه المجموعة،وهذه المناهج تتفق أو تتلاءم مع طبيعة المجموعة أو الفرع وأهدافه،وهذه يطلق عليها مناهج البحث الخاصة وأبعد من ذلك فإن هناك مناهج تصلح لشعبة دون أخرى فى العلم الواحد بحيث يستخدم الباحث مناهج معينة فى موضوع معين ولكنه لا يستخدمها فى دراسة موضوع آخر ، والمناهج تختلف عن الأدوات ، فالمنهج الذى يحدد

الأدوات الملائمة والتى تتفق مع طبيعته أما الأداة فهى الوسيلة التى يلجأ إليها الباحث للحصول على المعلومات والبيانات التى يهدف للحصول عليها ، وسوف نتناول هنا بعض مناهج البحث فى علم الاجتماع ومن أهمها :-

(أ) **المنهج التاريخى :** Historical Method

العلاقة بين الماضى والحاضر مهمة إذا كنا بصدد أنماط الحياة السائدة والنظم الاجتماعية ،والمستوى الحضارى فى كل حقبة من حقب التاريخ ،ويعتبر عبد الرحمن بن خلدون أول من كشف عن أهمية المنهج التاريخى ، وتخليصه من الشوائب التى لحقت به ،كما سبق أن أشرنا ،كذلك يذهب العالم الإيطالى "جيوفانى فيكو " إلى أن العلوم يجب أن تتخذ العصر الذى ظهرت فيه الواقعة الاجتماعية ،أو الظاهرة كنقطة بداية لدراسة هذه الظاهرة أو الواقعة ،كما كان العالم الفرنسى "سان سيمون" هو أو من أقام رابطة بين المنهج التاريخى ،والمنهج العلمى، فعادة ما يستخدم المنهج التاريخى إذا أراد الباحث أن يحكم على الحاضر فى ضوء ما حدث فى الماضى ،فهو يستخدم فى دراسة بعض الظواهر الاجتماعية، والنفسية ،فيعود الباحث بنظرة إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية وآثارها فى حدوث هذه الظاهرة ،كما

يدرس سلوك الأحداث فى أسرهم قبل إنحرافهم ،وفى مجتمعهم المحلى، فالتاريخ فى هذه الحالة عبارة عن تسجيل واقعى للحوادث وتوضيح لتاريخ الحالة سواء كان المبحوث فرداً أو جماعة ،أو نظاماً .

وقد تزايد الإهتمام بالتاريخ فى عدد كبير من العلوم فالفلاسفة والأدباء ،وعلماء النفس مثلهم مثل علماء الاجتماع يستخدمون المدخل التاريخى ،ولكن الاجتماعيين يستخدمونه من أجل المساعدة فى استبصار المجتمع أو دراسته بإعتباره كائناً متغيراً ،وفهم ما تنطوى عليه بناءاته ووظائفه ونموها،والتغيرات التى تطرأ فى هذا المجتمع ويهتم علماء الاجتماع بشكل كبير بالتغير الاجتماعى حيث أن كل الجماعات والنظم والأنساق تتغير بشكل أو آخر ،وبدرجة أو أخرى،وبالتالى فإن الأدوار الاجتماعية وأنماط النظم تقع تحت طائلة التغير وعلى هذا يقول " هوايتهيد " whitehead " إن كل شئ يتضمن فى داخله ملامح الماضى وبذور المستقبل " ،كما يقول " جورج برنارد " Bernard "أن الماضى لا يكون خلف الجماعة ،ولكنه متضمن فيها " ولقد قام بعض العلماء بإسهامات كبيرة فى نطاق الأخذ بهذا المنهج ، مما جعل البعض الآخر يذهب إلى أن دارسى الاجتماع ، وعلماء التاريخ إذا

عملوا معاً وفى ترابط وثيق فسوف ينتج عن ذلك تقدم هام فى فـهم الحياة الاجتماعية ، خاصة بعد أن أخذ علماء التاريخ مؤخـراً فـى الإبتعاد عن الدراسـات الضيقـة المحـدودة وتحولـوا إلى دراسـة قضايا وموضوعات أكثر عمومية وهذا الأمـر يظـهر بوضـوح فـى بعض الدراسات التاريخية فى الجامعات البريطانية .

هـذا ويعتمـد المنـهج التـاريخى علـى بعـض المصـادر التـى يستمد منها المعلومات التى تفى بحاجته ومن أهمها :

المصـادر الأولية :

وهى تلك التى تمدنا ببيانات قامت بتدوينـها أو تفريغـها وتبويبها ثم نشرها نفس الجهة التى قامت بجمعها ، والإشـراف على مراحل إعدادها وهـذه المصـادر تتضمـن المصـادر والآثـار التـى تعبر عن حضارة سابقة ، أو أحـداث معينـة وقعـت فـى المـاضى ، ومن أمثلتها البيانات الخاصة بالإحصاء ، والتعدادات العامة التى تقوم أجهزة الدولة المتخصصة بإجرائها ونشرها ، ويدخل فى هذه المصادر أيضاً القوانين واللوائح والنظم المستقرة ، والتى يؤخـذ بـها فى المجتمع بشكل عام ، ومن أمثلتها ماكتبه الشـخص عـن نفسـه

إذا كنا نـدرس شخصيته، وكذلك النقوش والكتابات والأحجار التى سجل عليها القدماء عناصر حضارتهم وتفكيرهم .

- المصـادر الثانوية :

وهى تلك المصادر التى تشتق من مصادر أولية ، فكثيراً ما تعتمد الأبحاث الاجتماعية على مصادر ثانوية ، كالبحوث السابقة والرسائل العلمية ، والصحف والمجلات والدوريات ، ومايكتبه بعض الأشخاص عن علماء أو زعماء ، ومن الطبيعى أن تكون المصادر الأولية أعم وأشمل وأدق من المصادر الثانوية ، فكثيراً ما تحدث اخطاء فى النقل والتدوين والتحليل حينما تأخذ المصادر الثانوية عن الأولية ، ولكن ليس معنى هذا أن نطرح جانباً كل المصادر الثانوية بل يجب الإلتزام بالحذر والدقة عند استخدامها وعدم اللجوء إليها إلا إذا كانت الظاهرة التى ندرسها لاتتوافر عنها بيانات كافية .

- المصادر الميدانية :

وهناك نوع ثالث من المصادر يتمثل فى البيانات والمعلومات التى يقوم بجمعها باحث معين أو فريق من الباحثين ويتم جمع البيانات بهذا الأسلوب إذا لم تكن هناك بيانات مدونة عن

الظاهرة وهذا الأسلوب يمثل ضرورة فى بعض الدراسات مثل دراسات الرأى العام والاتجاهات نحو موقف معين ، أو تنظيم معين ، ومع ذلك فإن الباحث حينما يجرى دراسته كثيرا مايهتم بدراسة الآثار والرواسب الاجتماعية ، والتراث الثقافى سواء عن طريق الإستعانة بالملاحظة والمشاهدة أو مذكرات الرحالة أو أقوال الرواة ، وإذا كان المنهج التاريخى هو المنهج الذى يستخدم للوصول إلى المبادىء والقوانين عن طريق البحث فى أحداث التاريخ الماضية وتحليل الحقائق المتصلة بالمشكلات الاجتماعية ، والتى شكلت الماضى وحددت الظروف المحيطة بالمشكلة أو الظاهرة ، فإنه من الضرورى أن يستعين بكل المصادر السابق الإشارة إليها فى وقت واحد ، فسواء كان المصدر أوليا أو ثانويا فإن إستخدام المنهج التاريخى يقتضى أن يبذل الباحث محاولة للتأكد من صدق مصدره ودقته ، وبعض البيانات التاريخية قد تكون غير دقيقة ويشوبها قصور عن عمد أوعن غير عمد ، ولتلافى المشكلات التىتترتب على إستخدام المصادر المختلفة فإن على الباحث أن يجرى عليها نوعين من الإختبارات:-

- الأول: تحليل خارجى :

ويقوم علــى نقـد الوثيقـة للتحقـق مـن شـخصية كاتبـها أو المؤرخ الذى دونها،ومعرفة مدى ما أشتهر به من صـدق وأمانـه علمية،وذلك بدراسة تاريخية وما كتب عنه، والتأكد من تاريخ والنشر،وإستخلاص الدلالات اللازمة عما ورد بالوثيقـة ، كـأن ندرس العصر ، وطبيعة الأحداث التى كتبت فيها هـذه الوثيقـة ، ومدى تأثرها بهذه الأحداث .

- أما الإختبار الثانى فهو التحليل الداخلى :

ويتم عـن طريـق محاولـة التـأكد مـن المعـانى أو المعلومـات أوالبيانات التى إشتملت عليها الوثيقـة وإحتمـالات وجـود بعـض التناقضات أو الأخطاء ، وبعـد ذلـك يجتـهد البـاحث فـى تنسـيق المعلومات ، والحقائق التى توصل إليها ، والربـط بينـهما فـى كـل متكـامل ، واسـتقراء ، البيانـات وتفسـير مدلولاتـــها فـــى ضـــوء الأحداث التاريخية ، ومقارنتها بما توصل إليه غيره من الباحثين ثم يتجه بعـد الإنتـهاء مـن التحليـل إلى تقريـر عـدد مـن النتـائج الجزئية فضلا عن عرض الحقائق التـى هـداه إليـها إسـتخدام هـذا المنهج .

ب- المنهج التجريبى : Experimental Method

يحاول الباحث فى إطار المنهج التجريبى أن يحدد العلاقة العلية أو السببية بين المتغيرات التى يدرسها فى نطاق الظـاهرة ،

حيث يعمل الباحث على خلق مواقف ، كأن يثبت بعض المتغيرات، ويحرك البعض الآخر ، ومن خلال ذلك يتوصل إلى تاثير المتغيرات المستقلة على المتغيرات التابعة ، كما أشرنا فإن هذا المنهج يعتبر أرقى وأدق المناهج فى البحث الاجتماعى ومن الضرورى فيه استخدام فرض أو مجموعة فروض وتتوقف القيمة العلمية لهذا المنهج على دقة البيانات وتنسيقها على نحو لايبعث عل الشك ، وقد كان (فرانسيس بيكون) هو أول من لفت الأنظار إلى استخدام هذا المنهج حيث أشار إلى أسلوب أو طريقة الحذف التى تعتبر وسيلة فعالة فى التدليل على صدق الفروض التى ندرسها فيفترض الباحث عدة فروض حول حدوث الظاهرة ، ثم يبدأ بإستبعاد أو حذف مايجده غير مؤكد حتى ينتهى إلى سبب أو فرض معين ، كما أشار إلى أهمية ماسماه "بقائمة الحضور" وقائمة الغياب " وقائمة التدرج ثم استخدم " جون ستيورت مل " بعض القواعد المنهجية التى عرفت بقواعد الاستقراء أو قواعد مل " ومنها قاعدة التلازم فى الحدوث والتخلف معا ، أى أن المنهج التجريبى يعتمد أساساً على إحداث تغير فى الموقف الاجتماعى ، وذلك بإدخال عنصر أو عناصر جديدة فى الموقف ، أو تثبيت عنصر أو عناصر أخرى

بمعنى إبطال مفعولها ، وكل ذلك بهدف تحقيق فرض من الفروض ، فإذا أردنا مثلا الوقوف على آثار تطبيق خطة أو برنامج تعليمى معين فإنه يمكن فى هذه الحالة دراسة جماعتين متماثلتين فى كل الظروف والخصائص ماعدا تطبيق البرنامج التعليمى ، وتسمى الجماعة التى إستفادت من البرنامج " الجماعة التجريبية : والجماعة التى لم تستفد تسمى " الجماعة الضابطة " Control Group" ويعتبر الفرق فى نتائج القياس بين المجموعتين راجعاً إلى المتغير المستقل ، وهو العامل الذى ندخله على الموقف ، والذى ندرس آثاره ويسمى مستقلا لأنه يؤثر فى الوعى الاجتماعى ، ويغيره عما كان فإذا قد إتضح لنا مثلا أن التعليم قد أثر فى تأخير سن الزواج يكون هو المتغير التابع " Dependant " لأن التغير الذى لحقه أو حتى

وجوده نفسه تابع أو معتمد على المتغير الأساسى أو المستقل Independant وهو التعليم أى أننا يمكن أن نخلص إلى أن إتباع المنهج التجريبى ينطوى على بعض القواعد منها :-

(١)محاولة تخليص المعرفة العلمية من الأفكار اللاهوتية والمسلمات والعقائد الغيبية التى لاتخضع للملاحظة والتجربة.

(٢)التغلب على المصاعب التى قد يوقعنا فيها الأسلوب الإستنباطى القياسى ، فقد يبدأ بمقدمة خاطئة تؤدى إلى نتيجة أو عدة نتائج خاطئة .

(٣)إلتزام الموضوعية فى إستخدام الملاحظة العلمية لجميع البيانات والوقائع المتعلقة بالظاهرة المدروسة ، وهذه تتحقق متى إستطاع الباحث التخلص من عوامل التضليل والابهام التى تعوق التفكير الموضوعى .

جـ- المنهج المقارن Comparative Method :-

المنهج المقارن ذو أهمية فى معظم الدراسات والبحوث الاجتماعية وفى جميع ميادين علم الاجتماع ، فمقارنة المعلومات

المتوافرة عن ظاهرة معينة فى مكان أو مجتمع معين ، والمعلومات المتوافرة عن نفس الظاهرة فى مكان أو مجتمع آخر تؤدى بنا إلىإمكان توسيع نطاق التعميم فى نتائج الدراسة إذا اشارت نتائج المقارنة إلى وجود تشابه بين عدد متزايد من المجتمعات والعكس وكذلك فإن ماتتوصل إليه البحوث من حقائق لايمكن وصفها بالعلمية إلا إذا فسرناها فى ضوء نتائج دراسات سابقة أو معاصرة لبيان أوجه الاتفاق والإختلاف بينهما ، وتفسير الاحتمالات التى يمكن أن تكون مسئولة عن الإتفاق والإختلاف فى نفس الوقت .

وقد أدى إتساع نطاق البحوث الميدانية والامبيريقية فى علم الاجتماع فى العصر الحديث إلى توفر قدر كبير من البيانات التى تسمح بالمقارنة ، وعلى الباحث أن يشير إلى المستويات التى سيجرى فى إطارها مقارنات ، كأن يشير إلى أن مقارناته ستكون علىالبيانات التى تتوافر عن نفس المجتمع ، ولكن فى مراحل تاريخية ، أم ستمتد إلى مجتمعات أخرى ويعرض نتائج مقارناته فى شكل إحصائى يسهل الوقوف على ماتتضمنه من بيانات .

ومع أهمية المنهج المقارن إلا أننى أرى أنه لايصلح كمنهج مستقل ولكن يستعان به كمنهج مساعد لمناهج أخرى،فنقول مثلاً المنهج التاريخى المقارن ،أو الإحصائى المقارن،أو التجريبى

المقارن،وهذا لايقلل من أهميتة ،بل على العكس يزيـد منـها لأنـه يصبح ضرورياً فى كل دراسة اجتماعية .

(د) المنهج الإحصائى : Statistical Method

أشـرنا فـى بدايـة حديثنـا إلى أن الهـدف الأساسـى مـن إستخدام المناهج ،كـان محاولـة لإضفـاء الموضوعيـة والعلميـة علـى دراسـات علـم الاجتمـاع،وفـى هـذا الاطـار أيضـاً أدخـل المنـهج الإحصـائي الـذى يتضمـن تحـولاً مـن الوصـف الكيفـى إلى العـرض الرقمى الكمى وقد أدى إستخدام هذا المنهج إلى اكسـاب الدراسـات الاجتماعية دقة وموضوعية ، وحتى إذا كانت الدراسـة مـن النـوع الوصفى ،فإنها تستخدم الإحصـاء لا لمجـرد العـرض فحسـب بـل لإقامـة الترابطـات،وإسـتخدام الـدلالات التـى تتضمنـها المـادة الإحصائية،وفضلاً عن ذلك فإذا كان التجريد والتعميم مـن أهـداف الدراسـات والبحـوث الاجتماعيـة ،فـإن التحليـل الإحصـائى أو إستخدام المنهج الإحصائى يعتبر دفعة قوية فى هذا الإتجاه،فـهو يساعد على الحصول على أكبر قدر من التعميمات العلمية بطريقـة إسـتقرائية ،أى الإتجـاه مـن دراسـة الخـاص إلى العـالم ،وبالتـالى إستخلاص المبادئ والقوانين العلمية .

(هـ) القياس الاجتماعى " السوسيومترى " Socimetry

ويهدف البحث الاجتماعى من وراء إستخدام هذا المنهج إلى الكشف عن طبيعة ودرجة التفاعل داخل الجماعة ،وعن العلاقات المتشابكة بين الأفراد وأنماطها ،وجوانب تمركزها ،كأن تحاول البحث أو الكشف عن الدور أو المركز الذى يحتله فرد معين فى جماعة معينة، وهذا المنهج يعتبر من أنسب المناهج فى قياس الظاهرة الاجتماعية لأن هذه الظاهرة نتاج لتفاعل اجتماعى،ويحتوى على عناصر تتبادل التأثير فيما بينها فالقياس الاجتماعى يطلق على " طريقة العلاقات الاجتماعية داخل جماعة معينة خلال فترة زمنية معينة للكشف عما يحدث داخل الجماعة من جذب أو تنافر ، وتماسك أو تفكك وكذلك الكشف عن التنظيم غير الرسمى للجماعة والمكانة الاجتماعية للأفراد،ورائد السوسيومترى هو"مورينو" **Moreno** الذى إبتدع هذا المنهج وعين شروطه التى من أهمها :ـ

(١) أن تكون الجماعة محددة المعالم واضحة الحدود .

(٢)أن يسمح للأشخاص بإختيار أو نبذ أى عدد من الأشخاص دون تحديد.

(٣) ضرورة تحديد نوع النشاط الذى يطلب من الفرد المشاركة أو عدم المشاركة مع غيره من الأفراد فيه .

(٤) ومن المفيد أن يدرك الأشخاص أن نتائج القياس سوف تستخدم فى إعادة بناء الجماعة .

(٥) أن تكون الأسئلة المستخدمه فى متناول أعضاء الجماعة وملائمة لمستواهم الفكرى .

هذا وسوف نضرب مثالاً على استخدام المنهج أو الإختبار السوسيومترى فإذا كنا نريد فهم العلاقات المتبادلة بين تلاميذ فصل أو مدرسة ،ومعرفة أكثر الطلاب تفضيلاً لدى زملائه،فإنه من الممكن أن نطلب إلى كل طالب أن يكتب فى ورقة مستقلة إسم الزميل الذى يفضله أكثر عن غيره ، والذى يرغب فى الإشتراك معه فى رحلة أو نشاط مدرسى معين ثم يطلب إلى كل طالب أن يكتب فى ورقة أخرى إسم الزميل الذي لايفضله ، ولايود مرافقته فى الرحلة أو النشاط الذى يليه وهكذا ،ثم يتم تفريغ هذه البيانات وعرضها فى صورة رسم بيانى،وبعد ذلك تقوم بتحليل ما يمكن استخلاصه من بيانات - ومن ذلك يتضح نوع العلاقات بين أفراد هذه الجماعة،وتمركزها حول فرد أو أكثر إيجاباً أو سلبا

وبمعنى آخر نكشف عن الجماعة الصغيرة داخل الفصل أو المدرسة،وديناميتها المختلفة ،ويمكن استخدام طريقة أخرى وهى أن يضع كل فرد أمام إسم كل طالب فى الجماعة إحدى العبارات التالية:

- أود أن يكون واحداً من أصدقائى .

- أود أن يكون واحداً من جماعتى وليس صديقى .

- أود أن أكون معه فترة طويلة وليس دائماً .

- لا أعتراض على بقائه ولكن لاأريد أن تكون لى به صلة معينه.

- أرغب فى عدم بقائه نهائياً .

وهذا المنهج يستخدم فى مجال دراسات الشخصية، وتكوين الجماعات ، والقيادة، وفى نهاية استعراض أهم مناهج البحث فى علم الاجتماع،تجدر الإشارة إلى أنه من الصعب أن يقتصر باحث على إستخدام منهج معين بالذات دون غيره ،ولكن أصبح الإتجاه السائد هو إستخدام أكثر من منهج،وأكثر من مستوى من مستويات التحليل.

فنجد المنهج الإحصائى مثلاً يتداخل مع غيره من المناهج، ويستخدم فى معظم الدراسات،وكذلك الحال بالنسبة للمنهج المقارن،وأيضاً فإن التحليل التاريخى يمثل ضرورة ملحة فى جميع البحوث الاجتماعية ،أى أن تحقيق الموضوعية ،والدقة فى الدراسات الاجتماعية كثيراً ما يتطلب إستخدام أكثر من منهج ،ولكن يجب أن تتوافر فى الدارس الدراية والوعى بدور كل منهما وتوظيفة لصالح أهداف الدراسة وخدمتها على أكمل وجه .

وهناك طرق أخرى تستخدم فى البحث الاجتماعى، ولكنها لاترقى إلى مستوى المناهج ،ومن المفضل أن نطلق عليها " طرق بحث " ولكنها ذات فائدة كبيرة فى مجال البحث الاجتماعى وهى :

(١) طريقة دراسة الحالة **Case Study Method**

(٢) المسح الاجتماعى **Social Survey**

(٣) تحليل المضمون **Content Analysis**

(٤) الطريقة الاسقاطية **projective Method**

ثالثاً : مراحل البحث الاجتماعى :

تمر عملية البحث الاجتماعى فى العادة بمراحل ثلاث هى:

- المرحلة التحضيرية .
- المرحلة الميدانية .
- المرحلة النهائية .

وكل مرحلة من هذه المراحل تتضمن مجموعة من الخطوات أو المراحل الفرعية ففى المرحلة الأولى وهى التحضيرية يقوم الباحث باختيار مشكلة البحث وصياغتها وتحديد الفروض الموجهة لدراسته، وتحديد نوع الدراسة وطبيعتها واختيار المنهج الملائم أو المناهج التى تتفق مع طبيعة الدراسة وكذلك الأدوات التى سيقوم باستخدامها فى جمع البيانات ولابد للباحث فى هذه المرحلة أن يحدد مجالات البحث وهى المجال المكانى أو الجغرافى ،والمجال البشرى والمجال الزمنى .

أما فى المرحلة الثانية وهى الميدانية فإن على الباحث أن ينزل إلى الميدان لجمع البيانات سواء بنفسه أو عن طريق باحثين يستعين بهم وعليه فى هذه المرحلة أن يقوم بإجراء الإتصالات اللازمة بمجتمع البحث وتهيئة هذا المجتمع لتقبل عملية البحث

والإستجابة له وكذلـك فـإن عليـه إعـداد البـاحثين بعـد إنتقائـهم وتدريبهم تدريباً كافياً، والإشـراف عليـهم أثنـاء جمـع البيانـات والتعرف على الصعوبات التى يحتمـل أن تواجهـهم والعمـل علـى التغلب عليها ، ومراجعة البيانات الميدانيـة والتـأكد مـن أسـلوب جمعها،وصحتها وإستكمال أوجه النقص فيها.

أما فى المرحلة النهائية فإن على الباحث أن يقوم بتصنيف البيانات وتفريغها وجدولتها وأخيراً تفسيرها ، وبعـد ذلـك يقـوم بكتابة تقرير مفصل عن خطوات بحثـه ومـاتوصل إليـه مـن نتـائج وهذه المراحل كما يتضح مترابطـة ومتداخلـة ، كمـا لايمكـن وضـع حـدود فاصلـة بينـها ، وليـس مـن الضـرورى أن يكـون ترتيـب الخطوات واحداً فى كل البحوث، ولكن طبيعـة البحـث هـى التـى تقتضـى تقديـم بعـض الخطـوات وتأخـير البعـض الآخـر وفقـا لأولويتها، ولكن على الباحث أن يـهتم بـهذه المراحـل وطبيعتـها وضرورة إستيفاء الشروط الضرورية لكلّ مرحلة من هذه المراحل .

رابعا : أدوات جمع البيانات :

يقتضى المنهج العملـى أن يسـتعين البـاحث بـأداة أو أكـثر لجمـع البيانـات اللازمـة لدراسـته ومـن الضـرورى أن تكـون هـذه

الأدوات علمية ومضبوطة كما يجب أن تتوافر فيها شـروط وقواعـد يمكن معها الاعتماد على صدق ماجاءت به من معلومات ، وسـوف نستعرض هنا أهم هذه الأدوات .

(أ) الملاحظة Observation

الملاحظة أسلوب ذو تاريخ طويل فمنذ العصور القديمة اهتم الكتاب والشعراء والمؤرخـون بملاحظـة السـلوك الانسـانى ووصفـه هذا فضـلا عـن إسـتخلاص فـروض وتخمينـات عليـه علـى أسـاس السـلوك الملحـوظ، كمـا أن الإنسـان فـى حياتـه العاديـة يسـتخدم الملاحظة كأداة لتوجيه السلوك وتكوين الآراء والإتجاهات الخاصة به حيال المواقف الحياتيـة المختلفـة وحتـى الأطفـال فـى مراحـل حياتـهم الأولى يتعلمـون ملاحظـة مـايدور حولهـم مـن أحـداث وسلوك، وحتى من تعبيرات وجوه المحيطين بهم كذلك فالمسـئول عن عمل معين عليه أن يلاحظ سـلوك مرؤوسيه والعـاملين معـه ، ورغم كل هذا فهناك فرق بين الملاحظة العلميـة ، والملاحظـة غـير العلمية، فالأولى توجه لتحقيق هدف علمى محدد ويتم تخطيطـها تخطيطاً مقصوداً ، وهنا يتم تسجيل الملاحظات وربطها بإفتراضات عامة وإخضاعها لكثير من الضوابط التى تحقق ثباتها وصدقها .

أما الملاحظة غير العلميــة أو العاديـة فـلا توجـد ولاتتجـه لهدف محدد وقد تتم بصورة غير مقصودة .

وقد لجأ الباحثون فى علم الاجتماع ، والأنثروبولوجيـا إلى أسلوب الملاحظـة كـأداة أساسـية مـن أدوات البحـث الاجتمـاعى ، وذلـك لأن الكثـير مـن أنمـاط السـلوك اليومـى كتربيـة الأطفـال ، وتبادل التحيــة ، والإحتفـالات بالأعيـاد والمواسـم وغـير ذلـك مـن المناسبات لايكاد الأفراد موضوع الملاحظة أن يدركوا أبعادها لأنــها أصبحت عندهم طبيعة مألوفـة ، ولكنـها تجـذب إهتمـام البـاحث المدقق خاصة إذا كان غريباً عن الثقافة القائمة .

وكلما تزايدت إحتمالات مقاومة الأفراد لما يوجــه لهـم مـن أسئلة واستفسـارات تزايـدت أهميـة الملاحظـة ، فالمقاومـة التــى تحدث من مجتمع البحث لمـا يوجـه لهـم مـن أسـئلة أمـر مـألوف خاصة فى المجتمعات المتخلفة خاصة إذا كان السؤال يتعلق بـأمور ذات خصوصيـة كعلاقـة الفـرد بزوجتــه أو الخلافـات الأســرية وأسبابها أو بعض المواقف والاتجاهات السياسية فى هذه الحالات تجد الشخص موضوع البحث يمتنع عن الإجابـة وحتـى إذا أجـاب فإنه يحرف إجابته ، وكذلك فإنه فى الحالات التى لايدرك الفـرد فيها إدراكاً كاملاً حقيقة مشـاعره أو لا يتكـون لديـه إتجـاه معـين

نحو موضوع التساؤل ، فى هذه الحالات تتزايد أهمية الملاحظة ، وهناك حالات لايمكن فيها إستخدام أداة أخرى غير الملاحظة مثل التفاعل الاجتماعى بين الأطفال وجماعات اللعب ، ففى هذه الحالات لانستطيع مثلا أن نوقف اللعب لتوجيه أسئلة معينة لأفراد الجماعة عن مشاعرهم ووجهات نظرهم وعلى العكس من ذلك هناك حالات لاتصلح فيها الملاحظة كأداة لجمع البيانات خاصة إذا لم تكن لدينا المقدرة على التنبوء بحدوث الظاهرة موضوع الدراسة فنحن لاندرى مثلا متى سيحدث خلاف بين الزوج وزوجته حتى نلاحظه كذلك فإننا لايمكن أن نلاحظ هذه الأمور عند حدوثها بالفعل .

ومن كل ذلك فإن على الباحث أن يحدد السلوك الذى يرغب ملاحظته وجمع البيانات عنه وأن يكون على دراية بالحالات التى يفضل فيها إستخدام الملاحظة ، أو إستخدام غيرها من الأدوات وفقا لطبيعة دراسته .

والملاحظة نوعان :

إما ملاحظة بسيطة و إما ملاحظة منظمة والملاحظة البسيطة هى ذلك النوع الذى يتم بطريقة محددة ولايحاط

بظروف وضوابط معينة ولكن يحدث فيه أن تتم الملاحظة تلقائياً وبدون ضبط علمى، فكل منا فى حياته يلاحظ، ويلاحظ حتى دون أن يشعر بأنه يلاحظ ، لأن ملاحظته فى هذه الحالة ليست موجهة نحو هدف معين ، وهذا النوع من الملاحظة لايمكن أن يسمى ملاحظة علمية ، ولأننا قد نلاحظ وننفعل بموضوع الملاحظة ونتحيز لموقف أو آخر ، بينما الملاحظة العلمية لابد أن تبتعد عن الإنفعال والتحيز .

والنوع الثانى :

وهو الملاحظة المنظمة أو العلمية ، أو المضبوطة فهو يعتمد على خطة علمية محددة وأبعاد واضحة ومعينة سواء بالنسبة للباحث أو مجتمع البحث أو الظاهرة موضوع الدراسة ، ولذلك فهى أكثر تنظيماً ودقة وتتطلب حصر الموضوعات ونوع الإستجابات المطلوبة والتى تخدم أهداف البحث.

وتنقسم الملاحظة المنظمة إلى قسمين ، ملاحظة بدون مشاركة، وفيها لايشترك الباحث فى أى نشاط خاص يزاوله الأفراد موضوع البحث كما لايشارك فى القيم السائدة ، أو النظم المعمول بها ، ولهذا النوع عيوبه ومن أهمها عدم توفر عنصر

الألفة بين مجتمع البحث ، والقائم بالملاحظة ، وبالتالى يتم التحفظ نحو الشخص ، الأمر الذى يؤثر فى نتيجة البحث .

والقسم الثانى هو الملاحظة بالمشاركة ، وهو يتضمن مجالا واسعاً من درجات مشاركة الملاحظة فى حياة المجتمع الذى يدرسه، وهذه المشاركة تتراوح بين العضوية العادية فى تنظيمات المجتمع ، وبين القيام بوظيفة رئيسية فيه ، وفى هذا النوع من الملاحظة يتعين على الباحث أن يكون حريصاً ، لأن أى خطأ سوف يؤدى إلى الإساءة إلى وضعه فى المجتمع وينعكس فى نتائج سلبية لدراسته إن لم يهدمها من أساسها فمثلا إذا كان يدرس قرية يجب ألا يتعاطف مع عائلة دون أخرى كما أن عليه أن يقدم تفسيراً مقبولاً لمهمته داخل المجتمع فقد يترك هذه المهمة للمسئولين فى المجتمع أو يلوذ بالصمت إلى حين توجيه هذا السؤال إليه .

وقد قام أحد علماء الاجتماع ويدعى (كوديل) بدراسة العلاقات الاجتماعية داخل مستشفى للأمراض العقلية . فى أمريكا، فقام متخفياً بدور مريض عقلى ، وعاش بين المرضى لمدة شهرين دون علم المرضى أو الأطباء، وبعد عام ونصف قام بجمع بيانات علنيه من نفس المستشفى، ثم بعد ذلك جمع ملاحظاته فى

مستشفى للأمراض العقلية فى اليابان، وأسفرت دراسته عن أن من المهم النظر إلى المستشفى على أنه مجتمع صغير يؤثر فى سلوك الأفراد الذين يقيمون ويعملون فيه ، ومن هنا دعى إلى الإهتمام بالعلاقات الإنسانية داخله ، بدلا من الأخذ بالنظام الطبقى الجامد والسائد فى المستشفى فى هذا الوقت .

وهكذا نرى أن الملاحظة وسيلة أو أداة هامة من أدوات جمع البيانات فى البحث الاجتماعى ، رغم أن لها عيوباً ، ومميزات .

ب- الإستبيان : Questionnaire

والوسيلة الثانية من وسائل جمع البيانات هىالإستبيان وهو عبارة عن مجموعة من الأسئلة أو الاستفسارات المكتوبة ، والتى ترسل للمبحوثين عادة عن طريق البريد حيث لايكون ضرورياً فيها الحصول على الإستجابة عن طريق المقابلة الشخصية ويرى علماء المناهج أن اللجوء إلى الإستبيان غالباً مايرجع لقلة تكاليفه ، وقد يسلم للمبحوثين باليد ويطلب إليهم إعداد الإجابات ويتم تحديد موعد العودة ثانية لإستلام صحيفة الإستبيان بعد إستيفاء بياناتها . وفى البلدان المتقدمة يتم الحصول على

الإستجابات نحو بعض المواقف المدروسة عن طريق الهـاتف ولكـن ذلك يحتاج إلى درجة عالية من الوعى والفـهم مـن جـانب مجتمـع البحث وفى إعداد صحيفة الإستبيان هناك خطوات رئيسية يجـب مراعاتها .

الأولى :

تحديد طبيعة المعلومات اللازمة ، وذلك فـى ضـوء أهـداف البحث أو مشكلته وصياغة فروضها .

الثانية :

إختيار نوع الإستبيان المناسب ، وذلك مـن حيـث الأسـئلة والتتابع المنطـــقى لها ، فمن الإستفتاءات مايتضمن سـؤالا واحـدا شاملا لكل موضوع البحث ويترك للمبحـوث حريـة الإجابـة عليـه على النحو الذى يراه وهذا مايسمى بالإستفتاء غـير المقيـد،ومنـها مـاهو مقيـد بعـدد مـن الأسـئلة ويلـى كـل سـؤال مجموعـة مـــن الإجابـات التـى يمكـن للمبحـوث أن يختـار بينـها ، وقـد يكـون الإستبيان وسطاً بين هذين المستويين بحيث يتم تحديـد الإجابـات من ناحية وترك بعـض الحريـة للمبحـوث للتعبـير عـن رأيـه مـن ناحية أخرى .

جـ- المقــــابلة Interview

والمقابلة وسيلة هامة من وسائل جمع البيانـات ،وهـى أداة مشتركة بين كثير من العلوم ، حيث تتضـح أهميتـها فـى المجـال التطبيقى مثل الطب والصحافـة والمحامـاة ، الرعايـة الاجتماعيـة والنفسية ، وإدارة الأعمـال وقـد اكتسـبت المقابلـة أهميـة إضافيـة حينما أدخلت وسائل القياس السيكولوجى والاجتماعى ، والمقابلـة الإكلينيكية أى التـى تـهتم بالتشـخيص والعـلاج أكـثر ممـا تـهتم بتصنيف البيانــات ، ومن هنا أدخلـت عليـها تعديـلات إقـتربت بها من الموضوعية والدقة، وتعنى المقابلة التبادل اللفظى بالمواجهة المباشرة بين الباحث أو القائم بالمقابلة، وبين الشخص أو مجموعـة أشخاص آخريـن وعـن طريـق هـذا التبـادل اللفظـى يحـاول القـائم بالمقابلة الحصول من الشخص على معلوماته،أو تعبيره عـن آرائـه واتجاهاته ومشاعره أو دوافع السـلوك العـام أو الخـاص سـواء فـى المـاضى أو الحـاضر، وللمقابلـة وظـائف عديـدة فـى البحـث،فقـد نستخدمها فى اختبـار صحـة فـرض مـن الفـروض فـى أى دراسـة تجريبية ، كما تسهم فى المراحل الأولى للبحـث فـى الكشـف عـن الأبعـاد العامـة للمشـكلة ، واقـتراح الفـروض الجديـدة ، وكشـف النقاب عن اتجاهات الرأى العام وأسلوب التأثير فـى الجماهـير ،

والمقابلة نوعان : إما مقابلة مفتوحة وهى التى لاتكون فيها الأسئلة محددة تحديداً دقيقاً، كما لاتكون الإستجابات هى الأخرى محددة ، ولكن يتم فيها تبادل الحديث حول موضوع البحث ويتدخل الباحث فى هذا الحديث بقدر محدود لتوجيه المناقشة أو إثارة نقاط تتصل بموضوعه.

والنوع الثانى هو المقابلة المقننة ، وهى تلك التى تحدد فيها الأسئلة ودلالاتها كما تحدد المتغيرات ودلالاتها ن بحيث يكون كل سؤال يهدف لتغطية جانب معين من جوانب البحث وكل متغير يؤدى دوراً فى إطار السؤال الخاص به وهنا يفضل النوع الأول على أساس أنه منح قدراً من الحرية للمبحوث فى التعبير بطلاقة .

وهناك من يفضل هذا النوع على أساس أنه يوفر الوقت والجهد، وأنه أكثر دقة وتحديداً ، ويسهل تسجيل الإستجابات فيه بدلاً من ترك جزء من هذه الإستجابات لذاكرة الباحث يدونها بعد المقابلة كما يحدث فى النوع الأول ونحن نميل إلى تفضيل هذا النوع لما يتضمنه من دقة وتحديد ، بحيث إذا توفرت الشروط الضرورية فى جدول المقابلة فإنها تنعكس فى صدق النتائج والتفسيرات وعلى الباحث أن يحسن بناء جدول المقابلة ويحسن

ترتيب الأسئلة والتدرج بها من موضع لآخر، ومن البسيط إلى المعقد في أسلوب تدرجي سهل لايأخذ بالانتقال الفجائي من موضوع لآخر .

وهكذا تتضح أهمية أدوات جمع البيانات وأسلوب التمكن من موضوعيتها ومنهجيتها .

خامساً : العينات Samples

إذا كان بإمكاننا أن نطبق البحث على جميع أفراد المجتمع فإن هذا يعتبر أفضل الحلول ولكن هذا أمر مستحيل خاصة إذا ماكان حجم المجتمع واسع النطاق وفي هذه الحالة فإنه لامفر من تطبيق البحث على عينة تمثل المجتمع المدروس وعند اختيار هذه القائمة يجب أن تكون عينة كبيرة نسبياً بحيث تكفي لتمثيل خصائص المجتمع الأصلي ، وللعينات أنواع منها :

(أ) عينة عشوائية Random

وهي أما أن تكون عشوائية بسيطة وإما أن تكون عشوائية منتظمة، والبسيطة هي التي تعمل على تحاشي أي نوع من التحيز في إختيار الأفراد موضوع الدراسة ، ولها عدة طرق منها طريقة اليانصيب وهي تتم عن طريق وضع أوراق بأسماء أفراد المجتمع

فى صندوق ثم سحب عدد من هذه الأوراق دون تمييز حتى تغطى حجم العينة المناسبة التى يتقرر بحثها، أو تعد قائمة بأسماء الأفراد ، ثم تحدد نقطة تبدأ منها يميناً أو يساراً لاختيار الأفراد الذين يشكلون العينة ، وهناك طريقة ثالثة وهى أن ينزل الباحث مباشرة إلى المنطقة التى يدرسها ويختار نقطة فى وسط هذا المجتمع ، وينطلق منها فى كل الاتجاهات لمقابلة عدد معين من أفراد هذا المجتمع .

(ب) العينة العشوائية المنتظمة :

وهى التى تقوم على أساس أن يرتب الباحث أرقاماً معينة لمجتمع البحث ، وهذا مايسمى بإطار العينة ، ويختار رقماً عشوائياً فى البداية وبعد ذلك يتابع إختيار الأرقام التالية له كأن يختار الرقم ٥ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢٠ ، أو الرقم ٣ ، ٦ ، ٩ ، ١٢ ، ١٥ ، وهكذا بترتيب متناسق ويعتمد نجاح هذه الطريقة على مدى دقة الحصر الذى نجريه لأفراد المجتمع ، لذلك يلجأ كثير من الباحثين إلى سجلات الأحوال المدنية أو مصلحة التعداد ، أو مؤسسة الكهرباء أو غيرها للحصول على إطار ملائم للعينة التى يريد أن يبحثها .

وهناك أنواع أخرى من العينات منها العينة الطبقية التى تقوم على إختيار عدد من الأفراد من كل طبقة من طبقات المجتمع، مع الحرص على تناسب حجم الفئة المختارة ، مع حجم المجتمع الأصلى ، وهناك العينة المساحية وهى التى تحرص على أن تشتمل العينة على تمثيل صادق لجميع المناطق الجغرافية الواقعة فى إطار المجتمع موضوع الدراسة وهناك العينة الحصية التى تنصب على الجماعات ذات النوعية الخاصة فى المجتمع ، وهى قريبة الشبه من العينة الطبقية مع فروق بسيطة وأخيراً هناك العينة العمدية ، وفيها يختار الباحث مناطق محددة تتميز بخصائص ومزايا معينة ، ومن أمثلتها أن يقتصر باحث على دراسة الذكور دون الإناث ، أو العكس، أو أرباب الأسر دون رباتها وذلك وفقا لطبيعة البحث وأهدافه ، وليس هناك مايمنع من ذلك طالما أن الباحث يوضح الأسباب التى جعلته يقصر بحثه على فئة أو طائفة أو فئة معينة دون أخرى .

وفى النهاية لاننسى القول بأن اختيار العينة أمر هام فى منهجية البحث الاجتماعى وعليها يتوقف الحكم على موضوعية البحث، ومدى نتائجه ، وأيضاً فإن الإلتزام بالضروريات والضوابط المنهجية السابق الإشارة إليها يعتبر دعامة أساسية

لإخراج البحوث فى هذا العلم فى صورة يعتد بـها، بحيث تسـهم فى صياغة القوانين العامة، وللتنبوء بمجريات الحياة الاجتماعية فى المستقبل .

تعـــــقيب :

عرضنا فى هذا الفصل لمناهج البحث فى علم الاجتماع ، وهى تكمل مأأشرنا إليه من نضج هذا العلم وإكتماله ، وإكتسابه صفة العلمية كسائر العلوم الأخرى ، فقد جعل هذا العلم من الظواهر الاجتماعية مجالاً لدراسته وابتكر من الطرق والأدوات والمناهج مايساعده على ضبط مادته العلمية ، وتحرى الموضوعية فى جمع المادة وتصنيفها وتحليلها وتفسيرها والتعرف على العلاقات السببية بين الظواهر المختلفة .

ولكن التطورات المتلاحقة فى هذا المجال خلقت آراء واتجاهات متضاربة حول موضوع المناهج فى علم الاجتماع ، فعلى سبيل المثال تعاظمت فكرة استخدام الأساليب الإحصائية فى عرض المادة موضوع الدراسة ، وغلبت عليها تحليلات سطحية تكتفى بإشارات سببية بعيدة عن العمق المطلوب ولاتقدم التفسير الكافى لحدوث الظواهر الاجتماعية، أو تلازمها فى الحدوث .

فقد غلبت إستمارات البحث والمقابلة على غيرها من الأدوات، وراح يستخدمها باحثون غير مدربين ، فجاءت الإستجابات فى كثير من الأحيان لفظية ، لاتعبر عن اتجاه

حقيقى، ولاتخلق متغيرات جديدة ومن هنا تعالت الاعتراضات على الإستبيان وجدول المقابلة ، كأدوات لجمع البيانات ، خاصة فى بلدان العالم الثالث ، حيث الأمية وعدم الإحساس بالحرية،والخوف من التعبير بدقة عن الإتجاهات ، خاصة إذا إتصلت بأمور سياسية ،أو قضايا تتصل بجماعات الحكم ، أو القوة المسيطرة .

وفى الوقت نفسه لم تفسر الأساليب الإحصائية ، العلاقات السببية أو التلازمية بين الظواهر ، كما لم تعبر بدقة عن عمق التفاعلات والعلاقات الاجتماعية القائمة ،ولقد طرحت أفكار جديدة فى إطار مناهج البحث العلمى ذهبت إلى ما يلى :-

أولاً :

تعاظم القول بأن المنهج العلمى واحد فى كل العلوم لافرق فى ذلك بين علوم طبيعية ،وأخرى إنسانية ،فطالما نستخدم إجراءات محددة وعامة ومتفق عليها ، تسعى لتحقيق جيدة الباحث ،وعزل العوامل المسببة للظاهرة ،فإننا نكون بذلك ازاء دراسة علمية ، تستخدم المنهج العلمى ،لايؤثر فى ذلك إن كانت نتائج استخدام هذه الإجراءات مضبوطه ،أو صادقة صدقاً كلياً أو

جزئياً وفقاً لطبيعة الظاهرة التى ندرسها ،ومعنى هذا القول أن المنهج العلمى واحد فى كل العلوم وما دونه هو أدوات بحثية أو طرق بحثية نستخدمها للمساعدة فى تحقيق أهداف الدراسة العلمية .

ثانياً :

ثار جدل كثير ،واستمر لفترة طويلة حول التفرقة بين المناهج والطرق ،كأن يختلف علماء المناهج حول دراسة الحالة أو المسح الاجتماعى هل هى مناهج أم طرق ،خاصة وأن المصطلح الأجنبى للمناهج والطرق واحد وهو Method . كما نشب خلاف آخر حول المنهج والمدخل Approach وحول الفرق بينهما،ولعل القضية الأولى التى أثرناها هنا وهى كون المنهج العلمى واحد فى كل العلوم ،وما دونه يعتبر أدوات أو أساليب بحثية ، يغطى مساحة كبيرة من هذا الجدل،ويخفف حدة هذا الخلاف ،فهذه دراسة - على سبيل المثال - علمية تستخدم الأسلوب التاريخى أو الطريقة التجريبية ،أو أسلوب المسح ،أو دراسة الحالة ،وتلك دراسة أخرى تستخدم الطريقة الإحصائية،أو تستخدم الملاحظة،أو الوثائق ،أو التسجلات أو غيرها،ومن هنا فقد ضاقت الفجوة الخلافية فى التفرقة بين المناهج والطرق والأدوات .

ثالثاً :

فى ظل الأوضاع السابقة ،والاستغراق الكبير فى الأساليب الإحصائية ،والدراسات السطحية غير المتعمقة ،ظهر إتجاه قوى لإحياء بعض الأساليب ،كأسلوب دراسة الحالة ،على إعتبار انه أسلوب يتعمق الظاهرة رأسياً ،وأفقياً ،ويجمع شتات العناصر المكونة لها ،والمتداخلة معها من حيث تطورها التاريخى، وتفاعلها الراهن .

رابعاً :

كذلك انتعش الإتجاه إلى إحياء دور الملاحظة بالمشاركة حيث يعاصر الباحث مجتمعة ،والظاهرة التى يدرسها ،ويرصد كل كبيرة وصغيرة فيها ،فهو الأقدر على فهم هذه التداخلات والتفاعلات ويستطيع أن يرصد كل مايحتاجه من معطيات .

خامساً :

وفضلاً عن ذلك عول العلماء على أهمية أسلوب تحليل المضمون،فى دراسات الراى العام ،والقيادة ،والإعلام وفحوى الخطاب السياسى ،أو الخطاب الدينى وتوجهاته ،فالنص الذى نقوم بتحليل مضمونه ثابت ،ومحدد ،وقد لا يحتمل التأويل

سادساً :

وقد لجأ بعض الباحثين إلى بعض أساليب البحث فى علم النفس خاصة فى الأمور الأقل عمومية ،مثل الإختبارات المختلفة،وإختبارات المواقف المصورة ،وإختبار إكمال الجمل الناقصة وغير ذلك ولكن كما قلنا فإن هذه الأدوات أو الوسائل لاتفيد كثيراً فى مجال الدراسات واسعة النطاق فى علم الاجتماع، أو التى تتعلق بقضايا كبرى .

سابعاً :

يترتب على هذه الدعوى الجديدة فى مجال مناهج البحث أهمية الحاجة للباحث العلمى المدرب تدريباً جيداً، والمدرك لأبعاد موضوعة ومتطلباته ،وأهداف دراسته بحيث يستطيع إستخدام الأداة التى يختارها من بين الأدوات السابقة استخداماً صحيحاً ،وفى هذه الحالة يمكن تلافى إحتمالات عدم أمانة الباحثين الذين قد يستعان بهم فى جمع المادة العلمية .

هذه الأفكار وغيرها أصبحت مطروحة الآن على بساط البحث العلمى فى مجال المناهج ،على إعتبار أنها تسهم فى الحفاظ على علمية الدراسة فى علم الاجتماع .

الفصل الرابع

طرق البحث الاجتماعى

- أهم طرق البحث الاجتماعى

أولاً : المسح الاجتماعى .

ثانياً : دراسة الحالة .

ثالثا : الطريقة الاستقاطية .

رابعاً : الطرق الإحصائية لجمع البيانات .

مقدمـــــة :

إن عملية البحث الســوسيولوجى غالباً مـا تكـون عمليـــة معقـدة ، وحتـى لـو تم إجـراء البحــث السوســيولوجى بطريقــة صحيحة فإنه غالباً ما يثير من الأســئلة أكـثر ممـا يصـل إليـه مـن الإجابات . ولتوضيح أسباب حدوث ذلك يجب دراسة طرق البحث الاجتماعى[١].

هذا ، ويمكن دراسة المجتمعات البشـرية مـن خـلال عـدة طرق ، ومن خلال منظورات متعــددة . وعلـى الرغـم مـن أن هنـاك بعض طرق البحث قد تكون أكثر أهميــة مـن طـرق أخـرى ، إلا أن كل من هذه الطرق له مميزاته وله نقاط ضعفه . أمـا الطريقـة التـى يستخدمها عالم الاجتماع فتعتمد على تساؤلات البحث ، والإطـار النظرى المفضل ، وقيود الموضوع المواد دراسته[٢].

وفيمـا يلـــى عــرض لأهــم طــرق البحــث الاجتمــاعى :

---

(1) Harold R. kerbo, Sociology, Social Structure and Social Conflict, Macmillan Puplishing Company, New York, 1989, p.40.

(2) Ibid, p.44.

أولاً : المسح الاجتماعى Social Survey

عادة ما يقوم علماء الاجتماع بالبحث لكى يحددوا ما يحدث فى المجتمع ، ولاكتشاف سمات وخصائص الظاهرة الاجتماعية . ووفقاً لهذا فهم يقومون بالمسوح وسؤال الناس لجمع المعلومات التى تصف حياتنا ، وللخروج بنظريات جديدة عن الأسباب الاجتماعية لسلوكنا[١].

والمسح هو محاولة منظمة للحصول على معلومات من جمهور معين أو عينة منه ، وذلك عن طريق استخدام استمارات البحث أو المقابلات ، وإذن فالوظيفة الأساسية للمسح هى توفير المعلومات حول موقف أو مجتمع أو جماعة .

ولا تتميز المسوح الاجتماعية فقط بإمكانية تطبيقها على جماهير عديدة متنوعة ولكن يميزها أيضاً ذلك النطاق العريض من البيانات التى تتضمنها ، فهى فى الغالب تضم بيانات شخصية كالأسئلة الخاصة بالنوع ، والسن ، والمهنة والتعليم والديانة والمستوى الاقتصادى والبيئة وبيانات سلوكية[٢].

---

(1)Alex Thio, Sociology: An Introduction, Harper & Row Pulishers, Inc, New York, 1986, p. 23.

(٢) محمد على محمد ، دراسة علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ،

وأحياناً ما توصف أبحاث المسح الاجتماعى بأنها أبحاث الإنسان الفقير . فهى طريقة للعمل الاجتماعى للكشف عن طبيعة وطريقة حياة بعض الطبقات الأشد فقراً لمعرفة أحوالهم السكنية والاقتصادية والمهنية والتعليمية والصحية . وقد يكون هدف المسح هو دراسة موضوع واحد مثل عائلات العمال أو أعضاء حرفة أو أوقات الفراغ عند الطلبة أو يتطلب المسح فى البداية تعريف الظاهرة التى يدرسها ووصفها وصفاً عميقاً متعمقاً وكان بوث هو أول من استعمل المسح عندما درس حياة وعمل وسكان مدينة لندن عام ١٨٨٩ ونشر خرائط اجتماعية رائعة عن كل شارع من شوارع لندن فى تلك الفترة[1].

والتعريفات المختلفة للمسح تتفق على أنه :

١- الدراسة العلمية للظواهر الموجودة فى جماعة معينة من مكان معين .

٢- أنه ينصب على الوقت الحاضر حيث أنه يتناول أشياء موجودة بالفعل وقت إجراء المسح وليست ماضيه .

٣- أنه يتعلق بالجانب العملى إذ يحاول الكشف عن الأوضاع

---

(١) محمد سعيد فرج ، محاضرات فى تصميم البحوث ، مكتبة سماح ، طنطا ، ١٩٨٩ ، ص ٣٣ .

القائمة لمحاولة النهوض بها ووضع خطة أو برنامج للإصلاح الاجتماعى[١].

ولقد استخدم مصطلح " المسح الشخصى " للتعبير عن البحث الاجتماعى الشامل من جهة ، والدلالة على أحد الأساليب النوعية المستخدمة فى البحث الاجتماعى من جهة أخرى .

وهناك انتقاء شائع يربط المسح الاجتماعى بمعنى الحصر ، حيث يتصور أصحاب هذا الاعتقاد أن الدراسة المسحية معناها الوقوف على كافة الجزيئات فى موضوع معين أو منطقة معينة .

وأسلوب الحصر الشامل ليس من مستلزمات المسح الاجتماعى ولكنه يهتم بتوضيح الطبيعة الحقيقية للظاهرة عن طريق تحليلها والوقوف على الظروف المحيطة بها أو الأسباب التى تدفع إلى ظهورها فهو كما عرفه كارادوج جونس Cardog Jones هو تعريف بمجتمع معين وقياس لمستوى هذا المجتمع[٢]

أنواع المسوح الاجتماعية :

هناك تصنيفات متعددة . فقد ينظر البعض إلى تقسيم المسوح على أساس :

---

(١) عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٢١٣ .

(٢) غريب سيد أحمد ، علم الاجتماع الريفى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٨٨ ، ص ص ٥٦،٥٧ .

أ- مجالها حيث ينظرون إلى أنها مسوح عامة تسير فى اتجاه أفقى ، ومسوح متخصصة تتخذ اتجاهاً عميقاً .

ب- مدى العمق الذى ترمى إليه الدراسة حيث يقسمونها إلى مسوح تعتمد على الوصف فقط ومسوح تهتم بالتفسير .

ج- الناحية الزمنية حيث تقسم إلى ثلاثة أنواع قبلية ودورية وبعدية .

د- جمهور البحث الذى تجرى عليه الدراسة حيث تقسم إلى مسوح شاملة ومسوح بالعينة[1].

١- المسوح الشاملة :

وهى التى تدرس فيها كل أعضاء أو جماعة معينة ، كأن تقوم بدراسة شاملة لسكان قرية من القرى أو حى من الأحياء بهدف تصوير أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والمعيشية .

٢- مسوح العينة : Samples Surveys

وقد لا نجد ضرورة لأن يشمل المسح جميع هؤلاء السكان وفى هذه الحالة نختار عينة منهم بحيث نمثل كل السكان فى الخصائص المختلفة كالسن والمستوى الاقتصادى ، وتجرى عليها الدراسة . وغالباً ما يحقق هذا المسح بالعينة أغراض الباحث فى الحصول على وصف ثابت ودقيق لسلوك الجمهور الذى يبحثه أو لاتجاهاته ، خصوصاً إذا اختيرت العينة على أساس سليم .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

والفائدة التى يحققها هذا النوع الأخير تتمثل فـى اقتصـاد الجـهد والتكاليف[١].

أهداف المسوح الاجتماعية :

١- هدف علمى :

لاختبـار فـرض أو مجموعـة فـروض أو اختبـار نظــرى أو الوصول إلى حقـائق يمكـن أن تعتـبر أساسـاً لنظريـة جديـدة وهـذا الهدف هو إجـراء البحـث لمجـرد البحـث مـن أجـل إثـراء العلـم وحده.

٢- هدف عملى :

يبغى لتسخير العلـم لخدمـة المجتمـع وتحقيـق الرفاهيـة لأفراده واستخدام نفوذ الواقـع للوصـول إلى حـل المشـكلات التى تواجه المجتمع .

مثـال :

المسح الاجتمـاعى الشـامل الـذى قـام بـه المركــز القومــى للبحوث الاجتماعية والجنائية بمصر مـن الفـترة مـن ١٩٥٢ حتـى ١٩٨١ فى مجالات السكان وكان الهدف من هذا البحث هو تقديم صورة للمجتمع قبل بدء عملية التنمية الاجتماعية[٢].

---

(١) محمد على محمد ، دراسة علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١١٢ .
(٢) محمد سعيد فرح ، محاضرات فى تصميم البحوث ، مرجع سابق ، ص ٣٤،٣٥ .

مزايا وعيوب المسح الشامل :

أولا : المزايا :

١- يكون المسح الاجتماعى أفضل طريقة يمكن استخدامها عندما يكون اهتمام البحث منصباً بصفة أساسية على الخصائص الاجتماعية وعلى البيانات التى يمكن أن تخضع للمعالجة الكمية .

٢- يمكنه أن يسجل السلوك الماضى والسلوك المتوقع فى المستقبل على حد سواء .

٣- غير مكلف نسبياً إلا أذا كانت عينة البحث كبيرة(١) .

٤- تعتبر المسوح الاجتماعية ذات فائدة نظرية .

٥- يستفاد بالمسح الاجتماعى فى عمليات التخطيط القومى التى تستهدف تنمية الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتوفير الرفاهية والرخاء لأفراد المجتمع فى فترة زمنية محدودة .

٦- يستفاد بالمسح الاجتماعى دائماً فى دراسة المشكلات الاجتماعية القائمة وتحديد مدى تأثيرها فى المجتمع .

٧- يستفاد بالمسح فى قياس اتجاهات الرأى العام نحو مختلف الموضوعات(٢) .

---

(١) محمد الجوهرى . عبد الله الخريجى ، مناهج البحث العلمى " الجزء الثانى " ، طرق البحث الاجتماعى ، دار الشرقاوى . جدة ، ١٩٨٠ ، ص ١٦٥ .

(٢) عبد الباسط محمد ، أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

ثانياً : العيوب :

١- اهتمامه بنطاق البحث أكثر من اهتمامه بالعمق فى دراسته .

٢- أن الباحثين غير المدربين جيداً قد يكشفون أثناء المقابلة عن تحيزاتهم ويؤثرون على إجابات المبحوثين[1].

٣- الخطأ الذى يقع فيه الباحث أثناء اختيار العينة وخاصة إذا كانت طبيعة المسح تتطلب ذلك .

٤- ضخامة الجهود والنفقات والخبرات الفنية التى يتطلبها المسح[2].

ثانياً : دراسة الحالة Case Study

هى طريقة تتناول أعماق الفرد وموقفه ، وهى ضرورية ليحصل الباحث على بصيرة بالمشاكل التى يعانى منها الفرد . من مثلاً السكارى ومن يتعاطى المخدرات والمجرم والمهاجر ... الخ

ويرى بيرجس أن طريقة دراسة الحالة لم تستخدم على نطاق واسع فى الدراسات الاجتماعية إلا بعد استخدام توماس وزنانكى لها فى دراستهما عن الفلاح البولندى[3].

---

(١) محمد الجوهرى ، مناهج البحث العلمى ، مرجع سابق ، ص ١٦٦ .
(٢) غريب سيد أحمد ، علم الاجتماع الريفى ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .
(٣) زيدان عبد الباقى ، ركائز علم الاجتماع ، مكتبة جامعة الأزهر ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ١٥٣ .

وتوصف بأنها نوع من التحليل الكيفى ونشاط لجمع البيانات يستغرق فترة من الزمن ،و يضفى على الوصف طابعا إنسانياً . ولا يكتفى الباحث بوصف الحالة الظاهرة بل يحاول التعمق إلى ما وراء السطح الظاهر للكشف عن السلوك الإنسانى ولذا تقيم دراسة الحالة بأنها أكثر طرق البحث الاجتماعى كفاءة بعد تطور ونضج طرق التفسير الكيفى . وأنها تعبير عن الرغبة فى الوصول إلى الكمال فى البحث الاجتماعى وبدلاً من أن يدرس البا حث الجماعات كلها أو الأنظمة كلها أو الجماعة كلها أو النظام كله يختار الباحث الحالات خاصة . ويمكن أن تكون الحالة التى تخضع للدراسة فرداً أو حادثاً مرضياً فى حياة الشخص أو الدولة أو حدث تاريخى[1] .

وينظر إلى دراسة الحالة باعتبارها طريقة لجمع بيانات مركزة وواضحة ومتعددة . ولكن نحصل على هذه البيانات الشاملة المتعمقة يستخدم الباحث كل أدوات جمع البيانات . ويلجأ إلى كل مصادر جمع المعلومات ابتداء من المقابلة المركزة واستمارة الاستبيان والملاحظة وانتهاء بمعرفة تاريخ الحياة وفحص الوثائق الشخصية . ويلجأ الباحث إلى المقابلة **Interview** باعتبارها أداة

---

(١) محمد سعيد فرح ، محاضرات فى تصميم البحوث ، مرجع سابق ، ص ٥٩ .

ناجحة لمعرفة اتجاهات السلوك الاجتماعى عند المبحوث . كما يلجأ إلى الملاحظة بالمشاركة فى المرحلة الأولى لصياغة المشكلة كما يستعين بالوثائق الشخصية لفهم الموقف والسيطرة عليه والتنبؤ بأحوال المستقبل . كما تقضى استمارة الاستبيان كافة الأسئلة التى تسهل معرفة الحالة[١].

ودراسة الحالة تشبه طريقة " الفلاش باك " أو العرض الاسترجاعى فى الأعمال الفنية وخاصة السينمائية . والفرض الأساسى الذى تستند إليه طريقة دراسته الحالة هو أن كثيراً من اتجاهات الفرد الاجتماعية وأنماط سلوكه قد تطورت فى محاولته التعامل مع الأحداث والخبرات الهامة فى حياته والتى كانت بمثابة نقطة تحول تاريخية . وهذه التغيرات فى سلوكه قد تؤثر على مستقبله كله[٢].

وتتفق أغلب التعريفات على أن دراسة الحالة هى الطريقة التى تتجه إلى جمع البيانات العلمية المتعلقة بأية وحدة سواء كانت فرداً أو مؤسسة أو نظاماً اجتماعياً محلياً أو مجتمعاً عاماً[٣].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٢) محمد الجوهرى ، مناهج البحث العلمى ، مرجع سابق ، ص ٢٢٣ .

(٣) عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٣ .

وتتحدد وحدة دراسته الحالة وفقاً لوحدة الدراسة التى نحاول الكشف عن أبعادها وأعماقها وفقاً لمنهج وجود ومدخل واضح المعالم ، مستخدمين فى ذلك أدوات متعددة – وقد تكون أداة واحدة – لجمع البيانات فى موضوع الدراسة .

وتهدف دراسة الحالة إلى كشف العمليات والعوامل التى تقوم عليها نماذج اجتماعية معينة ، بقصد تحديد خصائص موقف اجتماعى معين أو وحدة اجتماعية أو تنظيمية محددة . ولهذا تفيد فى الدراسات الاستطلاعية أو الكشفية ، كما تفيد كذلك فى الدراسات التى تختبر الفروض السببية[١].

وطريقة دراسة الحالة ليست قاصرة على العلوم الاجتماعية وحدها . ففى ميدان الإدارة على سبيل المثال يمكن استخدام هذه الطريقة المساعدة فى عمل تقييمات العاملين واتخاذ بعض القرارات الأساسية بشأن الاستقدام أو الفصل أو الترقية وما إلى ذلك . كاتخاذ هذا القرار أو ذلك بحق موظف معين أو بحق شخص مرشح لوظيفة معينة يقوم على دراسة حالة هذا الشخص .

ويوحى إلينا مصطلح دراسة الخالة أننا بصدد دراسة حالة واحدة أى فرد واحد فقط ولكننا لو تأملنا الطريقة وكيفية أدائها

---

(١) غريب سيد أحمد ، علم اجتماع الريفى ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

لتبين أن الجماعات والمؤسسات بل والمجتمعات المحلية يمكــن أن تكون هــى الأخـرى موضوعاً للدراسـة بطريقـة دراسـة الحالـة أو يمكن بعبارة أخرى أن تكون " حالة الدراسة " .

فطريقة دراسة الحالة إذن عبـارة عـن اتجـاه جشـطالتى أو كلى (شمولى) فى فهم النـاس وليـس أداة تجزيئيـة (تفصيليـة) لتحليـل السـلوك الإنسـانى عـن طريـق إضافـة السـمات وضـرورة السلوك المتشابهة كما هو الحال فى طريقة البحوث المسحية[1].

طرق دراسة الحالة

(أ) تاريخ الحالة Case History :

وتاريخ الحالة يشمل قصـة تطورهـا وتعتمـد علـى التحقـق ممـا تـدلى بـه الحالـة مـن آراء ومعلومـات عـن تطورهـــا ونموهـــا والحوادث التى واجهتها والظروف التى تحياها[2].

(ب) التاريخ الشخصى للحياة Life History :

وهو صورة مـن صـور تـاريخ الحالـة يعـرض فيـها المبحـوث الحوادث التى مرت به واهتماماته واتجاهاته والخبرات التى اكتسبها وذلك كله من وجهة نظره الخاصة[1].

---

(١) محمد الجوهرى ، مناهج البحث العلمى ، مرجع سابق ، ص ٢٢٤ .
(٢) غريب سيد أحمد . علم الاجتماع الريفى ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

وتعتمد كل من طريقة تاريخ الحالة والتاريخ الشخصى على مصادر أخرى كالوثائق الشخصية والخطابات . كما يعتمد هذا الأسلوب عند جمع البيانات على أدوات متنوعة مثل الملاحظة والمقابلة واستمارات البحث . متى يستطيع الباحث بعد جمع البيانات تحليل العناصر المتشابهة والمختلفة لكى يعقد مقارانات الحالات فى ضوء الفروق بينها وبعدئذ يمكن للباحث صياغة النتائج[٢].

وأول استخدام منظم لدراسة الحالة فى البحث الاجتماعى كان من طريق فردريك لاوبلاى Leplay عندما حاول أن يربط بينها وبين التحليلات الإحصائية ، ومن ثم قام بدراسات مفصلة وافية عن اقتصاديات الأسرة لكى يكشف عن أثر التقلبات الاقتصادية فى الرفاهية الاجتماعية[٣].

---

(١) محمد على محمد ، دراسة علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١١٣ .
(٢) غريب سيد أحمد ، علم الاجتماع الريفى ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .
(٣) محمد على محمد ، دراسة علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١١٣

ظروف استخدام طريقة دراسة الحالة :

١- حينما يريد الباحث أن يدرس المواقف المختلفة دراسة تفصيلية فى مجالها الاجتماعى ومحيطها الثقافى بما تشمله الثقافة من عادات وتقاليد وقيم وآراء أفكار واتجاهات سائدة .

٢- حينما يريد الباحث أن يتوصل إلى معرفة حقيقة الحياة الداخلية لشخص ما بدراسة حاجاته الاجتماعية واهتماماته ودوافعه ، على أن ينظر إلى الفرد باعتباره عضواً فى الجماعة التى يعيش فيها ويتفاعل معها فى إطار ثقافتها الكلية .

٣- حينما يريد الباحث أن يدرس التاريخ التطورى لشىء أو شخص أو موقف معين .

٤- حينما يرغب الباحث فى الحصول على حقائق متعلقة بمجموعة الظروف المحيطة بموقف اجتماعى[1] .

نظراً لأن أسلوب دراسة الحالة يركز على حالات فردية لهذا فلا يجوز التعميم عن طريقه ، إلا أنه يهيئ الظروف لإجراء بحث أكثر شمولاً[2] .

---

(١) عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٥ .

(٢) غريب سيد أحمد ، علم الاجتماع الريفى ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

مزايا وعيوب دراسة الحالة :

أولاً المزايا :

١- تستخدم فى علم الاجتماع أساساً لما تلقيه من ضوء على بعض النقاط والاعتبارات الهامة التى يمكن أن تقود مزيد من البحوث على عينات أكبر حجماً .

٢- تاريخ الحالة يساعد فى المحافظة على تكامل الوحدة التى ندرسها .

٣- تتيح للباحث فرصة جمع بيانات مفصلة عن حالات قليلة حيث إنها تركز على دراسة مجموعات أو عينات كبيرة العدد .

وتصبح الفائدة أكبر عندما يكون الباحث بصدد دراسة موضوع أو ظاهرة لا يعرف عنها الكثير[1].

٥- تساعد الباحث على اكتشاف معنى وقيمة المعلومات التى يحصل عليها من خلال سرد تاريخ حياة الحالة .

٦- تعد طريقة خاصة لجمع البيانات والكشف عن مكنونها .

٧- تساعد طريقة دراسة الحالة على العمق والتبصر فى حياة صاحب الحالة فتسد ثغرات أدوات البحث الأخرى .

٨- تمهد لأبحاث جديدة .

٩- تتميز بتعدد مستويات التحليل .

---

(١) محمد الجوهرى ، مناهج البحث العلمى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٠

١٠- تتميز بتعدد المؤشرات . فالباحث يستخدم مؤشرات عديدة مثل السن والجنس ومستوى الدخل والحالة الزواجية ... الخ لتحديد وتمييز الحالة التى يدرسها .

١١- تؤكد على بعد الزمن . فالباحث أثناء دراسته يؤكد على عامل التغيير خلال الزمان وعلى العمليات Process التى تؤدى إلى التغيير .

١٢- دراسة عدة حالات تمكن الباحث من تكوين رؤية اجتماعية[١].

ثانيا : العيوب :

١- يستحيل عمل أى تعميمات أو إصدار أحكام عامة على مجموعة متماثلة أكبر عددا .

٢- اعتمادها على البيانات الاسترجاعية مما يؤدى إلى وجود احتمال كبير أن ينسى المبحوث بعض التفاصيل والوقائع الهامة ،أو يغير من معالمها ويشوها عن قصد أو عن غير قصد .

٣- من الصعب على الباحث فى بعض الأحيان أن يحدد لنفسه الوقت الذى ينبغى فيه أن يكف عن جمع المادة الخاصة بدراسة حالة معينة[١].

---

(١) محمد سعيد فرح محاضرات فى تصميم البحوث مرجع سابق ص ٦٠

٤- الإخفاق فى التفرقة بين طريقة دراسة الحالة كطريقة لرؤية الحقيقة الاجتماعية وأدوات البحث الخاصة التى تستعين بها لجمع المعلومات فى جيل مضى .

٥- عدم اتباع الأساليب الخاصة لتصميم العينة عند اختبار الحالات التى يدرسها الباحث .

٦- تطلبها وقتا كبيرا وميزانية ضخمة[٢].

---

(١) محمد الجوهرى ، مناهج البحث العلمى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٢ .

(٢) محمد سعيد فرح ، محاضرات فى تصميم البحوث ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

ثالثاً : الطرق الإسقاطية :

ترتكز على أساس أن الإسقاط **Projection** عمليــة لا شعورية تستخدم كعملية دفاعية ضد القلق والدوافع اللاشعورية. ويحدث الإسقاط نتيجة غزو هذه الدوافع والرغبات والأفكار التى تسبب الألم للذات وإلى الآخرين وإلى العالم الخارجى ، مما يترتب عليه خفض حدة التوتر لدى الفرد . فالفرد حين تعرض عليه مثيرات غير متشكلة ومبهمة إلى حد ما ويطلب إليه أن يستجيب لها ، يسقط على هذه المثيرات المبهمة حاجاته ونزعاته ، وتبدو هذه الحاجات والنزعات فى صورة استجابات لهذه المثيرات[1].

وقد اشتق علماء النفس الطرق الإسقاطية ليكشفوا من خلالها عن دوافع سلوك الفرد غير الظاهرة أو الغامضة وهم لا يكشفون عن هذه الدوافع من خلال الآخوين ولكن – وهذا هو الشىء الهام – من خلال الأفراد أنفسهم .

وقد أطلق المحللون النفسيون على هذه الطريقة " طريقة التداعى الحر " **Method Of Free Association** "

وجعلوها المدخل الرئيسى فى نظريتهم عن الشخصية الإنسانية والسلوك الإنسانى .

---

(١) غريب سيد أحمد . علم الاجتماع الريفى مرجع سابق . ص ٥٧

ولقد طوع علماء الاجتماع الاختبارات الإسقاطية Projectiretests لخدمة متطلبات دراستهم فهم لا يهتمون بخصائص شخصية الفرد قدر اهتمامهم باحتياجات الأفراد وسلوكهم .

وتمكن الطرق الإسقاطية عالم الاجتماع من أن يحصل على هذه البيانات دون أى عائق وأن يكشف بعض الأشياء التى قد يتردد المبحوث فى ذكرها عند استخدام الأساليب المباشرة[1].

ويتفق العلماء على أن الأساليب الإسقاطية هى خمسة أنواع :

١- **الطرق التكوينية :** وتعتمد على أن الشخص الذى نفحصه نطلب منه أن يكون موضوعاً معيناً دون أن نحدد له عناصر سابقة كأن يرسم أى شيء أو يكتب أى شيء حيث تعتمد هذه الظروف على الخلق الفنى الحر.

٢- **طرق بنائية :** وبمقتضاها تعطى للشخص عناصر محددة من قبل ويطلب منه أن يؤلف فيما بينها فى كل جديد .

٣- **طرق تفسيرية :** حيث تفسر الأشياء التى يراها الشخص ويحتمل تأويلها تأويلات مختلفة .

---

(١) محمد الجوهرى ، مناهج البحث العلمى ، مرجع سابق ، ص ٣١٠

٤- **طرق تطهيرية أو تنفسية :** ويقصد بها الانفعالات التى تحدث عن طريق المشاركة الوجدانية .

٥- **الطرق الانكسارية :** والتى تعتمد على التشويهات التى تقع عند استخدام الكتابة .

ويمكن أن تقسم الأساليب الإسقاطية إلى :

أ- **الأساليب الأسقاطية المصورة :** ويشيع استخدامها فى الاتجاهات الاجتماعية .

ب- **الأساليب الأسقاطية اللفظية :** وتشمل أنواعاً متعددة منها اختبار التداعى .

المزايا والعيوب :

أولاً : المزايا :

١- استطاعة الباحث أن يستخلص اتجاهات المبحوث دون أن يعى المبحوث بأغراض الباحث .

٢- يمكن أن تستخدم البيانات التى يحصل عليها الباحث من خلال الاختبار الإسقاطى Projectivetest مثلها فى ذلك مثل البيانات التى يحصل عليها من خلال المقابلة المتعمقة فى تصميم بعض الأسئلة التى تصلح لدراسة أكثر إحكاماً كإجراء بحث شامل للاتجاهات .

ثانياً : العيوب :

١- يفضل دائما عدم اللجوء إلى الاختبارات الإسقاطية إذا كان في مقدور الباحث الحصول على البيانات بطريقة أخرى وذلك لصعوبة تصميم هذه الاختبارات وتفسيرها .

٢- ذاتية هذا النوع من الاختبارات .. فنحن لا نتأكد أن كل باحث اجتماعي سوف يفسر نفس البيانات بنفس الطريقة .

وبالرغم من أهمية الاختبارات الإسقاطية في إلقاء الضوء على المسائل الاجتماعية إلا أنه يجب الحذر عند تطبيقها وعند تفسير نتائجها[1].

---

(١) محمد الجوهرى ، مناهج البحث العلمى ، مرجع سابق ، ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

رابعاً : الطرق الإحصائية لجمع البيانات :

تعتبر مرحلة جمع البيانات والمعلومات والحقائق عن المتغيرات والظواهر موضع الدراسة من أسس العمل الإحصائى التى لها أهمية خاصة لا يمكن إغفالها فى أى دراسة علمية منظمة .

وهناك أسلوبان فى جمع البيانات وهما :

أولاً : أسلوب الحصر الشامل :

يعرف أحياناً بأسلوب العد الكامل (أو التعداد Census) حيث أن معظم التعدادات تتم من خلاله مثل التعداد السكانى Population Census والتعداد الزراعى أو التجارى أو الصناعى والأساس فى علمية جمع البيانات عن طريق الحصر الشامل هو إدخال كل مفردات المجتمع الإحصائى دون استبعاد أى مفردة فى البحث والإستقصاء .

عيوب ومشاكل الحصر الشامل :

١- لا يصلح للأبحاث التى يقترن استخلاص النتائج منها بوقت محدد أى أن هذا الأسلوب يتناسب مع الأبحاث التى يكون فيها لعنصرى الوقت والتكاليف المالية أهمية خاصة وأثر كبير على استخلاص النتائج .

٢- يتعرض لكثير من الأخطاء التى من أهمها تحيز الباحث سواء كان تحيز متعمد أو غير متعمد ، والذى ينجم عن أخذ كل مفردات المجتمع فى الدراسة حيث وجود احتمالات الخطأ فى العد أو احتمالات تجاهل بعض المفردات بما يؤثر على دقة النتائج .

وهذا الأسلوب يتطلب فى إجراءاته توفير جهاز فنى إحصائى كبير واعتمادات مالية ضخمة ووقت متسع[١] .

ثانياً : أسلوب المعاينة (العينات) Sampling

لما كان من العسير فى كثير من البحوث الاجتماعية القيام بدراسة شاملة لجميع المفردات التى تدخل فى البحث ، فإن الباحث لا يجد وسيلة أخرى يستطيع الاعتماد عليها سوى الاكتفاء بعدد محدود من الحالات أو المفردات فى حدود الوقت والجهد والإمكانيات المتوافرة لديه ، ثم يقوم بدراسة هذه الحالات الجزئية ويحاول تعميم صفاتها على المجتمع الكبير[٢].

ويفضل استخدام أسلوب العينات عند دراسة خصائص ومعالم المجتمعات اللانهائية مثل الوحدات الإنتاجية لإنتاج

---

(١) فتحى عبد العزيز أبو راضى ، مبادئ الإحصاء الاجتماعى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٧ ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٤٣٥ .

بعض الآلات ، كما يفضل كذلك فى الأبحاث العلمية التى تتطلب تصور عام أو رأى عام حول قضية أو مشكلة يراد دراستها فى مجالات العلوم الطبيعية أو الاجتماعية[1].

شروط اختيار العينة :

١- أن تكون ممثلة للمجتمع الأصلى .

٢- أن تكون لوحدات المجتمع فرص متساوية فى الاختيار[2].

مصادر الخطأ فى اختيار العينة :

أولاً : **خطأ الصدفة** :

والذى يرجع إلى أن العينة التى نختارها تكون دائما محدودة العدد ، وليس مضموناً أن يكون متوسط القيم فى أية عينة نختارها هو نفس المتوسط العام فى المجتمع . فقد يكون فى العينة التى نختارها شخص صغير السن ، فينحرف بالمتوسط إلى أسفل أو شخص كبير السن فينحرف به إلى أعلى ، ويرجع ذلك كله إلى عامل الصدفة .

ثانياً خطأ التحيز :

وينتج هذا الخطأ عادة من أن اختيار مفردات البحث لم يتم بطريقة عشوائية أو أن الإطار الذى اعتمد عليه الباحث فى

---

(١) فتحى عبد العزيز أبو راضى ، مرجع سابق ، ص ١٧ .

(٢) غريب سيد أحمد ، الإحصاء والقياس فى البحث الاجتماعى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ٣٠٤ .

اختيار العينة لم يكن وافياً بـالغرض أو لصعوبـة الاتصـال ببعـض المبحوثين وتركهم دون الحصول على الاستجابات المطلوبة منهم .

وخطأ التحيز ينتج من :

١- عدم مراعاة مبدأ الاختيار العشوائى :

وينتج عن عدم إعطاء جميع الوحـدات فـى المجتمـع فرصـا متسـاوية فـى الاختيـار وبذلـك لا تصبح العينــة ممثلــة تمثيــلاً صحيحاً لجميع خواص المجتمع الأصلـى فاختيـار عينـة مثـلاً مـن بين أسماء الأشخاص المدونة أسماؤهم فى دليــل التليفونـات . فيـه خطأ حيـث أن الذيـن يمتلكـون التليفـون يمثلـون فئـة واحـدة فـى المجتمع وهم ذوى الدخل المرتفع .

٢- عدم دقة الإطار وكفايته :

ويحدث من عدم رجوع الباحث إلى إطـار يضـم كـل الفئـات التى يتضمنها البحث كـأن يحصـل علـى قوائـم أسمـاء تضـم عمـال الغزل فقط فى حين أن الدراسة تشتمل على الغزل والنسيج معاً .

٣- عدم الحصول على بيانات من بعض مفردات البحث :

حيـث يـؤدى ذلـك إلى التحـيز لأنـه يعمـم نتائجـــه علـــى المجتمع كله دون التأكد ممـا إذ كـان ذلـك الجـزء يمثـل المجتمـع تمثيلاً صحيحاً أم لا .

خطوات اختيار العينة :

١- تحديد وحدة العينة .

٢- تحديد الإطار الذى تؤخذ منه العينة .

٣- تحديد حجم العينة .

٤- تحديد طريقة اختيار العينة[١].

أهم أنواع العينات :

١- العينة العشوائية البسيطة : Simple Random Sample

ويلائم هذا النوع من العينات الدراسات التى تهدف إلى تحديد خصائص المجتمع الذى تمثل مفرداته مجموعة متجانسة أى ذات نوعية واحدة ، مثل مجموعة من الطلاب عند مستوى عمرى متقارب وأوزان متساوية تقريباً[٢].

٢- العينة العشوائية المنتظمة : Systematic Random Sample

تمتاز على العينة العشوائية البسيطة بسهولة اختيار مفرداتها .

ففى العينة المنتظمة يختار الباحث الوحدة الأولى فى العينة اختياراً عشوائياً ، ثم يمضى فى اختيار بقية الوحدات طبقاً لما يقتضيه حجم العينة مراعياً انتظام الفقرات بين وحدات

---

(١) عبد الباسط محمد ، أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٤٣٧ – ٤٤٢ .

(٢) فتحى عبد العزيز أبو راضى ، مبادئ الإحصاء الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

الاختيار ، أى أن تكون المسافة بين أى وحدة مـن وحـدات العينـة والوحدة السابقة لها ثابتة لجميع الوحدات[١].

٣- **العينة العشوائية الطبقية** : **Stratified Random Sample**

وتستخدم عادة فى المجتمعات غـير المتجانسـة مـن حيـث فرع العمـل أو توزيـع الملكيـة أو الاختـلاف فـى المستوى الثقافى وفى هذه الحالة يتم توزيع وحدات المجتمـع فـى داخـل الطبقـات التى تحددها ثم تسحب عينة عشوائية تمثـل كـل طبقـة ، إذ مـن الضـرورى أن تكـون العينـة ممثلـة لجميـع الوحـدات بـالمجتمع موضوع البحث[٢].

أى أنها تتم من خلال :

١) تقسـيم المجتمـع إلى مجموعـات متمـيزة أو فئـات فرعيـة (مجتمعات صغيرة) متجانسة تعرف بالطبقات **Strate** .

٢) تحديد نسبة مفـردات كـل مجموعـة أو طبقـة بالنسـبة للعـدد الكلى لمفردات المجتمع الأصلى .

٣) تحديد عـدد مفـردات العينـة المطلوبـة مـن كـل طبقـة ، أو مـا يعرف بالعينة الفرعية **Subsample** التى تتحدد عـن طريـق نسبة حجـم كـل طبقـة فـى المجتمـع الأصلـى والحجـم الكلـى للعينة .

---

(١) عبد الباسط محمد ، أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٤٤٩ .
(٢) سناء الخولى ، مدخل إلى علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٤ ، ص ٧٦

٤) استخدام الأسلوب العشوائي لاختيار المفردات من كل طبقة[١].

٤- العينة المساحية : Area – Sample

وهى تقدم الحل الأمثل للحصول على عينات تمثل المناطق الجغرافية المختلفة والمتباعدة فتركز البحث فى مناطق معينة بدلاً من بعثرة الجهود فى كافة أعضاء المجتمع[٢].

ويطلق على هذه العينة أحياناً اسم عينة التجمعات Cluster Sample أو العينة المساحية أو العينة المساحية الاحتمالية Probability Sample نظراً لأنها تهدف إلى تمثيل مساحات متسعة بعينة صغيرة تمثلها ، تمهيداً لاختيار مفردات العينة من المساحات الممثلة[٣].

٥- العينة الحصصية : Quots Sample

وهى تنهض على تقسيم المجتمع الأصلى إلى فئات ذات خصائص معينة مع تمثيل كل فئة من تلك الفئات بنسبة وجودها فى المجتمع[٤].

ويكثر استخدام العينة بطريقة الحصة فى بحوث الرأى العام حيث تقسم العينة الحصصية بالنسبة لعوامل ثلاث هى :

---

(١) فتحى عبد العزيز ، مبادئ الإحصاء الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٧١ .
(٢) مصطفى الغوال ، مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٣٣٦
(٣) عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٤٥٥ .
(٤) مصطفى الغوال ، مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٣٣٦

السن والنوع والطبقة الاجتماعيــة إذ وجـد أنــها تعطـى فروقـاً فـى الرأى لها دلالتها الإحصائية[١].

٦- العينة العمدية : Purposive Sample

تعتمد على اختيار الباحث لعينة من مفردات معينــة يظـن أنها تمثل المجتمع الأصلى أصدق تمثيل .

وهذه الطريقة توفر على الباحث كثيراً من الوقـت والجـهد الـذى يبذلـه فـى اختيـار العينـة إلا أنـها تسـتلزم معرفـة المعـالم الإحصائية بالنسبة للمجتمع الأصلـى ، وبالنسبة للوحـدات التـى يرغب الباحث فى اختيارها ، وهذا أمر قـد لا يتيسـر فـى جميـع الأحوال[٢].

وممـا سـبق نجـد أن البحـث بطريقـة العينـة ضـرورة مــن الضرورات التــى تقتضيـها الظـروف المحيطـة بالبـاحث . وهنـاك تصنيفات كثيرة لطرق اختيــار العينـات بعضـها رئيسـى وبعضـها فرعى وليس من الضرورى أن يتقيــد البـاحث بطريقـة واحـدة فـى الاختيار فقد يجمع أكثر من طريقة وفقاً لطبيعة المجتمع الأصلى وطبقاً لما تقتضيه الظروف المحيطة بالبحث[٣].

---

(١) عبد الباسط محمد ، أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٣٥٨ .

(٢) مصطفى الغوال ، مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٣٣٧

(٣) عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٤٦١ .

الفصل الخامس

علم الاجتماع فى العالم العربى

محتويات الفصل

- مقدمة

أولاً : الفارابى .

ثانياً : ابن سينا .

ثالثاً : ابن باجة .

رابعاً : بن خلدون .



مقدمة :

اهتم العرب قبل الإسلام بالكثير من جوانب الفكر الاجتماعى،حيث فكروا فى شئون الحياة والمجتمع وكانت لهم نظم وأوضاع اجتماعية ارتضوها فيما بينهم ، كذلك كانت لهم لقاءات عامة يناقشون فيها مشكلاتهم وأمور حياتهم ، ويفكرون في وسائل علاجها .

وقد مهر العرب فى بعض الجوانب ، كالكهانة والعرافة ، وقد مارسوا نظام الثأر ، وكانت لهم شعائر وطقوس وعبادات خاصة،وأيضاً عرفوا جميع نظم الزواج ، من تعدد الأزواج والزوجات إلى وحدانية الزوجة وتعدد الأزواج ، إلى وحدانية الزوج والزوجة ، ونظام الطلاق وكذلك مهر العرب فى بعض جوانب الفلك الطب ، والحروب ، والترجمة ، الأمر الذى يمكن معه القول بأنهم لم يكونوا فى عزلة عن المجتمعات الخارجية والحركات الفكرية الأخرى ، وحينما انتشر الإسلام حقق فى فترة وجيزة وحدتهم القومية ، تلك التى لم تتحقق خلال التاريخ الطويل رغم توافر مقوماتها . والإسلام دين اجتماعى بالدرجة الأولى ، والنظام الاجتماعى فى الإسلام جزء من الدين فقد اهتم هذا الدين بالعقائد والعبادات وإلى جانب ذلك اهتم بالتشريعات الدقيقة التى تنظم الحياة الاجتماعية مثل الزواج ، الطلاق،

والوراثـة ، والزكـاة، والـرق والحـج ، والصـوم ، والضوابـط الاجتماعية ، وحقوق الإنسـان ، وأعلـى كثـيراً مـن القيـم الفاضلـة كالحرية والمساواة والتواد والتراحم ، والتعـاون ، وأضفـى الإسـلام على العمل والكد صبغة مقدسة تصل إلى مراتب العبادة .

هذا فضلاً عن كثير مـن الجوانـب الأخـرى التـى تسـتعصى على الحصر، وهى كلها أمور لم تتوافر فى أى دين آخر،وقد كانت اليهوديـة موغلـة فـى الماديـة ، وجـاءت المسـيحية مسـرفة فـى الروحانية ، ولكن جاء الإسلام وسطاً بين الأمريـن ، فقـد تكـاملت فيه الناحيتان فى ظل التأكيد على عدم الإسراف فى أى منهما على حساب الآخر .

والإسلام كدين اجتماعى يحث على التفكـير والإجتـهاد ، وطلب العلم ، وقد اهتم المفكرون الأول فى عصر الخلفاء الراشـدين بجمـع القـرآن الكريـم ، وتفسـيره ، وروايـة الأحـاديث النبويـة وجمعها وتبويبها ، وفى العصر الأمـوى زاد الإهتمـام بالدراسـات والجوانب الفقهية ، وقد شـهد العصر العباسـى نهضـة علميـة ، وثقافية واسعة النطاق شملت كل فروع الفكر الاجتماعى ومختلـف العلوم الإنسانية والطبيعية ، وقـد كـان لهـذه الحركـة الإحيائيـة آثارها الواسعة على مختلف أنحاء الإمبراطورية الإسلامية .

وعلى الرغـم مـن ذلـك فقـد كـان الإهتمـام بطبيعـة الحيـاة الاجتماعية ، والتغير الذى حدث فى المجتمع والـذى كـان فريـداً فى نوعه ، كان الإهتمام بذلك كله ضئيلاً ، لذلك جـاء الكثـير مـن الدراسات مختلطاً بالدين ، والفلسفة ، فيمـا عـدا دراسـات المفكـر والعالم العربى عبد الرحمن بن خلدون التى جـاءت موضوعيـة فـى تصويرها لواقع الحياة فى المجتمعات الإنسانية .

ومـن هنـا فإنـه يمكـن النظـر للدراسـات الاجتماعيـة عنـد العرب من زاويتين :الأولى زاوية دينية ،ويمثلها الفارابى وإخوان الصفا،والزاويـة الثانيـة : وصفيـة تحليليـة ويمثلـها ابـن خلـدون والجغرافيون العرب .

أولاً : الفارابى

ولد أبو نصر محمد بن طرفان بن أوزلع عام ٢٦٠هجريـة – ٨٧٤م، بولاية فاراب على نهر سيمون من أعمال بلاد الترك،لذلك اشتهر بنسبته إلى هذه الولاية ، ومما هو معروف عنه أنـه عكـف بولاية فاراب على دراسة العلوم والفلسفة واللغـات وخاصـة اللغـة التركية ، والفارسية ، والعربية ، وقد رحل مـن بـلاد الـترك مـع والـده إلى بغـداد التـى تعلـم فيـها العربيـة والنحـو والطـب والمنطـق،وبعـد أن تعرضـت بغـداد للفـتن والإضطرابـات رحـل إلى

دمشق ، ثم غادرها إلى حلب ، وقد زار مصر عام ٣٣٧ـ ٣٣٨ هجرية ، ومات فى دمشق عام ٣٣٩ هجرية –٩٥٠ ميلادية .

وقد احتل الفارابى مكانة بارزة فى الفكر الإسلامى ، حيث يقول المؤرخون : " الحكماء أربعة اثنان قبل الإسلام هما أفلاطون وأرسطو ، وإثنان فى الإسلام ، وهما الفارابى وابن سينا" ، وقد لقب الفارابى بالمعلم الثانى (الأول أرسطو) ،كما لقب ابن سينا بالشيخ الرئيس وقد تبنى الفارابى كثيراً من آراء أرسطو ، فضلاً عن تأثره بالأفلاطونية الحديثة وهى تلك التى ظهرت على أيدى أفلوطين الإسكندرى ، والفارابى يمثل الإتجاه المثالى أو اليوطوبى فى الفكر الإسلامى ،ومن أهم مؤلفاته فى الشئون الاجتماعية " آراء أهل المدينة الفاضلة " .

(أ) طبيعة وأشكال المجتمع الإنسانى :

يؤيد الفارابى ما ذهب إليه أرسطو من أن الإنسان مدنى بطبعه ،وأن الاجتماع الإنسانى يعتبر ضرورة لإشباع حاجات الأفراد ،كما يشير لأهمية تقسيم العمل ،والتخصص الاجتماعى ودورهما فى بناء المجتمع ،فالإنسان بمفرده لايمكن أن يشبع كل متطلباته ،بل هو فى أمس الحاجة إلى أناس يقدمون له بعض ما

يحتاج إليه ،كل فى مجاله ، ولايتوفر له ذلك إلا فى إطار المجتمع الإنسانى .

ومن حيث أشكال المجتمع الإنسانى نرى أن المفكر الإسلامى قد قسمه إلى نوعين ، مجتمعات إنسانية كاملة وأخرى غير كاملة أو ناقصة ، وتتضمن المجتمعات الكاملة مستويات ثلاثة: هى العليا (أو العظمى) والوسطى ، والدنيا ، والمستوى الأول يمثل اجتماعات البشر كلهم على وجه الأرض ، والمستوى الثانى يمثل اجتماع أهل الأمة الواحدة ، أما المستوى الثالث فيشير إلى اجتماع أهل المدينة والمجتمعات الناقصة أو غير الكاملة فتنقسم هى الأخرى إلى ثلاث مستويات : الأولى اجتماع أهل القرية أو الحلة (وهى جزء من المدينة) ، والثانى : اجتماع أهل السكة ، والثالث: اجتماع أهل المنزل .

والمقصود باجتماع أهل السكة هو تجمع الناس فى الشوارع والأسواق ، وأقل أشكال المجتمعات الإنسانية نقصاناً هو اجتماع أهل المنزل ، ويظهر أن أساس هذا التقسيم يقوم على مدى ما يمكن أن يتحقق فى كل منها من مظاهر التعاون فى إشباع الحاجات ، ومدى حاجة كل منها لغيره أو للجماعات الأخرى ، فجماعة المنزل فى حاجة إلى جماعات أهل المدينة ، وإذا ما تمكنت المدينة من تكوين وحدة سياسية ،فإنها تدخل فى نطاق الجماعات الكاملة

فى أولى مراحلها،أما إذا تعـاونت عـدة مـدن وأخـذت شـكل الأمـة فإنها تصبح فى مرتبة أعلى من حيث الكمال .

واجتماع العالم كلـه فـى وحـدة سياسيـة تحـت سيطـرة سلطـة واحدة فيمثل دون شك أعلى مسـتويات التجمـع الإنسـانى وأكملها والاجتماع الفاضل هو الذى يتعاون فيـه الأفـراد مـن أجـل السعادة والأمة الفاضلة هى الأمة التـى تتعـاون مدنـها فـى سـبيل سعادتها ورقيها،لذلك فقد ركز بحثه على النواحـى المثاليـة التـى ينبغى أن تتحقق حتى تصبح هذه الأشكال فاضلة ، مسـتخدماً فـى ذلك معيار السعادة الذى يوضحه ، والمدينة الفاضلة هى تلـك التـى يتعـاون أفرادهـا فـى سبيـل إنجـاز مـا يحقـق سـعادة كـل فـرد فيها،وطريق ذلـك لايتـأتى إلا بـأداء كـل فـرد فيـها للعمـل الـذى يتقنه.

وفـى أثنـاء دراسـة الفـارابى للمجتمعـات الكاملـة أهمـل النوعين الأول والثانى منها ، وهما اجتماع العالم كلـه ، واجتمـاع الأمة ، ولم يدرس من بينها إلا اجتمـاع العـالم علـى النحـو الـذى يبتغيـه ، فوجـه اهتمامـه إلى أبسـط أنـواع هـذه التجمعـات وهـو المدينة، وقد سبق الرواقيون الفارابى فى القول بنظريـة "الجامعـة العالمية " أو "الجمهورية العالمية " تلك التـى تضـم شـعوب العـالم

أجمع وتحكمها هيئة واحدة ، ويكون الفرد فيـها مواطنـاً عالميـاً ، وطنـه العـالم أجمع ، وليـس مواطنـاً فـى دولـة بعينـها ، ونحـن لايمكـن أن نـأخذ علـى الفـارابى إهمالـه فكـرة المجتمـع العـالمى لصعوبة تحققها علمياً ، ولكـن مـا يؤخـذ عليـه هـو إهمالـه النـوع الثانى من المجتمعات الكاملة ، وهو الدولـة أو الأمـة خاصـة وقـد عاصر هذا المفكر هذا النوع من المجتمعات بل وعاش فيـه ، ولعلـه بفكر العالم الاجتماعى قد أدرك دوره فى تحقيـق الأهـداف المثلـى من الاجتماع الإنسانى .

(ب) مقومات المدينة الفاضلة :

يشبه الفارابى المجتمع بالكـائن الحـى، فالمدينـة الفاضلـة كالجسم الصحيح تتعاون أعضـاؤه فـى سـبيل حيـاة الجسـد ككـل، والمحافظة عليه ، وكمـا أن القلـب أهـم أعضـاء الجسـم ، ومحـور نشاطه ، فإن الرئيس بالنسبة للمدينة هو قلبها النابض ، ومصـدر حياتها ، ودعامة نظمها، وأداة سعادتها .

ولما كانت القوى العضويـة تتفـاوت ، فـان وظـائف المدينـة تتفاوت أيضاً، وهيئاتها فى أدوارها وقدراتها،فالرئيس فى المقدمة بالنسبة للمدينة يليه أعضاء مسئولون تتفاوت مراكزهم حتى تصل

إلى طبقة من يخدمون ولا يخدمون ، وهؤلاء هم أبناء الطبقة لدنيا.

ومن الشروط الواجب توافرها فى رئيس المدينة الفاضلة ، الانحدار من أب واحد ، ووحدة الجنس والسلالة، والإشتراك فى اللغة، والتناسل، وتشابه المقومات الخلقية ، والسمات الطبيعية والإشتراك فى البيئة الطبيعية ، والذكاء والفطنة ، وحسن العبادة وسلامة الحواس ، وحب العلم ، والتعلم، والبعد عن الشراهة وحب الملذات الدنيوية ، وحب الكرامة ، والبعد عن الدنيا ، والتعفف عن أعراض الدنيا ، وحب العدل ، وقوة العزيمة ، وهذه الصفات يجب أن تتوافر فى رئيس المدينة بالفطرة . ولكن هناك صفات مكتسبة يجب أن يتحلى بها ويحصل عليها ومنها ، حب الحكمة والفلسفة ، وأن يكون عالماً حافظاً للشرائع، وسننها الأولية والمقدرة على الإستنباط فيما لايحفظه عن أسلافه ، وأن يعمل على تقوية بنائه البدنى، وتكون لديه القدرة على تعليم الناس ، ما يجد من شرائع وما يبتكر من سنن ، وإذا لم تتوافر هذه الشروط (الطبيعية) فى إنسان بقيت المدينة دون رئيس وعليها أن تتبع سنن الرؤساء السابقين ، إلى أن يتوافر لها من يتمتع بهذه الصفات

الفطرية ، أما إذا لم تتوافر الشروط المكتسبة في واحد ، وتوفرت في جماعة فلا بأس من أن يكونوا هم الرؤساء،وأن يتولوا الحكم جماعة .

وفضلاً عما سبق فإن الفارابى يضيف شرطاً روحياً تأثر فيه بأفلاطون ، وبعض النزعات الصوفية ، وما يقرره الدين الإسلامى وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام،فهو يريد رئيس المدينة الفاضلة فيلسوفاً كامل التعقل بما يفيضه الله على عقله المنفعل من حقائق تنتظم جميع المقولات ، بحيث يصبح مطلعاً على ما سيكون، عالماً بما هو كائن بفضل ما يفيضه الله عليه من اشراق .

ويتعرض الفارابى لأشكال المدينة غير الفاضلة،ويسردها وهى المدينة الجاهلية التى لا يعرف أهلها السعادة،ويعتقدون فى أن الخير فى ملذات البدن ، والمدينة الضرورية التى يقصد أهلها إلى التكالب على الحاجات المادية،والمدينة البدالة أو التجارية وهى التى ينزع أهلها إلى جمع الثروة واكتنازها ، ومدينة الخسة وهى التى يسودها اللهو والعبث، وملذات البدن ، ومدينة الكرامة التى يقصد أهلها للصيت والشهرة ، ومدينة التغلب التى تسودها الروح الحربية ، ومدينة الإباحية التى تنعدم فيها الضوابط الاجتماعية والأخلاقية،والمدينة الفاسقة وهى التى يعرف أهلها

صفات المدينة الفاضلة،ولكنهم لايتحلون بها ، والمدينة الضالة التى يضل أهلها طريق الدين ، ويسيئون تفسير النصوص والعقائد، والمدينة المبتذلة ، وهى التى كانت فاضلة ، وظهرت فيها تيارات منحرفة ، فتبدلت سماتها .

هذه هى أهم الآراء التى عالجها الفارابى فى كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة " وقد كانت مثاراً لإنتقادات عنيفة قللت من شأنها، وقللت بالتالى من الدور الذى أسهمت به فى تاريخ الفكر الاجتماعى ، فضلاً عن تجاهل مجتمع الدولة أو الأمة ، كما قلنا ، ونراه يعول بشكل زائد على شخص رئيس المدينة الفاضلة ، الأمر الذى يثير كثيراً من التساؤلات حول مدى امكانية توافر هذه الشروط الطبيعية والمكتسبة فى شخص واحد،لقد عاصر الرجل بالفعل نمط الدولة فى ظل الإسلام، وكان نمطاً متطوراً عن غيره ولكنه لم يتناولها بالموضوعية العلمية،التى كان من الممكن أن تجعل دوره فى الفكر الاجتماعى أكثر صدارة ووضوحاً .

ثانياً : ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م)

يمكن تلمس معظم آراء ابن سينا فى كتابه "الشفاء " ، ونجده فيها متأثراً ببعض آراء أفلاطون وأرسطو والفارابى،ورغم

ذلك فإن آراءه تعكس إلى حـد مـا طبيعـة العصـر الـذى عـاش فيـه وظروفه .

(أ) المجتمع والتفاضل الاجتماعى :

يرى ابن سينا أن هناك اختلافاً جوهرياً بين حياة الإنسـان وحياة الحيوان ، حيـث يحيـا الحيـوان حيـاة غريزيـة طبيعيـة ، بينما يحيا الإنسان حيـاة اجتماعيـة ، ويتميز بالتفكير ويحتـاج لإشباع حاجات كثيرة ، ويتطلب ذلك أن يقوم المجتمع على تعاون أفراده ، ويعتمد هذا التعاون على تفـاوت كفـاءات الأفـراد إلى حـد بعيد،وهذا التفاوت يعبر عن حكمة إلهية،وعليه يقـوم التخصص وتقسيم العمل الاجتماعى، وتتطور مبادئ التعاون المشترك .

والتفاضل الاجتماعى أيضاً نعمة من الله علـى البشـر،حيـث من هذا المنطلق يحافظون على بقائهم،وتنمو حياتهم وتتطـور،فلـو كان البشر متساوين فـى أموالهـم وقدراتـهم لأدى ذلـك إلى فنائـهم وانقراضهم،فلو كان الناس فئة واحدة متساوية كأن يكونـوا فقـراء جميعاً أو أغنيـاء جميعـاً،أو ملوكـاً جميعـاً لكـان التنـافس بينـهم محدوداً فى إطار ضيق ، لكن تفاضلهم واختلافهم يجعل لكل منهم دوراً يرضـى عنـه ويسـهم بـه فـى إستمرار بقـاء وتطـور الحيـاة الاجتماعية،لأن اهتماماتهم سوف تتفاضل وتتنـوع أيضـاً،فالحيـاة

الاجتماعية لاتستقيم بالتشابه، ولكن بالإختلاف والتباين والتفاضل .

(ب) آراؤه فى الدخل والإنفاق :

فى مناقشات ابن سينا للجوانب الاقتصادية للحياة، يحدد مصادر كسب الرزق فى نوعين : الأول ما يئول للإنسان بالوراثة، والثانى ما يكتسبه بجهده وعرقه، ولابد أن تكون مصادر الكسب معروفة فضلاً عن ضرورة كونها مشروعة، فلا يجوز أن يكون مصدر الرزق غير مشروع أولاً بقوة الدين والمجتمع، كالسرقة والغش وغيرها ولكن ينبغى أن يكون المصدر حلالاً ، ولوكان ما يدره من الكسب قليلاً ، أما أوجه الإنفاق فمنها ما هو واجب ومنها ما هو جائز مستحب ولكنه غير واجب ، ومنها ما هو غير جائز ويتعلق الأول بنفقات الإنسان وأسرته على وسائل المعيشة المختلفة ، والثانى ما ينفقه فى أوجه الخير والبر، والنفقات غير الجائزة تتمثل فيما لا يجوز أولاً بقوة الدين والمجتمع.

(جـ) الدولة والمدينة :

المدينة عند ابن سينا هى تجمع من الناس يقوم على التعاون المشترك، حيث لا يستطيع الإنسان الحياة بمفرده. ويدبر

شئونه بنفسه، أوبتدبير أمر أسرته وأهله بدون شريك يعاونه على اشباع حاجياته. فالإنسان كما قال أرسطو - كائن اجتماعى .

وطبقات المدينة عنده تتقسم إلى ثلاثة ، الأولى المديرون ، والثانية: الصناع ، والثالثة : الحفظة ، وتنظيم هذه الطبقات تنظيماً متسلسلاً . ويتولى الحاكم تنصيب رئيس لكل فئة من هذه الفئات ، وهذا الرئيس بدوره ينصب من هم أقل منه ، بحيث ينتهى الأمر إلى إقامة مجتمع عامل يكون لكل فرد فيه منفعه ولايوجد فيه عاطلون .

ويعالج مشكلة البطالة ويتصور أن هذا العلاج يتأتى بنفى العاطلين وقبل نفيهم يقوم الحاكم بتوجيههم نحو احترف مهنة معينة نافعة ومالم يستجيبوا نفذ عليهم النفى أما الموارد التى تشكل ميزانية المدينة أو كما يسميها " مصادر حالها " فتتمثل فى الضرائب والغرامات التى تفرض على المجرمين والغنائم.

ويتناول ابن سينا بعض المشكلات الاجتماعية التى يبدو أنها كانت سائدة فى عصره وهى القمار والسرقة والربا ، والقواده وأشار إلى رذيلتين كفيلتان بهدم بناء المدينة وهما الزنا واللواط فهاتان المشكلتان تغضان البصر عن الزواج ، وفى مقابل ذلك ينصح

بالزواج ويرى دعم أركانه وتقوية أواصره بحيث لايتم الطلاق لأسباب تافهة .

وهكذا نلتمس أن ابن سينا ربما كان متأثراً باليونان والفارابى فى تصور المدينة على أنها تؤلف دولة ، أو وحدة سياسية ولكنه يختلف عن الفارابى فى أنه كان أكثر واقعية فى تصور المدينة ولم يفرط فى المثالية كما فعل الفارابى وكذلك كان يغلب عليه الطابع الدينى والاجتماعى ، بينما كان يغلب على الفارابى الطابع الفلسفى .

ثالثا : ابن باجة :

جاء كتاب " تدبير المتوحد " لابن باجة متضمناً لمعظم آرائه الاجتماعية وفيه يتحدث عن المدينة الفاضلة مثل الفارابى وكذلك يتحدث عن الإنسان الفاضل أما الانسان " المتوحد " فهو الانسان الفاضل الذى يعيش فى مدينة غير فاضلة .

(أ) الفرد والمجتمع :

يرى ابن باجة أن الإنسان كائن اجتماعى ، ومدنى بطبعه بمعنى أنه يميل للعيش فى مجتمع ، ويتحدث عن العزلة إذا كانت مرغوبة لذاتها فهى تصبح مرذولة ، أما إذا كانت بهدف اجتناب الفساد والمعصية . فهى خير ولاشك فيه . والدولة هى

الوحدة الاجتماعية الكبرى ويعبر عنـها- مثـل الفـارابى - بأنـها المدينة والمدينة، إمـا فاضلـة أو فاسـدة ، ويقصـد بمفـهوم " تدبـير المدينة " سياسة المدينة أو الدولة والتدبير،أو السياسة الفاضلة هى تلك التى تشمل العالم كله.

(ب) المدينة الفاضلة والمدينة الناقصة :

فى المدينة الفاضلة نجـد أن قوامـها الفضيلـة وأنـها تحكـم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ويتصور أن المدينة الفاضلة بغـير حاجـة إلى أطبـاء أو قضـاة لأن الغـذاء فيـها يكـون وفـيراً فتقـوى الأجساد، وتبرأ العلل والأمـراض مـن نفسـها دون عـلاج فالعنايـة بالجسد وبنائه على أساس سليم خير واق من الأمـراض كذلـك فـإن العلاقات فيها تقوم على التحاب ، وبالتالى لاتقع نزاعـات تحتـاج لمحاكم أو قضاة فى هذه المدينة يؤدى كل شخص العمل الذى يتقنه رائده فى ذلك خير المدينة بأسرها وهكذا فالانسان الفاضل جزء من المدينة الفاضلة .

والمدن الناقصة هى تلك التى تحتـاج لقضـاة وأطبـاء، وكلمـا ابتعدت عن الكمال زادت هذه الحاجة ويتسم أهل هذه المدن بأنهم يسرفون فى الملذات الجسمية وينتشر بينهم الجهل وعـدم التبصـر بمايريدون .

(ج) تدبير المتوحد :

يتصادف أن يعيش شخص أو أكثر من الفضـلاء فـى مدينـة غير فاضلة وهؤلاء يطلق عليهم ابن باجة " النوابـت" أى يشـبههم بالنبات الذى ينمو من تلقاء نفسه ، لأن آراؤهـم تختلـف مـع آراء المجتمع الذى يعيشون فيه ، هؤلاء هم الفلاسفة والأطباء والقضـاة وهناك ضرورة لوجودهم فى المدينة غير الفاضلة حتى يقتفى الناس أثرهـم ويسـتفيدون مـن وجودهـم ولكنـهم يعيشـون فيـها غربـاء وتحول المدينة من مدينة غير فاضلة إلى مدينة فاضلـة رهـن تزايـد عدد " النوابت " فيها .

وهناك قواعد " للسير " أو السـلوك الـذى يجـب أن يتبعـه المتوحد إذا عاش فى مدينة غير فاضلة فعليه أن يحافظ على صحته لكى لاتعتل ويحتاج لطبيب وإذا كثر عدد المتوحدين فى مدينـة مـا فإنه يجب عليهم أن يقيموا فى أحد أجزائها معا وفى هذه الحالـة سوف لايحتاجون للطبيب وكذلـك علـى المتوحـد أن يـهتم بتغذيـة نفسه بما ينفع ويتجنب الإسراف فى الطعام وأن يكون معتدلا فـى أمور حياتـه الجسـدية فـالأمور الجسـدية ليسـت غايـة ، ولكنـها وسيلة لإتقان الأعمال العقلية ، ويجب أيضا أن تكون صحبتـه مـن بين أهل العلـم ويبتعـد عـن المـهتمين بحياتـهم الجسـمانية إلا إذا

دعته ضرورة للتعامل معهم وأيضاً يجب أن يهتم بـالعلوم النظريـة لاالعملية ، وعليه أن ينصرف عـن التصوف لأن التصـوف وهـم ، والتفكير السليم هو الذى يهدف لبلوغ السعادة الحقيقية .

(د) التنشئة الاجتماعية :

يـرى ابـن باجـة أن التنشـئة تختلـف بـاختلاف البيئـة المنزلية فالمنزل الفاضل الذى يتبع أصول العقل وأحكامـه هـو ذلـك الذى يوجد فى المدينة الفاضلة أما المنزل الناقص فيوجد فى المدينة الناقصة ولكثرة مايشوبه مـن أمـراض وعلـل ينتظـر أن ينتـهى إلى خراب وتفكك.

والإنسان فى مراحل حياته المختلفة يقـوم بـأدوار مختلفـة أيضاً وكل دور نتيجة للدور الذى سبقه ، وفى نفس الوقـت يمـهد للدور التالى،وتتنوع الأعمال وفقاً لإختلاف الأدوار وتنوعها والفرد الذى يـؤدى دوراً حاليـاً ، يجـب أن يكـون أداة مـن قبـل أن يكـون مصاباً بالنقص ، وأيضاً فرط الذكـاء ينطـوى علـى نقـص مثلـه مثـل انخفاض مستوى الذكـاء فالذكـاء المفـرط يخمـد مبكـراً كمـا تخمـد جذوة النار .

والسلوك الإنسانى نوعان: بهيمى، وإنسانى ، الأول : هـو الـذى يقـوم علـى الحاجـة والإنفعـال ، فمثـلاً اندفـاع الإنســان إلى

الطعام بدافع الجوع فإنـه يكـون فـى هـذه الحالـة بـهيمى السـلوك فالحيوان يتجه للطعام والشراب بدافع غريزى أيضاً ، ولاتكون لـه غاية بعد الشـبع ، ولكـن غايـة الإنسـان هـى الأعمـال الذهنيـة أو العقلية ، وأيضاً فى حالة الإنفعال نجد الحيوان حينما يضرب يرد ماوقع عليه من اعتداء بطريقـة انفعاليـة كـالرفس دون تفكـير فـى عاقبته ، أما الإنسـان فحينمـا ينفعـل فيتصـرف بعقلـه ويـدرك أو يقدر جيداً نتائج فعله .

وفى الإنسان جزء بهيمى ، فهو يمتـاز عـن الحيـوان بأنـه مؤلف مـن جزئـين ، أحدهمـا عـاقل ، أمـا الآخـر فـهو جسـد لـه حاجات ضرورية لابد من إشباعها ، بينمـا نجـد الحيـوان مجـرداً من الجزء الأول وهو الجانب العقلى ، من هنـا فـإن فعـل الإنسـان لايمكن أن يكون إنسانياً محضاً ، بل يمتزج فيه الجـانب البـهيمى ولتأخذ مثلاً عملية الطعام فهذه العملية تنظوى علـى فعلـين الأول هو الدافع الطبيعى الموجود عند الحيوان ثم الغايـة النهائيـة التـى تقوم عند الإنسان على إرداة عاقلـة ، وهـى أنـه يقصد مـن الطعـام حفـظ حياتـه ، ونشـاطه ، لإمكـان الإسـتمرار فـى بـذل جـهود الإنسانية وليحقق السعادة العقلية أو الروحية .

وهكذا يمكن أن نلمح أن آراء ابـن باجـة فـى هـذه الناحيـة تنطوى على بعـض الفـهم لطبيعـة السلوك الإنسـانى ، ومـع ذلـك كانت مشوبة بالصبغة المثالية .

تعـــقيب :

مما سبق يمكن القول بأن معظم جوانب التفكير الاجتماعى عند علماء المسلمين الذيـن عرضنـا لهـم ، والذيـن يمثلـون الاتجـاه الأول ، وهو الاتجاه الذى خلـط بـين الفلسـفة ، والديـن ، والفكـر الاجتمـاعى ، يمكـن القـول أن اسـهاماتهم فـى مجـالات علـم الاجتمـاع كـانت مـن قبيـل " اليوتوبيا الاجتماعيـة " والدراسـات الفلسـفية الاجتماعيـة التـى مهدت لظهور العلم، بينما لم يحدث على أيديهم تقدم حقيقى فـى مجالات الدراسة فى هـذا العلـم ، إلى أن جـاء القـرن الرابـع عشـر الميلادى ، وظهر العلامة العربى عبد الرحمـن بـن خلـدون ،الـذى بعـث هـذا النـوع مـن الدراسـات بعثـاً جديـداً علـى أسـس جديدة،فاعتبر بحق أول عالم أنشأ علم الاجتمـاع،وحـدد موضوعـه ومنهجه وأرساه على قواعد علمية سليمة.

رابعا : عبد الرحمن بن خـــلدون :

تمهيـــد :

ولـد عبـد الرحمـن بـن خلـدون فـي أول رمضـان عـام (٧٣٣هجريـة) ١٧ مـايو ١٣٣٢ ميلاديـة فـى تونـس ، وقـد تلقـى تعليمه بمسجد القبة حيث حفظ القرآن الكريم ، بقراءاته المختلفة (التجويد) ثم درس العلوم الشرعية ، واللغة والأدب والبلاغة هذا إلى جانب دراسته للمنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية .

وقد تقلد ابن خلدون كثيراً من الوظـائف الادارية ، وعين عضواً بالمجلس العلمى بفاس ، مع ملـك المغـرب فـى ذلـك الوقت السلطان أبو عنان الذى اختـص ابـن خلـدون بمكـارم كثـيرة ورفـع مكانته حيث عينه ضمن كتابه وموقعيه ، ومـع ذلك فقـد كـان ابن خلدون طموحاً ولم ترضى هذه الوظيفة طموحه .

وجدير بالذكر أن هذا الطموح كثيراً ما أوقع ابن خلدون فى أزمـات ومشـكلات ، فقـد كـان يسـعى لتحقيـق مـا يريـده بكافـة الوسائل حتى لو تتنافى بعضها مع القيم والأخـلاق ، فعلـى سـبيل المثال اشترك فى دسائس ومؤامرات ضد السلطان ، أثناء وجوده فى بلاطة وفى إحدى هذه المؤامرات اكتشـف أمـره وأودع السـجن لمـدة عامين .

ويقال إن انشغال ابن خلدون المستمر بالرغبة فى الحصـول على مزيد من المناصب جعله يشترك بل ويخطط لعدد من المؤامرات التى كانت تجرى ضد حكام الدويلات المغربية ، وقد لزمته هذه الصفة فترة طويلة، ولما لم يظفر ابن خلدون بما كان يرجوه ترك المغرب مستقيلاً من وظائفه وهاجر إلى الأندلس ، وقوبل بترحاب كبير هناك وكلفه سلطان غرناطة ببعض المهام ، وقد نجح فيها ابن خلدون فزادت مكانته وعلا شأنه لكن الوشايات كثرت حوله، وخشى من مغبتها ، فترك غرناطة بعد عامين ونصف كانت فترة سعيدة فى حياة ابن خلدون ، وانتقل بعد ذلك إلى بجاية وتولى فيها أرقى المناصب لكنه تركها إلى بسكره بعد أن تغير نظام الحكم فى بجاية ، ثم إلى تلمسان التى لم يدخلها لأنه عرف بوفاة سلطانها قبل وصوله إليها فاتجه إلى فاس وفى هذه المرة لم يتول مناصب فى فاس بل تفرغ للقراءة لكنه دخل السجن مرة أخرى عندما تغير نظام الحكم فى فاس ، وبعد ذلك بذل جهوداً كبيرة فى العودة إلى تلمسان مزمعاً على هجر العمل بالسياسة والإعتكاف مع أسرته للقراءة والتأليف وبالفعل عاش مع أسرته فى هذا المكان أربعة أعوام بدأ فيها بكتابة مؤلفه الشهير"

العبر" وجعل له مقدمه طويلة تحتوى على كثير من أفكاره فى علم العمران أو الاجتماع الإنسانى .

وبعد هذه السنوات الأربع عاد ابن خلدون إلى تونس لإعادة قراءة وتنقيح مؤلفه ، وذلك بالإستعانة بالمراجع الموجودة فى تونس وظل فيها أربعة أعوام أخرى ، ثم غادر تونس ومنطقة المغرب العربى كلها متوجهاً إلى مصر حيث وصلها فى عام ٧٨٤هجرية ، حيث نزل بالاسكندرية ، واتجه للقاهرة بعد شهر وكانت شهرته وأفكاره العلمية قد سبقته للقاهرة ، فقوبل فيها بترحاب شديد ، وفى الوقت نفسه بهرته القاهرة ، واتجه طموحه للتدريس بالأزهر ، وبالفعل كان له ما أراد ، وقربه سلطان مصر فى ذلك الوقت وعينه بإحدى المدارس لتدريس الفقه المالكى .

وما لبث أن عينه فى منصب قاضى قضاة المالكية ، وهو منصب رفيع فى هذا الوقت ، وقد تولى هذا المنصب لمدة عام واحد حيث كانت الوشايات قد لاحقته وألصقت به التهم الكاذبة وكان ابن خلدون قد فقد القدرة فى هذا الوقت على الصمود لما أصابه من ألم نتج عن غرق أسرته وزوجته وأولاده جميعاً فى الباخرة التى

كانوا يستقلونها من تونس للحاق به فى القاهرة ، الأمر الذى جعله زاهداً فى كثير من الأمور الدنيوية .

وفى هذه الفترة كان ابن خلدون لايلبث أن يتولى منصباً فإذا بالوشايات تطارده لدى السطان ، فيعفى من المنصب وينقل لغيره وهكذا عدة مرات حتى توفى بعد هذه الحياة الحافلة فى القاهرة ، ودفن فيها .

مراحل النشأة :

- المرحلة الأولى :

هى مرحلة النشأة والتلمذة والتحصيل العلمى وتمتد من ميلاده سنة (٧٣٣) هجرية وحتى (٧٥١) هجرية ، أى حوالى عشرين عاماً، وقد قضاها فى مسقط رأسه ، تونس ، وقضى منها نحو خمسة عشر عاما فى حفظ القرآن الكريم وتجويده بالقراءات والتلمذه على يد الشيوخ وتحصيل العلوم .

- المرحلة الثانية :

هى مرحلة الوظائف الديوانية والسياسية ، وتمتد من آواخر عام (٧٥١) هجرية إلى آواخر (٧٧٦) هجرية أى خمسة وعشرين عاماً هجريا متنقلا بين بلاد المغرب الأدنى والأوسط

والأقصى ، وبعض بلاد الأندلس ، وقد أستأثرت الوظائف الديوانية والسياسية بمعظم وقته وجهوده أثناء هذه المرحلة .

- المرحلة الثالثة :

فهى مرحلة التفرغ للتأليف ، وتمتد من آواخر سنة (٧٧٦) هجرية إلى آواخر سنة (٧٨٤) هجرية وتستغرق نحو ثمان سنوات قضى نصفها الأول فى قلعة ابن سلامة ، ونصفها الأخير فى تونس، وقد تفرغ فى هذه المرحلة تفرغاً كاملاً للتأليف فأنهى " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر " ويطلق الآن على القسم الأول من هذا الكتاب إسم " مقدمة ابن خلدون " وهو يشغل مجلداً واحداً من سبعة مجلدات يشغلها هذا الكتاب ولم يستغرق تأليف هذا القسم فى وضعه الأول إلا خمسة أشهر .

- المرحلة الرابعة :

وهى مرحلة وظائف التدريس وتمتد حوالى أربع وعشرين سنة قضاها كلها فى مصر وقد استأثرت وظائف التدريس والقضاء بأكبر قسط من وقته وجهده فى أثناء هذه المرحلة .

ويعتبر عبد الرحمن بـن خلـدون واحـداً مـن أكـبر مفكـرى عصره، وقد كان رجل سياسة وحكم إلى جانب كونــه عالمـاً ومفكـراً اجتماعياً ، فقد خدم ملوكاً كثيرين ، وتنقـل فـى رحـلات وأسـفار أتاحت له الإتصال بشخصيات عديدة ، هـذا فضـلاً عـن أنـه عـاصر حوادث معقدة أثرت فى حياته الخاصة مـن ناحيـة وفـى دراسـاته وبحوثه من ناحية أخرى ، وكان ابن خلدون متميزاً بالذكاء ودقـة الذهن ، ودقة الملاحظـة، الأمـر الـذى جعـل دراسـاته وتحليلاتـه قريبة من حقائق الأمور .

وللأهمية التى يحظى بها فكر ابن خلدون ، خصصنـا هـذا الجزء لاستجلاء جوانـب هـذا الفكـر ، ومـا تضمنـه مـن دراسـات جديدة ورائدة فى نفـس الوقـت ، يصفـها ويشـرحها بدقـة وعمـق أذهل كثيراً مـن المفكريـن فـى الشـرق والغـرب ، لأنـه تفـوق علـى مفكرى عصره ، كما أن مفكرى الغرب لم يتوصلوا فـى الحقيقـة إلى هذه الأفكار والدراسات إلا بعد ابن خلدون بوقت طويل .

وقد هاجم ابن خلدون كتب التاريخ السابقة عليــه ،وانتقـد جوانب الضعف فيها ، منبهاً إلى الحاجة إلى مؤلف شـامل يعـرض التاريخ على أساس جديد أو مبادئ أو مناهج جديـدة ، مـن أهمـها الشرح والتحليل وتفسير أسباب الحوادث والعلاقات العلية بينــها

وقد دخل بهذا المنهج إلى فكرته عن ضرورة قيام علم جديد هو علم العمران، أو الاجتماع كما نسميه اليوم .

لعل هذه اللمحة التمهيدية السريعة تفيد فى فهم أبعاد شخصية عبد الرحمن بن خلدون ، وتفاعله مع ظروف العصر الذى عاش فيه ، ذلك العصر الذى شهد بداية انكماش الدولة الإسلامية فى الغرب والشرق ، وتدهور ثقافتهم وكثير من أمجادهم ، وفى الوقت نفسه فإن أفكار أى عالم هى محصلة صادقة لما يسود المجتمع الذى يعيش فيه من ظواهر ، وأحداث يتفاعل معها العالم ، وينفعل بها ، ومن هنا فإن مغامراته السياسية وكثرة رحلاته ، وما واجهه قد تركت بصمات واضحة على إنتاجه الفكرى المتنوع ، فكان عمله الأساسى هو كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من أهل السلطان الأكبر "ويقع فى سبعة مجلدات ضخمةتوضح إلى أى مدى كان هذا الرجل موسوعياً متنوعاً ، شاملاً ، لكثير من الفروع القائمة فى علم الاجتماع اليوم .

فقد تناول الظواهر الاجتماعية أو وقائع العمران البشرى التى أكد معظم العلماء والدراسين أن أفكاره فى هذا المجال تمثل

البدايات المبكرة لعلم الاجتماع ،سابقاً علماء الغرب بما يزيد على أربعة قرون ونصف.

- ***أفكاره الرئيسية :***

شكلت دراسة الظاهرات الاجتماعية جزءاً كبيراً من مقدمة ابن خلدون ، وفى الوقت ذاته شكلت موضوع علم الاجتماع وقد أدرك ابن خلدون مدى اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية وتنوعها لذلك جاءت معالجاته لها متسمة بالتسلسل والمنطقية والمنهجية وقد دارت أفكاره الأساسية حول السكان والعمران والطبقات والأحوال الاجتماعية .

ولقد كان تركيز ابن خلدون الأساسى ينصب على ظواهر العمران البشرى خاصة مايتعلق منها بالتطور الاجتماعى وذهب إلى أن هذا التطور لايتم مصادفة أو عشوائياً ، ولكن له قوانين تحكمه وتفسره لذلك رأى أن هناك ضرورة ملحة لدراسة هذه القوانين أو التوصل إليها ، وهذا يفرض من وجهة نظره دراسة المجتمع البشرى فى ذاته ، وهذه الدراسة تشكل موضوع علم مستقل هو علم الاجتماع ، ومعنى ذلك ان وظيفة علم الاجتماع هى الكشف عن القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية فى حدوثها وتطورها وأدائها لوظائفها .

وحينما شرع ابن خلدون فى وصف وتحديد المنهج الملائم لدراسة الظواهر الاجتماعية بدأ بتوجيه النقد إلى الطرق المنهجية التى استخدمها السابقون عليه وأشار إلى أنه ينفرد بقواعد تختلف عنها ، ولم يسبقه إليها أحد ، فهاجم الطريقة التاريخية الخالصة التى ترتكز على الوصف السطحى المحدود للظواهر الاجتماعية دون محاولة استخلاص شىء عن القوانين التى تحكمها وكثيراً ماهاجم المؤرخين لابتعادهم فى بعض الحالات عن استخدام الطرق العقلية والمنطقية فى العرض التاريخى ، وعدم نزاهتهم فى هذا العرض فى كثير من الأحيان .

كذلك هاجم ابن خلدون الطريقة التى يتبعها علماء الأخلاق والسياسة فى تركيزهم على إبراز محاسن معتقدات الأمة وتقاليدها ، وأخلاقياتها ، وحث الناس على التمسك بها ، هذا فضلاً عن هجومه على المناطق أو الطرق المثالية التى كان أفلاطون وأرسطو والفارابى من أبرز أنصارها .

وقد تمثلت الخطوط الرئيسية لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية فيما يلى:

أولا : توصله إلى علم الاجتماع وفهم ظواهره :

استخلص ابن خلدون من قراءته للتاريخ عموماً والتاريخ الإسلامى بشكل خاص أن الحوادث ، والظواهر الاجتماعية لا تسير حسب المصادفات أو وفق إرادة الأفراد وإنما لها قوانين ثابتة لاتقل فى ثباتها عن قوانين الظواهر الأخرى ، ومن هذه النقطة كان رفضه لكثير من الروايات التاريخية التى رأى أنها لاتتفق مع هذه القوانين ، كما دعى إلى إتباع طريقة دقيقة لتحقيق الأحداث التاريخية ، وهذه الطريقة تتمثل فى البحث نظرياً عما إذا كانت واقعة من الوقائع ممكنة فى ذاتها، وعن مدى تناقضها مع طبائع الأشياء وعن مدى اتفاقها مع الزمان والمكان الذين حدثت فيهما وقرر ابن خلدون أن دراسة الاجتماع البشرى بهذه الطريقة ينبغى أن تكون موضوعاً لعلم جديد هو علم العمران وأن هذا العلم مستقل بنفسه فإنه له موضوع وهو العمران البشرى ، والاجتماع الإنسانى وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال شأنه فى ذلك شأن العلوم الأخرى .

وبهذه النتيجة كان ابن خلدون أول من قرر بوضوح نشأة علم الاجتماع مع ذلك فإنه لا ينكر على سابقين عليه قد تعرضوا

لموضوعات الدراسة فى هذا العلم ، كما لم ينكر أن موضوعاته أيضاً تدرسها علوم أخرى ، ولكنها لم تدرس بنفس الطريقة التى يعيشها أو نفس الغرض الذى يشير إليه وهذه الإشارة تتضمن تمييزاً لعلم الاجتماع عن غيره من العلوم الأخرى فعلم أصول الفقه مثلا تعرض للمسائل التشريعية ، وكانت غايته شرح أصولها الفقهية ، ولكن لم يذهب أحد من قبله إلى أن المسائل التشريعية مسائل اجتماعية ، بالدرجة الأولى ، كذلك أمور أخرى مثل الخلافة ونظم الحكم التى أوضح أنها ظواهر اجتماعية لها أسباب عميقة فى طبيعة الاجتماع الإنسانى ..

كما يذهب إلى أن الإنسان مدنى بطبعه كما أشار إلى ذلك من قبله أرسطو والفارابى وغيرهم فحاجة الإنسان لغيره تؤدى إلى التعاون ومن ثم التضامن الذى هو دعامة المجتمع ، هذا إضافة إلى استئناس الإنسان بغيره من أجل إستكمال خواصه النوعية والجنسية، وحاجاته الضرورية، وأشار ابن خلدون إلى العوامل التى ترجع إليها نشأة الحياة الاجتماعية وهى فى نظره :

١)الضرورة وهى إما ضرورة اقتصادية لأن الفرد لا يمكن أن يكتفى ذاتياً وإما ضرورة دفاعية فى مواجهة العدو المشترك المتمثل فى الحيوانات المتوحشة .والشعور الفطرى ، فالإنسان مزود بشعور

فطرى يدفعه للإستئناس بأخيه الإنسان ، وهـذا عـامل أساسـى فى قيام الحياة الإنسانية .

٢)الميـل لتحقيـق فكـرة الجمعيـة ، فلابـد هنـا مـن توفـر جـانب الإرادة وإلا سـادت الاضطربـات والعـدوان المسـتمر فـالإرادة الإنسانيـة الفردية هى التـى تعصـم الفـرد مـن عـدوان الآخريـن وتؤدى للإستقرار والسلام والأمن.

ونشأة المجتمع تؤدى إلى سيادة نوعيـن مـن الظواهـر : الأول الظواهر الطبيعية ، والثانى الظواهر الاجتماعية ، والظواهر الاجتماعيـة تتـأثر بـالظواهر الطبيعيـة ، كمـا تتـأثر بـالظواهر الاجتماعيـة الأخـرى وقـد قـارن بـين المجتمعـات الحيوانيـة ، والبشرية ، فالأولى تكون مدفوعة بالفطرة فقط أما الثانيـة فـالدافع إليها الفطرة والعقل معاً .

ثانياً : القواعد المنهجية عند ابن خلدون :

إن من يستعرض مقدمة ابن خلـدون لايجـد فصـلا أو جـزءاً محدداً بعنوان المنهج أو القواعد المنهجيـة ، ومـع ذلـك فليـس مـن الصعـب علـى القـارىء أن يسـتخلص هـذه القواعـد بوضـوح وإذا ماجمعت فى إطار واحد لشكلت كمـا فعـل بعـض الدراسـين إطـاراً

منهجياً فريداً ومتكاملاً ، ولعل من الممكن الإشارة إلى هذه القواعد بشيء من الإيجاز .

(أ) الإستزادة من العلم :

يرى ابن خلدون أن هذه القاعدة العامة أساسية لكل من يريد أن يشتغل بالبحث العلمي ، والباحث كما يرى ابن خلدون يحتاج إلى عدد متنوع من المعارف العلمية التي تنير له طريق الفهم والتحليل فلابد في هذه المسألة من الإطلاع في مجالات السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الشعوب ، والسير والأخلاق والعادات ، وقياس ذلك كله على شعوب متفرقة لمعرفة ما بينها من اتفاق أو اختلاف ، ويشير ابن خلدون إلى أنه طبق هذه القاعدة على نفسه ولولاها ما بلغ الفهم والوعي وعمق التحليل الذي ظهر في آرائه ومؤلفاته.

(ب) التعرف على طبائع العمران البشري :

وهي قاعدة عامة أخرى ألزم ابن خلدون نفسه بها ، فهي تعتمد على محاولة الإحاطة الواسعة بشتى العلوم ، والتعمق فيها فقد ميز في هذا المجال بين التجمعات الإنسانية أو البشرية التي تتعاون فقط من أجل الحصول على ضروريات الحياة ، والتجمعات التي تشكل مجتمعاً متفاعلاً متغيراً تحكمه نظم السلوك الجمعي ، وينخرط أفراده في جماعات هادفة تخلق لنفسها تراثاً وثقافة ،

ويرى أن الصورة الأولى مجرد اجتماع عادى يمهد للعمران البشرى المنظم الذى يظهر فيه آثار النظم الاجتماعية ، والعلاقات والتفاعلات بين أفراده ويؤسسون أنماط سلوكهم وعاداتهم ، أو طبائعهم الخاصة ، ويدخل فى هذا الإطار مايصيب المجتمع من تغيرات أشار إليها ابن خلدون على أنها تبدلات وعدم استقرار فى طبائع الأمم والشعوب ، فتنتقل من حال إلى حال ، وهذا التغير يصيب الأفراد والنظم والدول .

ويدرك ابن خلدون بجلاء أن لكل جماعة أو قرية أو قبيلة أو مدينة طبائعها الخاصة التى تنفرد بها وتتميز عن غيرها من حيث البنية والوظيفة ، وما يطرأ عليها من تغير ، ويذهب البعض إلى إدراك ابن خلدون لكل ذلك كان تمهيداً للنظريات البنائية الوظيفية فى الأنثروبولوجيا ونظريات الفعل الاجتماعى فى علم الاجتماع .

(ج) التشكك كمقدمة لليقين :

يشير ابن خلدون إلى أن الكثير من الروايات يشوبه الكذب وعدم الدقة ، كأن يتملق الراوى أصحاب المكانة ، والمرتبة العالية وميل النفس لقبول ما يلائمها حتى لو كان كذباً ، أو أن يسلم المرء بصدق ناقل الراوية نتيجة الثقة فيه ، فيقبل ما يقوله دون تمحيص كذلك فقد يكون ناقل الخبر قد فهم ما سمع على نحو غير

سليم ، وإضافة إلى ذلك فقد يـؤدى الجـهل بـالقوانين الطبيعيـة إلى التصديق الأعمى ، وهـذا كثـيراً مـا يـؤدى إلى وقـوع المؤرخـين فـى الخطأ .

ومن هنا يؤكد ابـن خلـدون علـى أن التشـكك يفتـح البـاب لمراجعة الأخبار ، والروايات والتدقيـق فيـها ، ومطابقاتـها علـى طبائع الأشياء وعلى القوانين الطبيعية ، وقوانين العمران ، حتـى يتبين ماقد يشوبها من خطأ أو كذب ، أو عدم دقـة ، أو عـدم فـهم ولعل الحرص علـى تنقيـة التـاريخ مـن الشـوائب ، قـد أدى بـابن خلدون للتوصل إلى علمه الجديد، ذى القوانـين الجديـدة ، والفـهم الجديد ، ألا وهو علم العمران.

(د) التحليل العقلى :

وتلك إحدى القواعد التى أكد عليها ابن خلدون فى كتاباته فهو يرى أن العقل يتحكم فى رفض الروايات والأخبار التاريخيـة أو قبولها، وقد رفـض ابـن خلـدون كثـيراً مـن الروايـات لأنـها لم تستقم مع منطق التحليل العقلى ، فهناك روايـات إذا أمعنـا فيـها النظر والتـأمل العقلـى نجـد أنـه مـن العسـير القبـول بـها أو بمـا احتوت عليه من أخبار وتفاصيل، ومـن السـهل علـى العقـل الـذى تسلح بالمبادئ السابقة أن يتوصل إلى قبَول ماهو ملائم ، ورفض مـا ليس كذلك من الأخبار والسير.

(هـ) التأكد الحسى :

إلى جانب التحليل والتأكد العقلى ، يشير ابن خلدون إلى التحقق بالمشاهدة أو الملاحظة الحسية ، وقد اعتمد ابن خلدون على منهج الملاحظة اعتماداً كبيراً فى الكثير من أعماله ويوصى بقياس الغائب عن الملاحظة بالمشاهد منها .

(و) منطق المقارنة :

لعل المقارنة من بين المناهج الأساسية فى دراسات علم الاجتماع فهى تساعد فى الكشف عن أوجه الشبه والإختلاف ثم الوصول إلى القوانين والمبادئ التى تحكم الظواهر الاجتماعية ، وقد ظهر أثرهذا المنهج فى دراسات ابن خلدون للفروق بين المجتمع أو العمران الحضرى، والبدوى .

(ز) منطق التجريب :

وقد كان التأكيد على التجريب من الإسهامات التى نقلت علم الاجتماع من ميدان الفلسفة الاجتماعية إلى ميدان العلم ، وقد سبق بذلك الإكتشافات والتطورات العلمية بوقت كبير ، فكثيراً مـاأكد على أهمية المران والتدريب لاكتساب المهارات العلمية والصنائع والمعاملات فضلاً ، عن أنه لمس جوانب نفسية كثيرة فى هذا المجال

ولو أننا أضفنا هذه القاعدة المنهجية لقاعدة الملاحظة الحسية لتبين لنا كيف تلمس ابن خلدون الطريق لدعائم أكيدة واضحة للمنهج العلمى فى علم العمران أو الاجتماع ، الأمر الذى مكنه من إستقراء كثير من الشواهد العامة فى المجتمعات الإنسانية هذه وغيرها من القواعد المنهجية نجدها فى ثنايا معالجات ابن خلدون لمسائل علم العمران ، فاهتمامه بالتاريخ حفزه للعمل على ترسيخ قواعد التحليل التاريخى السليم واهتمامه بالظواهر الاجتماعية حفزه للتأكيد على المشاهدة والمقارنة والتجريب ، وفهم الوقائع فى إطارها الزمنى الخاص، بدلاً من فهمها فى ضوء أحداث سبقت وانقضى زمانها .

ثالثاً : موضوع علم العمران عند ابن خلدون :

ذهب ابن خلدون إلى أن موضوع هذا العلم يتمثل فى دراسة الاجتماع الإنسانى وما ينشأ عن هذا الاجتماع من ظواهر ، أو وقائع وقد انقسم الموضوع عنده إلى قسمين رئيسين :

الأول : ويهتم بدراسة بنية المجتمع ، وهو ما يعرف حديثاً باسم المورفولوجيا الاجتماعية ، ويعرف لدى علماء الاجتماع الأمريكيين باسم " الأيكولوجيا الإنسانية " ويدرس هذا القسم ظواهر البدو والحضر ، وأصول المدنيات القديمة وتوزيع الأفراد على المساحة التى يشغلونها ، وظواهر

الهجرة والكثافة والتخلخل ، ودرس فى هذا المجال أثر البيئة الجغرافية على شئون الاجتماع الإنسانى ، ولكنه لم يكن متطرفاً إلى حد القول بالحتمية البيئية أو الجغرافية بل أنه درس آثارها على ما يوجد فى المجتمع من نظم ، وظواهر ، وعادات ، سابقاً بذلك علماء المورفولوجيا والأيكولوجيا على حد سواء فنجده يشير إلى العلاقة القائمة بين درجة الحرارة وبين كثافة السكان وانتشار العمران ، ويقول أن المناطق المعتدلة سكانها أعدل أجساماً ، وألواناً وأخلاقاً ، وأدياناً ويميلون إلى الإعتدال فى سلوكهم ومساكنهم وملابسهم وهو بطبيعة الحال قد توصل إلى هذه الملاحظات باستخدام الاستقراء والملاحظة والمقارنة التى أشرنا إليها من قبل .

أما الثانى : فيهتم بدراسة النظم العمرانية التى تختلف باختلاف النشاط العمرانى ، وهو هنا يقسم هذه النظم إلى سياسية واقتصادية وتربوية وعائلية ودينية ، هذا ولاتزال هذه النظم وغيرها مما أشار إليه ابن خلدون تشكل محاور هامة للبحث والدراسة فى علم الاجتماع .

كذلك فإن التركيز على هذه الموضوعات لابد أن تكون له أغراض محددة ، وهنا يشير ابن خلدون إلى أن أغراض هذا العلم هى الأخرى ذات شقين .

الأول : يتضمن الأغراض المباشرة ، وهى تلك تتمثل فى الوقوف على طبيعة الظواهر الاجتماعية والقوانين التى تحكمها وذلك شأن سائر العلوم الأخرى .

الثانى: ويتضمن الأغراض غير المباشرة ، والتى تتمثل فى عصمة المؤرخين من الوقوع فى الأخطاء وقبول الحقائق التى تتعارض مع القوانين الأساسية للعمران ، وهذه أيضاً أغراض نبيلة فى حد ذاتها ، ولعل المتتبع للتطورات التى حدثت فى علم التاريخ يجد أنها سارت فى هذا الإتجاه .

رابعاً : نتائج الدراسة فى علم العمران :

توصل ابن خلدون فى دراسته لعلم العمران إلى عدد من النتائج من أهمها :

[أ]إن الحياة الاجتماعية وما يعرض فيها من حضارات مادية عقلية تشكل الموضوع الأساسى لعلم الاجتماع ، أو العمران وقد دفعة هذا الفهم إلى الإهتمام بدراسة أعمال الناس وأسلوبهم فى

تحصيل أقواتهم وأسباب تنازعهم ، وما يتوصلون إليه من قوانين يخضعون لها أو يحتكمون لها فى هذا التنازع .

[ب]إن المجتمع أمر ضرورى وطبيعى ، ذلك أن الإنسان مدنى بطبعه ولا يقدر على الحياة بمعزل عن المجتمع ، فالأفراد فى حاجة دائمة للتعاون من أجل اشباع حاجاتهم الدفاعية والاقتصادية .

[جـ] كذلك فإن للسلطة دور بارز فى المحافظة على بقاء المجتمع واستمراراه ويرى أن رد العدوان ، وتحقيق التوازن من أهم أهداف السلطة فى المجتمع .

[د] التطور من أبرز خصائص المجتمعات الإنسانية،وقد أتاحت دراسة التاريخ الإسلامى،وتاريخ الشعوب الشرقية أن يتمكن ابن خلدون من رصد نشأتها وتطورها واضمحلالها، الأمر الذى استخلص منه قانون الأطوار الثلاثة ، طور النشأة والتكوين ، طور النضج والاكتمال، وأخيراً طور الهرم والشيخوخة التى تعقبها الوفاة،ومن ثم . يقوم مجتمع آخر على أنقاض المجتمع الذى اضمحل .

[هـ] هناك فروق بين المجتمع البدوى والحضرى، فالبدوى يقوم على العصبية التى تعتبر هى والفضيلة،والدعوة الدينية عوامل فعالة فى تطور هذا المجتمع،هذا على حين أن الإنفراد

بـالمجد،والركـون للدعـة والإنتفـاع بثمـار الحضـارة هـى مـن خصائص المجتمع الحضرى، وهذه كلها خصائص تساعد علـى دخول الفساد الاقتصادى والروحى وغيرها .

نقد علم العمران عند ابن خلدون :

على الرغم من تطور أفكار عبد الرحمن بن خلدون بمقيـاس عصره إلا أن الأمر لايسلم من توجيه بعض الإنتقـادات لإسـهاماته فى مجال علـم العمـران،وهـذا أمـر طبيعـى فـى مجـال الدراسـات الإنسانية ومـن بين الإنتقادات التى وجهت إليه ما يلى :

أولاً :

ادعى البعض أن فكرة المجتمع لم تكن واضحة لدى ابن خلدون الأمر الذى جعله يرجع الكثير من الظواهر المؤثرة فى المجتمع إلى عوامل بيولوجية ، ومع ذلك فإنه يمكن الرد على هذه الدعاوى بأن الرجل اجتهد لتقريب أفكاره بأمثلة حية استقرأها من رحلاته العديدة ومشاهداته المتنوعة ، ومع هذا فإن الرواد المحدثين لعلم الاجتماع قد عادوا لكثير من هذه الأفكار ورددوها بعده بما يصل إلى خمسة قرون .

ثانياً :

فى مجال السلطة السياسية،يرى البعض أنه قد شغل بها إلى حد كبير،وجعل منها عاملاً أساسياً فى تطور المجتمع الإنسانى، وانتقاله من حالة لأخرى،ولعل ذلك كان مدخلاً لاتهامه بالميل للمحافظة على الأوضاع السائدة ، وتسخير العلم الجديد لهذه المهمة، بدلاً من جعله علماً يسهم فى التغير الاجتماعى .

ثالثاً :

من الإنتقادات التى وجهت لابن خلدون أنه وضع قانوناً ثابتاً للتطور،وهذا القانون شبيه بقوانين الكائنات الحية

فـــى العالـــم الطبيعى،ومن هنا قيل أنه كان حسى النزعـة،ومـع ذلك فإن هناك آخرون يردون على ذلك بـأن الرجـل باعتبـاره عالمـاً مسلماً رأى أن كافة الكائنات الحية تولد وتنشأ وتنضج،ثم تضمحل وتفنى ، وكـان يـدرك أن قـانون الفنـاء أزلى ، وأبـدى ، فنقلـه إلى مجـال العمـران البشـرى متـأثراً فـى ذلـك بمـا أصـاب بعـض الإمبراطوريات السابقة من ظهور فازدهار فـاضمحلال،فضـلاً علـى أنه عاصر بداية انكماش الإمبراطورية الإسلامية، وهذه كلها كـان لابد أن تترك تأثيرها على أفكاره .

رابعاً :

على أن النقد الذى ينطوى على كثير من الصدق يتمثـل فـى أن ابن خلدون لم يحسن استغلال وتطبيـق قواعـده المنهجيـة،فقـد اقتصر استقراؤه علـى الأمـم التـى لاحظـها،وهـى شـعوب العـرب والبربر،خاصة فى شمال أفريقيا،وما كان يسود هذه الدويلات فـى هذا الوقت لايصلح للتعميم أو استخلاص قانون عـام ثـابت ينطبـق على المجتمعات الإنسانية بأسرها،ولعل هـذه الإنتقـادات جميعـاً سواء ما تم تفنيده منها،أو ما وافقنا عليـه، لاتقلـل مـن شـأن هـذا الرائـد العظيـم،كمـا لاتقلـل مـن دوره الرائـد فـى تأسـيس علـم جديـد،ووضعـه علـى الطريـق الصحيـح،كمـا أن الإنتقـادات التـى وجـهت إلى مسلكـه الشخصـى فيمـا يتصـل بعلاقاتـه

بالسلطة،وطموحه السياسى لاتقلل أيضاً من شأنه كمفكر موســوعى تناول جميع جوانب الحياة الإنسانية وظواهرها الاجتماعية .

ففى هذه الناحية كان بشـراً ينطبـق عليـه مـا ينطبـق علـى غيره من سمات الضوء،وسمات الظل معاً ولو أنه كان لابـن خلـدون تلاميذ وأتباع طوروا دراساته وحملوا لواء نظرياتـه مـن بعـده كمـا هـو الحـال فـى الـرواد المحدثـين لكـان لهـذا العلــم شـأن آخــر اليوم،لكن مـا حـدث أن الدراسـات فـى مجالـه عـادت بعـد وفاتـه للصبغة الفلسفية المثالية التى كانت سائدة من قبله،ولم يتغير هذا الوضع إلا بعـد أربعـة قـرون ونصـف تقريبـاً،حينمـا ظـهر العـالم الفرنسى أوجست كونت .

الفصل السادس

علم الاجتماع فى العالم الغربى

محتويات الفصل

أ - فرنسا.

ب- بريطانيا .

جـ- ألمانيا .

د - فى أمريكا .

أ- في فرنسا

كما ذكرنا من قبل كان " ابن خلدون " صاحب فضل كبير في نشأة علم الاجتماع ولكن دراساته قد أهملت لوقت ، وقد ظهرت بعض المدارس الاجتماعية التى تلت " بن خلدون " وسبقت التمهيد لقيام علم الاجتماع في العصر الحديث ، نذكر منها على سبيل المثال دراسات " ميكافيللى " ، ثم ظهرت أيضاً ألوان من التفكير المثالى في القرن السادس عشر والسابع عشر عرف أصحابه بأتباع مدرسة " اليوتوبيا الاجتماعية " الذين اهتموا بما يجب أن يكون عليه المجتمع ، وما يجب أن تكون عليه النظم الاجتماعية ، وكانت أهدافهم عملية لذلك لم يهتموا بشرح وتحليل ما هو كائن في المجتمع ، ومن بينهم " توماس مور " (Thoms More) وهو عالم إنجليزى ، والعالم الإيطالى " كمبانيلا " (Companella) " وفرنسيس بيكون " (F. Bacon) وهو فيلسوف إنجليزى ، والمفكر الفرنسي " فينيلون " (Fenelon) .

وهؤلاء العلماء ذهبوا إلى أفكار لا سبيل إلى تحقيقها ولكنهم رغم ذلك تعرضوا بالنقد الشديد لألوان الظلم الاجتماعى والسياسى السائدة في المجتمع في أوقاتهم.وتدلنا أبحاثهم على أن علم الاجتماع لم يتقدم على

أيديهم ، بل إرتد إلى ما يشبه التفكير الاجتماعى عند اليونان .

ورغم أنهم نادوا ببعض الأفكار الإشتراكية إلا أن هذه الأفكار عادت للظهور بعد ذلك بقرنين من الزمان بصورة علمية صحيحة .ولا يهمنا إستعراض أفكار هؤلاء العلماء وإنما اكتفينا بالإشارة إليهم .

أما المدارس الاجتماعية التى مهدت لظهور علم الاجتماع فى العصر الحديث فهى مدرسة التعاقد الاجتماعى Social Contract ومدرستى فلسفة القانون ، وفلسفة التاريخ وفلسفة الاقتصاد والاحصاء، ومدرسة الإتجاهات الإشتراكية العلمية . ومع ذلك نتناول فى هذا الفصل أعمال كل من " أوجست كومت " A. Commte " واميل دوركيم " E.Durkheim.

أولا : أوجست كومت (١٧٩٨-١٨٥٧) :

ينسب كثير من المؤرخين إلى " أوجست كومت " أنه أول من أقام علم الاجتماع الحديث وقد أعلن هذا العالم فى القرن التاسع عشر ضرورة قيام هذا العلم من جديد بعد أن ظلت بحوث " ابن خلدون " مهملة

لفترة طويلة ، وكان كومت أول من أعاد إحياء الدعوة لقيام هذا العلم . وقد عالج مسائل على درجة كبيرة من الأهمية .

أولا : أهمية علم الاجتماع :

كان كومت يرغب فى اصلاح المجتمع ، وإنقاذه من مظاهر الفوضى التى تفشت فيه وقد ذهب إلى أن الفلسفة هى وسيلة تساعدنا للوصول إلى غايات عملية فى ميادين لابد أن يسبقه تنظيم عقلى للآراء ومنهج للبحث وطرق التفكير . لذلك رأى أن عملية الإصلاح تحتاج لجهود شاقة تنظمها فلسفة جديدة .

وحينما لاحظ المجتمع وما يسوده فى عصره رأى كثيرا من الفوضى العقلية والسياسية والتيارات المتناقضة،لذلك فإن هناك حاجة لوحدة عقلية أو اتفاق عقلى.فهناك الأسلوب العلمى الوضعى الذى صاحب التقدم العلمى والدراسات الكونية والطبيعية والبيولوجية وهناك الأسلوب الميتافيزيقى فى التفكير.وهو ما يتعلق بظواهر الإنسان والمجتمع.

لذلك رأى أن الأسلوب الأمثل للتغلب على هذا التناقض يتمثل فى ثلاثة بدائل هى :-

(١)التوفيق بين التفكيـر الوضعـى : والميتــافيــزيــقى دون تنــاقــض.

(٢)تعميم وحدة المعرفة الوضعية عن طريق تطبيق المنهج الوضعى فـــى دراسة كل ظواهر الكون.

(٣)إخضاع جميع العلوم للمنهج الدينى والفلسفى ، وجعل منه منهجا أساسياً فى كل العقول.

وقد رأى أنه لا سبيل للتوفيق بين التفكيــر الوضعــى والتفكيــر الميتـافيزيقى لأنـهما متناقضـان لأن الأول يقــوم علــى المعرفــة الحســية الملموسة، والآخر على المعرفة العقلية الفلسفية . أما البديل الثـالث وهـو القضاء على الطريقة الوضعية وتكريس فهم الظواهــر فـى ضـوء الطريقـة الدينية والميتافيزيقية ، فهو بديل يحقق لنا وحدة المعرفة ولكن لا يمكن تحقيقه عمليا ، لأننا لا يمكن أن نلغـى المكتشـفات العلميـة التـى قـامت على اساس المعرفة الوضعية ، والإعتماد على هذا الأسلوب يفـرض علينـا إلغاء الطريقة الوضعية وتجميد المعرفة الإنسانية عند حد معين .

ولما كان هذان البديلان يستحيل تنفيذهمـا فإنـه يبقـى ان نجعـل التفكير الوضعى منهجا عاما.ونقضى علـى مظـاهر التفكـير الميتـافيزيقى

فيما عدا ظواهـر المجتمـع،وهـذه يجـب أن نفهمـها علـى وضعـها علـى أساسين:

الأول : أن تكـون هـذه الظواهـر خاضعـة لقوانـين ولا تسـير حسـب المصادفات ، ففهم الظاهرة الاجتماعية على أساس وضعى يعنـى البحث عن القوانين التى تحكمها .

الثانى : أن يستطيع الأفراد الوقوف على هذه القـوانين لكـى يفهمـوا الظواهر وفق قوانينها وأوضاعها .

والشـرط الأول متحقـق بـالفعل فـى الظواهـر الاجتماعيـة ، فالمجتمع جـزء مـن الطبيعـة الكليـة ، وهـذه الطبيعـة تخضـع لقوانـين ثابتة. أما الأساس الثانى وهو معرفـة النـاس لهـذه القوانـين فـهو رهـن بتحقق دراسات علمية فى هذا المجال ، ولن يتحقق ذلـك إلا بقيـام علـم الاجتماع الذى يدرس ظواهر الاجتماع دراسة وضعية تحليلية أو بمعنـى آخر القضاء على الفوضى العقلية والخلقية السائدة ، وعلى هـذا الأسـاس فإن لهذا العلم أهمية تفوق سائر العلـوم الأخـرى ، لأن العلـوم الأخـرى مجرد تمهيد له ، وأن لـه غايـات نبيلـة ، وقـد سمـاه فـى البدايـة علـم الطبيعة الاجـتماعـية أو الفـيزيقا الاجـتماعية ، ثـم عاد وسمـاه عـلم

الاجتماع كما سبق أن أوضحنا .

وقد عرف الظواهر الطبيعية ، والظواهر التى تدرسها العلوم الأخرى ولكنه لم يحدد الظاهرة الاجتماعية أو موضوع دراسة علم الاجتماع لأنه فى نظره كما قلنا يدرس كل الظواهر التى لا تدرسها العلوم الأخرى .

ثانيا : موضوع علم الاجتماع :

قسم " كومت " موضوعات علم الاجتماع إلى قسمين رئيسيين هما :-

الاستاتيكا الاجتماعية : وهى دراسة المجتمعات الإنسانية فى حالة استقرارها وبإعتبارها ثابتة فى فترة معينة من تاريخها ، ويدرس كذلك المجتمع الإنسانى فى تفاصيلة وجزئياته ، لأن المجتمع عنده يتضمن عدة نظم سياسية ، وقضائية وخلقية ، ودينية ، والاستاتيكا تدرس هذه النظم من حيث مكوناتها ووظائفها وذلك للكشف عن القوانين التى تحكم الترابط أو التضامن بينها .

والثانى هو الديناميكا الاجتماعية : وموضوعه دراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلى للمجتمعات ، والكشف عن درجة تقدم الإنسانسة وتطورها ، أى أنه يدرس الاجتماع الإنسانى فى جملته

أيضـا، ولكـن مـن ناحيـة تطـورة ، وإنتقالـه مـن حـال إلى حـال . وعنـد دراسته للديناميكا الاجتماعية إهتدى " كومت" إلى نظريتـين أساسـيتين هما :

نظريته عن قانون الأطوار الثلاثة ، والثانى نظريته فى تقدم الإنسانية.

قانون الأطوار الثلاثة :

يتلخص هذا القانون فى أن التفكير الإنسـانى إنتقـل فـى إدراكـه لفروع الإنسانية من الطور أو الدور الثيولوجـى (الدينـى اللاهوتـى) إلى الدور الميتافيزيقى ، إلى الدور العلمى أو الوضعى . ففى الحالة الأولى كان العقل الإنسانى يفسر الظواهر تفسيراً دينيا عن طريق نسبة الحوادث إلى قـوى خارجـة عـن هـذه الظواهـر نفسـها كالآلهـه والأرواح والشـياطين وغيرها . وفى الحالـة الثانيـة كـان يفسـر الظواهـر بنسـبتها إلى معـانى مجردة ، أو علل أولى لا يقوى على إثباتها ، فالنمو فى النبات مثلا كـان يرجعه إلى روح النبات . أما الفهم العلمى أو الطور الثـالث فـهو تفسـير الظواهر بنسبتها إلى قوانين تحكمها وأسباب مباشرة تؤثر فيـها ، مثـل العوامل الطبيعية ، والطقس والقوانين الكيمائية وغيرها .

ويدل على صدق قانونــه بـالرجوع إلى تـاريخ العلـوم مـن ناحيـة وتاريخ الإنسانية مــن ناحيـة أخـرى . وهـذا يكشـف عـن مـرور عمليـة تفسير الظواهر بالمراحل والأدوار التى ذكرها وذهب إلى أن هــذا القـانون هو قانون عام للتطور الاجتماعى ، وليس خاصا بتطور التفكير فحسـب، فأساس كل معرفة هو التفكير ، وبالتالى فإن قانونه ينسحب إلى كـافــة مجالات المعرفة الإنسانية .

(أ) نظرية التقدم :

تعنى كلمة تقدم عند " كومــت " السـير الاجتمـاعى نحـو هـدف معـين لا يمكـن الوصـول إليـه إلا بعـد المـرور بــأدوار ثلاثــة ضروريــة ومحددة، أى أن الحركة الاجتماعيــة لابـد أن تكـون محـددة بقوانـين ، وكان هذا الفهم جديداً بالنسبة لمن سبقوه ممن فهموا الحركة الاجتماعية بإعتبارها ذبذبات أو إضطرابات ولذلك كان يسـخر فـى هـذه الناحيـة ، والتقدم عنده يبدو فــى مظهريـــن : مــادى ، واجتماعــى، وغالبـاً مـا يكون الأول أسرع ، وأوضح .

الأول يكون تحسنا فى حالتنا الاجتماعيــة ، أمـا الثـانى فيكـون تحسنا فى طبيعتنا الاجتماعية والتطور كما يراه غالباً ما يكون مصحوبـاً

بتحسن وتقدم مطرد ، ولكنه فى إتجاهه نحو الكمال يكون بطيئاً وتتخلله صعاب وعقبات كثيرة . وتدخل النشاط قد يعجل بالحركة نحو التقدم ، لأنه يعجل بظهور مراحل لم تكن لتظهر لولا تدخل النشاط الإنسانى أو نشاط الحكومة بإعتبارها تمثل المجتمع .

وفى مجال دراسته عن الاستاتيكا الاجتماعية توصل إلى مجموعة حقائق منها أن الإنسان يميل إلى الاجتماع ميلا غريزيا وحالة الاجتماع هى الحالة الطبيعية للإنسان ، وهذه الرغبة الغريزية مستقلة تماماً عن الرغبات الفردية ، والأغراض الخاصة ، ومن هنا هاجم نظرية العقد الاجتماعى بإعتبارها تصور الإنسان يميل للاجتماع عن قصد وروية ولكنه يرى أن التعاقد ليس سبباً فى الاجتماع ولكنه نتيجة من نتائجة، وثمره من ثماره .

وقد توصل " كومت" إلى أن العناصر الأساسية للمجتمع هى الفرد، والأسرة ، والدولة ، ومع ذلك فالفرد فى ذاته ليس قوة اجتماعية مستقلة ، لأن قوته تستمد من تضامنه وتعاونه مع أقرانه ، ولكنها تزول إذا بقى وحيداً منعزلاً عن غيره . كذلك فإن قوة الفرد لا تظهر إلا بتفاعلها مع غيرها ، وهى وليدة الضمير الجمعى ، وإمتزاج العقول فى

الفكر والعمل ، والأسرة هى الخلية الأولى فـى تركيـب المجتمـع ، وهـى نتاج من نتائج الحياة الاجتماعية ، وقد أيد " كومت" مبدأ خضوع المـرأة للرجل ، وكذلك قرر سموها عن الرجل فى النواحى العاطفية والوجدانية الضرورية للإستقرار فى حيـاة الأسـرة . وقـد أكـد علـى دور الـزواج فـى الحياة الاجتماعية . وأن ما يهدم الزواج ، يهدد النظام الطبيعى للأسـرة ومـن هنـا فإنـه يعـارض فكـرة الطـلاق لأنـها تـؤدى إلى الاخـلال بنظـام الحياة، الأسرية وحياة المجتمع والأسرة عنده اتحاد له طبيعة أخلاقية تتمثل فى التحاب والتعاطف ، والتوعية بالحقوق والواجبات ، وتربيـة الأطفال وغرس الروح الدينية.

ومن دراسة الأسرة تطرق " كومـت" إلى دراسـة المجتمـع ككـل ، فهو كيان معقد يسوده التضامن والتعاون وهو تجمـع ذو طبيعـة عقليـة ، وله وظيفـة أخلاقيـة تابعـة لوظيفتـه العقليـة ولاحقـة لهـا . والتضـامن الاجتماعى لا يتحقق فى رأيه إلا إذا إهتم المجتمع بثلاثة نظم اجتماعية أساسية هم نظام التربية والتعليم ، ونظام الأسرة ، والنظام السياسى فى الدولة .

فيرى أن التعليـم يجـب أن يبتعـد عـن الدراسـات النظريـة

المجردة، بل يتجه للدراسات العلمية الوضعية عن طريق التعـرف علـى حقائق العلوم الوضعية ، بعيداً عن الجمـود النظرى ويؤهـل الأفـراد لما يتطلبه المجتمع من وظائف جديـدة . وإصلاح نظـام الأسـرة يقـوم علـى أساس نظـم الأسـرة المسيحية خاصـة النظـم الكاثوليكيـة ، ويؤكـد علـى وظيفة الأسرة الأخلاقية والتربوية . وإصلاح الدولة أمر صعب من وجهه نظره، لأن الحكومة هى أولى الوظائف الاجتماعية ، وتعكس مدى تقـدم المجتمع ، وهذا التقدم يعتمد على نظام هـذه الهيئـة ، وانقيـاد الأفـراد لها ، ومـدى سلطتها عليـهم ، ووظيفـة الحكومـة يجـب أن تقـوم علـى تحقيق مبدأ التضامن والتعاون فى المجتمع .

ودرس "كومـت" الظواهــر الاقتصاديــة ، وانتقــد جميـــع النظريــات الاقتصاديـة السـائدة فـى عصـره فقـد عـارض آراء مدرسـة الفيزيوقراط الذين يذهبون إلى ضرورة إشاعة الحرية الاقتصاديــة ونـادى بضرورة التدخل من جانب الحكومة لإقامة توازن بين أهداف الفـرد بمـا يجب أن تكـون عليـه المعـاملات الاجتماعيـة . كمـا هـاجم الاشـتراكيين والشيوعيين واعترف بأنهم توصلوا لبعض الحقائق بوجوب تدخل الدولة فى العلاقات الاقتصادية وتنظيم والإشراف على وسائل الإنتـاج ، ولكنـه

إختاف معهم فى دعوتهم لإلغاء الملكية الفردية ، والقضاء على جهود الأفراد الخاصة، فالملكية عنده ظاهرة اجتماعية ، والقضاء عليها خروج على نظم المجتمع ، والغاء لشخصية الفرد وتضييق لدائرة نشاطه .

وقد أدى إهتمام "كومت" بالناحية الأخلاقية إلى أن دعى إلى قيام علم وضعى هو علم الأخلاق بهدف الكشف عن القوانين الأخلاقية، لأن لهذا أهمية اجتماعية كبيرة من حيث أنه يتيح لنا اختيار أحسن الوسائل التى تساعدنا على تغيير الظواهر وتكييفها للظروف الاجتماعية . وعلم الأخلاق الوضعى لايمكن أن يقوم إلا بقيام علم الاجتماع أولا ، لأن علم الاجتماع يمد هذا العلم الجديد بالمبادئ العامة، ومناهج البحث والموضوعات الأساسية التى يجب أن يعالجها.

هذا وقد درس "كومت" الجوانب الدينية فى المجتمع ، فالمجتمع فى حاجة إلى مجموعة من العقائد المنظمة التى يتفق عليها الأفراد جميعاً ويتأتى هذا الدين عن طريق الغاء الديانات الأخرى ، وصهرها فى دين واحد جديد ، وهذا ما جعله يذهب إلى تقرير دين جديد هو " الدين الوضعى " الذى يدور حول عبادة الإنسانية كفكرة ، تحل عنده محل فكرة " الله " فى الديانات الأخرى . ورسم لهذه الديانة

طقوساً دعى كل الأفراد للإتجاه إليها بالعبادة والتقديس . ووظيفة هذه الديانه عنده تتمثل فى تحقيق وحدة دينية عالمية لأن الأفراد سوف يتجهون بقلوبهم وعقولهم نحو فكرة واحدة ، ومركز واحد فتبطل الشرور والآثام وتنتهى المنازعات والحروب ويعم السلام والتحاب .

ثالثا : إسهامات "أوجست كومت" :

كانت لكومت مكانة بارزة بين علماء عصره لما تركه من ثروة فلسفية وإنتاج خصب ، وبفضل ما تركه من تجديد من مناهج البحث، وكذلك فلقد فتح آفاقا جديدة للدراسة فى هذا العلم ، وقد لخص لنا أهم إسهاماته فى كتابه " دروس فى الفلسفة الوضعية " منها :-

(١)أنه كان أول من كشف عن مبدأ الوحدة العقلية الذى لم يكتشفه أحد من قبله . فقد لجأ الناس من قبل إلى تفسير الظواهر بفعل الشياطين والآلهه وغيرها . كذلك توصل " كومت" فى الناحية الأخلاقية إلى وجوب إتفاق العقول على المشاكل النظرية التى تتعلق بعلاقات الأفراد ببعضهم وعلاقاتهم بالإنسانية . واتفاق العقول هنا يشكل أساساً لوضع تربية مشتركة يساهم فيها كل أفراد المجتمع .

(٢)دعى إلى هدم النظام السياسى السائد خاصة فى المجتمع الفرنسى، وإحلال نظام ثابت محله يحقق فكرتى التقدم والنظام ، فهاتان الفكرتان مرتبطتان أشد الإرتباط .

(٣)فى الناحية الجمالية دعى إلى قيام فن جديد على غرار فن إحياء القديم ، أو فن العصور الوسطى ، ولكن يختلف فى إرتباطه بالعقائد والأفكار القائمة مع حياة المجتمع الوضعى ونظمه ومبادئه .

(٤)ذهب إلى أن كل النظم الاجتماعية السياسى منها والأخلاقى، والاقتصادى تعتمد على الوحدة العقلية القائمة على أساس الفلسفة الوضعية بالذات ، لأن الفلسفة الوضعية هى التى تبرر هذه الوحدة العقلية.

(٥)من النقاط الجديرة بالتقدير عند " كومت" هى نقطة تطبيق منهج البحث الوصفى على الظواهر الاجتماعية ، وتحقيق وحدة المعرفة الوضعية.

(٦)كان له تاثير كبير فى إحلال الفلسفة الوضعية محل الفلسفة المتيافيزيقية وكان لهذا الاحلال أثر واضح فى تكييف النظريات الفلسفية وتغيير مصطلحاتها من الأسلوب الميتافيزيقى إلى الأسلوب

الوضعي .

رابعاً: أهم الانتقادات الموجه إلى " كومت ":

(١)أشار "كومت" بوضوح إلى قواعد منهجية ذات قيمة علمية ولكنه لم يلتزم بهذه القواعد فى دراسة موضوعات العلم . ولكنه إتجه إتجاهات أخرى حيث وصل إلى قوانين فلسفية شخصية بدلا من أن يستخلص قوانين مستخلصة من طبيعة الأشياء .

(٢)أقام "كومت" منهجه على أساس صدق قانون الأطوار الثلاثة ، مع أن هناك انتقادات هامة يمكن أن توجه إلى هذا القانون ، فقد أقامه على أساس أن الإنسانية كل لا يتجزأ ، مع أن ما نلاحظه هو أن هناك مجتمعات جزئية مختلفة . وقد تحدث عن الإنسانية ككل ، ولكن من الملاحظ أن هناك مجتمعات إنسانية ، ويختلف كل مجتمع عن المراحل التى يمر بها غيره ، مما يصعب معه القول بأن الإنسانية تسير على وتيرة واحده .

(٣)أرجع "كومت" تطور الظواهر الاجتماعية إلى التفكير ، مع أن المجتمعات فى تطورها تشهد كثيراً من العوامل التى تتفاعل آثارها

وتحدد نتائجها ، كمـا أن التطور فـى التفكـير ليـس إلا مظـهراً مـن مظاهر تطور المجتمع ، ولا يعتبر هو نفسه سببا لهذا التطور .

(٤)كان "كومت" بعيداً عن الاجتماع الدينى فى تقريره الدين الوضعـــى الجديد فالإتجاه بالعبادة والتقديس إلى طائفة من بنى الإنسـان تعتـبر فكرة غريبة ، لا يقبلها أحد مع " كومت" فقـد أشـار "كومـت" إلى أن الدين الوضعى عنده ينتهى فى آخر تحليلاته إلى إحياء ذكرى الرجال العظمـاء ، والفلاسـفة الذيـن أدوا أعمـالاً جليلـة ، وخدمـات عظيمـة للجنس الإنسانى .

(٥)سلم "كومت" بـأن مظـاهر الحيـاة الاجتماعيـة تتضـامن مـع بعضـها البعض (وذلك فى حديثة عن الاستاتيكا الاجتماعيـة) ولكـن هـذا لا يستقيم مـع مـا نشـاهده فـى كـل مجتمـع مـن قيـام تيـارات نقديـة ، واتجاهات ترمى إلى تقويض النظم الموجودة ، وكذلك مـا نشـاهده مـن نظريات متناقضه .

وفى نهاية هذه الانتقادات يمكن الوصول أو القول بأن فضل "ابن خلدون" فى إنشاء علم الاجتمـاع يفـوق فضـل "أوجسـت كومـت" بدرجـة واضحة ، فعدم إلتزام "بن خلدون" بالمنهج مثله مثل "كومت" إلا أن عدم إلـتزام "بـن خلـدون" كـان شـكليا ، بينمـا عـدم إلـتزام "كومـت" كـان

جوهري، كما أن تقسيم "بن خلدون" لفروع علم الاجتماع كان قريباً جداً من التقسيم الحديث ، بينما تقسيم "كومت" موضوع علم الاجتماع إلى استاتيكا وديناميكا كان تقسيما مخالفا لطبيعة الظواهر ، لأن مكونات هذه الظواهر ووظائفها يؤثران في تطورها إلى حد بعيد . هذا فضلاً عن أن "بن خلدون" كان واقعياً في الأسباب التي ذكرها عن إقامته لعلم الاجتماع ، وهي تخليص التاريخ والمنهج التاريخي من شوائبه ، بينما كانت الأسباب التي ذكرها "كومت" خيالية ، وفلسفية، وفهم شخصي لتطور الفكر الإنساني ، وكل هذا يرجح كفة " بن خلدون" وفضله في قيام علم الاجتماع.

ثانيا : إميل دوركيم ، (١٨٥٨ - ١٩١٧) :

إحتل العالم الفرنسي " إميل دوركيم " مكانة بارزة في تاريخ علم الاجتماع ، ذلك أن بحوثه العلمية تمثل نشأة علم الاجتماع في العصر الحديث وهو رائد المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع ، وقد ترك ثروة علمية هائلة ، فضلا عن تلاميذ وأتباع أسهموا في دعم وإرساء الدراسات الاجتماعية على أسس قوية .

ولقد اهتم بالدراسات الاجتماعية منذ بداية حياته ، فعمل مدرسا ثم أستاذا جامعيا في فرنسا . وله بحوث ومؤلفات كثيرة منها

تقسيم العمل الاجتماعى وقواعد المنهج الاجتماعى " والانتحار " و " الأشكال الأولية للحياة الدينية " وهذا فضلا عن المقالات التى نشرها فى المجلة التى أنشأها وهى " التقويم الاجتماعى " ، وكذلك المؤلفات التى نشرها أتباعه بعد وفاته . وعلى هذا فإن الأعمال العلمية لـ دوركيم ، كثيرة ولا يمكن الحديث عنها فى مجال ضيق كهذا ، ومن هنا فإننا سوف نختار بعض الجوانب التى أسهم بها فى مجال علم الاجتماع ودراساته .

أولا : الظاهرة الاجتماعية :

كما أشرنا من قبل فإن التعمق فى طبيعة الظاهرة الاجتماعية يعتبر على قدر كبير من الأهمية ، وقد إهتم بها "دوركيم" فى محاولة منه لإرساء دعائم إستقلال علم الاجتماع ويرد على ما أثير حول هذا الإستقلال من معارضات .

وهذا الموضوع لم يحظ بالإهتمام الواجب من قبل ، فلم يعرف "بن خلدون" الظاهرة الاجتماعية تعريفا دقيقا ، وأوجست كومت لم يجعلها موضوعا لعلم الاجتماع بل جعل موضوعه الظواهر التى لم تدرسها العلوم

الأخرى ، كذلك فإن "سبنسر" إتجه فى تفسير الظاهرة الاجتماعية إلى مماثلات بيولوجية أوقعته فى كثير من الأخطاء .

وأيضا فقد فسر " تارد" الظاهرة الاجتماعية تفسيرا سيكولوجيا وبذلك كاد يقضى على شخصية علم الاجتماع . وترتيبا على ذلك فقد حاول "دوركيم" القضاء على هذه الإتجاهات ، وخصص لهذا الموضوع جزءا كبيرا من كتابه " قواعد المنهج ".

يقول "دوركيم" إن الأفراد يسيرون فى مختلف شئون حياتهم على أساليب وقواعد يلتزمون بها ، ففى الحياة الدينية يتفقون على قواعد تنظيم طقوسهم وشعائرهم ومقدساتهم وفى حياتهم الأسرية يلتزمون بقواعد خاصة بالزواج والطلاق ، والقرابة والمصاهرة ، والحقوق والواجبات فى داخل الأسرة ، وفى الجوانب الاقتصادية يسيرون على نظام معين فى طرق التبادل ، والإنتاج وما يرتبط بهما ، ولا يخرج أحد عن هذه الإلتزامات وفى حالة الخروج عنها فإنه يواجه بعقاب صارم . كذلك الحال فى النواحى السياسية ، والأخلاقية ، والقضائية، واللغوية ، والتربوية ، والفنية وكل هذه الأساليب والقواعد التى يسير عليها الأفراد ويلتزمون بها فى كل شئونهم ، تسمى" الظواهر الاجتماعية "

وحتى فى الجوانب التى لا توجد فيها ظواهر اجتماعية، فإن التيارات والإتجاهات التى تنشأ من تفاعل الأفراد واحتكاكهم تعتبر ظواهر اجتماعية فلا يمكن للأفراد أن يخرجوا عما تفرضه من حدود والتزامات . وحتى فى الجوانب المورفولوجية نجد أن حركة السكان وقيام المدن ، ونشأتها ، واختيار مواقعها وتوزيع الأفراد ، والكثافة والتخلخل والهجرة ، كلها تسير وفقاً لنظم وقواعد خاصة، وهى تسمى الظواهر والأوضاع الاجتماعية المورفولوجية .

ولهذه الظواهر صفات خاصة تميزها عما عداها ، وعليها يتحدد موضوع علم الاجتماع .

(١) فالظواهر الاجتماعية إنسانية ، حيث يتميز بها المجتمع الإنسانى عن الحيوانى ، فهذه الظواهر تختلف من مجتمع لآخر وفى نفس المجتمع الواحد من حقبة لأخرى ، وفى تغيرها تخضع لظروف البيئة الجغرافية ، والاجتماعية ، وتتناقلها الأجيال المختلفة ، فهى إذن سمات مكتسبة أى يكتسبها الفرد من الحياة الاجتماعية وليست فطرية أو وراثية ، أما الإستجابات التى تبديها الحيوانات فى مجتمع حيوانى فهى إستجابات وراثية ولا تكتسب من الوسط

الذى تعيش فيه ، لذلك فإن هذه الظواهر لا تختلف من مكان لآخر أو من زمن لآخر . ولذلك فالظواهر الاجتماعيـة لهـا قوانـين شـأنها فـى ذلك شأن ظواهر العلوم الأخرى ، ودراستها تشكل موضوع علم مستقل هو علم الاجتماع .وهكذا فالظاهرة الاجتماعية إنسانية .

(٢) كذلك فالظواهر الاجتماعية عامة General بمعنى أنها تلاحظ فـى معظم أجزاء المجتمع ، وهى تحدث وتتكرر وفقاً لقوانيـن عامـة ، ويمكن إحصائها وقياسها ومقارنتها .

(٣) والظاهرة الاجتماعية إلزامية وجبرية بمعنى أن الفرد يشـعر بأنـه مجبر على الإلتزام بها ، وإن كـان الفـرد لا يلمـس هـذا الشـعور فـى معظم الحالات ، فما ذلك إلا لكونه تعـود عليـها ، وأصبحـت عاديـة بالنسبة إليه وكثيراً ما يشعر الفرد بأنها محببـة إليـه لكـثرة تعـوده عليها . والجبر والإلزام هنا هو جبر وإلزام أخلاقى أو معنوى ويطلـق عليه بعض العلماء الضغط الاجتماعى Social Pressrure .

(٤) وأيضـاً فالظـاهرة الاجتماعيـة ظـاهرة تاريخيـة توجـد فـى فـترة تاريخية من حياة المجتمع ،فهى تعتبر سلسـلة ذات بدايـة ونهايـة وتتوالى فى أطوار متتابعة من تـاريخ المجتمـع وهـى تتضمـن تاريخـا

طويلا وعادات وتقاليد . ونـوع الملابس وشكلها يخفى وراءه تطوراً تاريخيا مليئا بالعادات والتقاليد التى أدت إلى سيادة هذا الشكل أو ذاك . ومعنى هذا أن الظواهر الاجتماعية تتصف بالتطور والتغير المستمر بشكل يتفاوت فى سرعته .

(٥)الظاهرة الاجتماعية شيئية Choses لها صفة الخارجية ، أى أن الظاهرة الاجتماعية موجودة فى المجتمع خارج شعور الفرد كحقيقة موضوعية دائمة وهى تنتقل من جيل لجيل وثابتة لا تتغير إلا فى حدود ضيقة ، وهى سابقة على الوجود الفردى ، لأن الأفراد يولدون ويخضعون منذ البداية لنظم وظواهر اجتماعية سابقة على وجودهم فى الحياة .

(٦) الظاهرة الاجتماعية ليست من وضع الفرد أو مجموعة أفراد ولكنها من صنع المجتمع ومن خلقه ، وتظهر فيه فى صورة تلقائية بفعل العقل الجمعى . ومن هذه النقطة يتطرق "دوركيم" إلى القول بثلاث طبائع مختلفة للإنسان يجب ألا تختلط ببعضها البعض لأن كلا منها يعبر عن ناحية تلقائية فى الإنسان ، ولكل طبيعة علم خاص بها ،

فالطبيعة النفسية يدرسها علم النفس ، والطبيعة الحيوية يدرسها علم الحياة ، والطبيعة الاجتماعية يدرسها علم الاجتماع .

(٧) ويؤكد "دوركيم" كثيراً على صفة القهر والإلزام فى الظاهرة الاجتماعية ، لأن هذه الصفة هى التى تؤكد موضوعيتها وهى بذلك تشبه الظواهر الأخرى التى تدرسها علوم غير علم الاجتماع . فهذه الصفة تجعل الظاهرة الاجتماعية عملية عامة .

(٨) وبعد أن ينتهى "دوركيم" من الإشارة إلى خواص الظاهرة الاجتماعية يعرفها بأنها عبارة عن نوع من السلوك العام والإتجاهات والأساليب والأوضاع التى يصب فيها الإنسان تفكيره وأعماله ، وهى ليست من صنع الفرد أو مجموعة أفراد ، ولكنها من صنع المجتمع وهى عامة ولها كيان خاص مستقل عن الصور التى تتشكل بها فى الحالات الفردية ،وتتميز بقوة ملزمة جبرية .

(٩) ومن منطلق تحديد الظاهرة الاجتماعية وتعريفها ، وذكر خواصها تمكن "دوركيم" أن يقيم دعائم علم الاجتماع ، ويدلل على استقلاله وموضوعيته .

ثانيا : فروع علم الاجتماع وأقسامه :

أخذ ميدان علم الاجتماع فى الإتساع والتشعب بعد أن غلب الإتجاه العلمى على دراسة ظواهر الاجتماع ، ولهذا فإن كل مجموعة من الظواهر تتصل بناحية من نواحى المجتمع أخذت فى الإستقلال النسبى، واتخاذ صفة العلم الجزئى ، حتى أصبح أمامنا الآن علم الاجتماع العام من ناحية ، والعلوم أو الفروع الاجتماعية الخاصة التى ينطوى عليها من ناحية أخرى . وكانت وجهة نظر "دوركيم" تتمثل فى أن تقسيم وتبويب هذه الفروع لا يزال أمرا سابقا لأوانه لأنه لايزال هناك نموا مطردا فى نواحى النشاط الاجتماعى ، ولكنه مع ذلك يشرح الدعائم التى يجب أن يقوم عليها هذا التقسيم .

(أ)المورفولوجيا الاجتماعية :

فالإنسان يعيش فى بيئة جغرافية . تتضمن أراضى ومصادر للثروات ، وتختلف المجتمعات من حيث عدد السكان وكثافتهم والبيئة والمناخ والتضاريس كلها أمور تؤثر على وجود السكان وتوزيعهم، وكثافتهم .وهذه الناحية الخارجية يجب أن تكون موضوعا لعلم اجتماعى يدرسها ويحللها،ويطلق "دوركيم" على هذا العلم المورفولوجيا

الاجتماعية أو علم البنية والتركيب الاجتماعى . وهذا العلم يجب ألا يقتصر على الوصف ، بل إن عليه أن يدرس ويحلل ، ويستنبط الأسباب العميقة التى تكمن فى طبيعة الحياة الاجتماعية ، فيدرس مثلا أسباب تكاثف السكان فى جهات أو مناطق دون أخرى . وأسباب الهجرة من الريف إلى المدن والعكس ، وعوامل تطور المدن وتدهورها فكأن موضوع هذا العلم هو الدراسة الجغرافية للبيئة وسكانها وعلاقة ذلك بالتنظيم الاجتماعى من ناحية ، ودراسة السكان من حيث التخلخل والتوزيع على المساحة وما يتصل بذلك .

(ب)أما القسم الثانى ، فهو علم الوظائف الاجتماعية :

Social physiology وهو علم يشتمل على عدة علوم خاصة وذلك لتعدد الظواهر الاجتماعية التى يتضمنها وهذه العلوم الخاصة هى :-

علم الاجتماع الدينى : Religious Sociology

فالدين هو أهم الظواهر الاجتماعية ، وأقوى دعائمها ، ويؤثر على مختلف أوجه النشاط الاجتماعى ، فالعقائد والطقوس والعبادات تفرض نفسها على المجتمع ، وتجعل من أفرادة وحدة حية متماسكة .

علم الاجتماع الأخلاقى : Moral Sociology

والظواهر الأخلاقية هى الأخرى ذات أهمية فى المجتمع، فهى مجموعة من الأحكام والعادات والتقاليد التى يخضع لها الأفراد فى تعاملهم،والأخلاق التى يقصدها "دوركيم" هنا ، هى الظواهر التى يمكن دراستها دراسة علمية قائمة على الملاحظة والتحليل التاريخى المقارن، وليست الأخلاق النظرية القائمة على فروض فلسفية متعلقة بالخير والشر واللذة والألم،الفضيلة والرذيلة والحسن والقبح،كما فعل فلاسفة اليونان.

علم الاجتماع القضائى : Juridical Sociology

وهو يدرس ناحية هامة من نواحى الحياة الاجتماعية وهى الناحية التشريعية والقضائية ، والاجتماع القضائى يرتبط بالاجتماع الأخلاقى ، لأن الأفكار الأخلاقية هى روح القانون ودعامته وقوة القانون تأتى من المثل الأخلاقية التى يجسدها ، والتى توجد فى المجتمع .

علم الاجتماع الاقتصادى Economic Sociology

وهو يدرس الظواهر المتعلقة بإنتاج الثروات وتبادلها ، وتوزيعها،واستهلاكها ، والآثار الاجتماعية التى تحدثها .

علم الاجتماع اللغوى : Linguistique Sociology

ويدرس الظواهر اللغوية دراسة وصفية تحليلية ، لأن اللغة حقيقة اجتماعية ، فهى ظاهرة اجتماعية ومظهر حياة الجماعة ومن أهم ما يميز المجتمعات الإنسانية عن غيرها .

علم الاجتماع الجمالى : Aesthetic Sociology

وهو يمثل الناحية الجمالية فى المجتمع ، ويحدد معايير أذواق الأفراد وفنونهم من شعر ، ونثر وخطابه ، ونحت ، فهذه الأمور تعتبر مظهرا من مظاهر إنتاج الجماعة . وتعبر عن مثل عليا تنشدها هذه الجماعة .

(ج)والقسم الثالث : عند "دوركيم"

هو علم الاجتماع العام General Sociology وهو يعبر عن فلسفة العلم العامة ، فكما إتضح من القسم الثانى نجد أن مجال العلم قد اتسع ، وتفرع إلى فروع عديدة ، ولا يعنى هذا التنوع أنه لا توجد صلة

بين هذه الفروع ، ولكنها كلها تحصل على مادتها من مجال واحد ، هو المجتمع ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى علم تركيبى يدمج النتائج والقوانين التى تتوصل إليها هذه العلوم الفرعية ، وهذه الأمور العامة المشتركة تشكل موضوع علم الاجتماع العام ، وهذا العلم هو الذى يربط بين القسمين السابقين "المورفولوجيا - والوظائف الاجتماعية"، والشروط العلمية للوصول إلى القانون الاجتماعى ، وتبرز الحاجة إلى ظهور فروع جديدة تدرس ميادين جديدة فى الحياة الاجتماعية.

ثالثا : منهج البحث العلمى فى علم الاجتماع :

علم الاجتماع اذن هو العلم الذى يدرس الظواهر الاجتماعية دراسة موضوعية علمية وصفية تحليلية . ولكى يحقق العلم هذه الغاية فلا بد أن يستعين بمنهج علمى يساعده على الوصول إلى قوانين الظواهر الاجتماعية . وهنا كانت لـ "دوركيم" إسهامات عديدة تتمثل فى تحديد الشروط الضرورية التى يجب أن يلتزم بها البحث للوصول إلى نتائج صادقة وقد عالج هذه المسائل فى كتابه "قواعد المنهج الأخلاقى" وفى بحث بعنوان "علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية" وفى كتاب

"الانتحار". ومن أهم القواعد المنهجية التى توصل إليها "دوركيم" ما يلى:

(١)يجب دراسة الظواهر الاجتماعية بإعتبارها أشياء بمعنى أنها تعالج كما تعالج الظواهر الوضعية الأخرى ، وفى هذه الحالة ينظر إليها الباحث بإعتبارها أشياء خارجه عن شعوره الداخلى ، وعلى هذا تتحقق موضوعية الظاهرة وشخصيتها العلمية .

(٢)على الباحث أن يتجرد من كل فكرة سابقة يعرفها عن الظاهرة موضوع الدراسة حتى لا يقع أسيراً لأفكارة الشخصية المسبقة ، كذلك فإن على الباحث أن يتجرد من بعض الأفكار الموروثة عن ظواهر الطبيعة لأن هذه الأفكار تكونت دون منهج معين .

(٣)على الباحث أن يبدأ بتعريف للظاهرة أو الظواهر التى يتخذها موضوعا لدراسته وهكذا فالتعريف هام بالنسبة للظواهر التى يسعى لتفسيرها ، فهو عن هذا الطريق يستطيع تصنيف الظواهر على أساس خواصها العامة ، وعناصرها الأساسية .

(٤)يجب على الباحث بذل الجهد فى ملاحظة الظواهر فى حالة استقلالها عن صورها الفردية ، لأن تجريد الظاهرة من الحالات

لفردية هو الذى يكفل موضوعية البحث . فلو كان الباحث يناصر مذهبا معينا فإن عليه أن يتجرد من هذه الحالة الفردية ، ويدرس ما يقابل هذا المذهب دراسة موضوعية . أما الخطوات التى يتعين على الباحث إتباعها فهى :

١- دراسة نشأة الظاهرة وعناصرها المكونة .

٢- دراسة الظاهرة والوقوف على مختلف أشكالها،وربط الماضى بالحاضر.

٣- دراسة العلاقة بين الظاهرة وغيرها من الظواهر المشابهة لها،والمختلفة عنها .

٤-إستخدام منهج المقارنات فى دراسة الظواهر .

٥- الكشف عن وظيفة الظاهرة الاجتماعية ، والعوامل التى خضعت لها فى تطورها .

وهكذا نجد "دوركيم" يؤكد على إستخدام علم التاريخ ولكن يشير إلى عدم حصر هذا الإستخدام فى إطار حقبة معينة أو عصر معين ولكن يوسع إطار البحث التاريخى عن طريق المقارنة .

وفضلاً عن كل ذلك فإن هناك أهمية لأسـلوب آخـر هـو الأسـلوب الإحصائى، فالحقائق الصادقة تتمثل فى معالجة الظواهر ، مثل حـالات الزواج ، والطـلاق ، والقتـل ، والإنتحـار ، وغيرهـا معالجـة إحصائيـة رقمية .

رابعاً : أهم نظرياته :

توصل "دوركيم" إلى عدد كبير من النظريات سوف نختار أهمـها لعرضه بشكل موجز :

(ب) طبيعة وأشكال المجتمعات :

تنشأ الحياة الاجتماعية بصورة طبيعية ، وبشكل مغـاير لطبـائع الأفراد ، ويعترض "دوركيم" على أصحاب نظرية التعـاقد الذيـن جعلـوا من نشأة المجتمـع نشـأة صناعيـة عـن إرادة وقصـد ، كمـا يعـترض علـى البيولوجيـين ، والنفسـيين فيمـا ذهبـوا إليـه مـن تفسـيرات للطبيعـة الاجتماعية ، ووضع "دوركيم" دعائم المجتمعات فذهـب إلى أن التقسـيم يجب أن يقوم على درجـة التركيب ، بمعنـى أن يكـون أبسـط الأشـكال الاجتماعية هو أول درجة فـى التصنيـف ، ثـم نلاحـظ درجـة الإندمـاج

التى تتحقق بين الهيئات والعناصر الأولية الداخلة فى تركيب المجتمع. وهو بذلك يقيم التقسيم على مبدأين : التركيب المورفولوجى،وتوزيع الوظائف ، وعلى هذا يرى أن هناك نوعين من المجتمعات :

الأول : مجتمعات محدودة النطاق بسيطة غير معقدة التركيب، فليست فيها هيئات متخصصة ولكن المجتمع ككل يقوم بالوظائف ككل.

والثانى: هو المجتمعات واسعة النطاق التى يكون التركيب فيها معقدا، والوظائف متميزة ، وتخضع لمبدأ توزيع العمل ، ويطلق "دوركيم" على هذه المجتمعات " المجتمعات التاريخية " ويضرب مثلا عليها وهو المدينة ، كالمدن اليونانية والرومانية ، كذلك الامبراطوريات القديمة كالرومانية . وفى هذه المجتمعات يزداد التخصص ، وتغلب عليها سلطة القانون وقوة التعاقدات والمعاملات القانونية .

(ب) نظريته فى الدين :

تقوم نظريته فى الدين على أساس تقسيم الظواهر الدينية إلى قسمين :

الأول : مقدس ، أو قدسى Sacred وهو ما يتصل بالعقائد .

الثانى : علمانى Cosmopolitan وهو ما يتعلـق بـالطقوس والعبـادات وما يتصل بها .

والقسم الأول : تدخل فيــه الآلهـة ، والكائنـات الروحيـة ، والنصـوص الدينية ، والأحجار المقدسة والرقى والتمائم ، فهذه الأمور تختلف عند الإنسان عن الأمور العلمانية ، لأنها فى نظر أعضاء المجتمع من طبيعــة تختلف عن طبيعة الأشياء الدنيوية .

و القسم الثانى : عبارة عن الأعمال والطقوس التى تنظـم سـلوك الإنسـان نحو القسم الأول أو القدسى ،ويدخل فى القسم الثـانى الصـلاة والصـوم، والحج ، والدعاء ، والزكاة .

وينتهى "دوركيم" من هذا التقسيم إلى القول بأن " الدين " عبـارة عن مجموعة متماسكة من العقائد والأعمال المتصلة بالعالم ، أو التى يظن أنها تأتى من جانب هذا العالم وهى عقائد وأعمال تشـترك فـى الإعتقـاد بها مجموعة من الأفراد يتكون منهم مجتمع معين .

(جـ) نظريته فى شئون الأسرة :

درس الأسرة بإعتبارها أول خلايا المجتمع فدرس طبيعتها ، كما درس أشكالها ووظائفها وتوصل إلى أن الاجتماع العائلى أو الأسرى لايقوم على الغريزة أو الدوافع الطبيعية ، أو القرابة الدموية فحسب ، ولكن هذا الاجتماع فى طبيعته يقوم على قواعد وأساليب يضمنها العقل الجمعى ، وتتطلبها الحياة الاجتماعية ذاتها . ويرى أن نطاق الأسرة ينتقل من الاتساع إلى الضيق ، وبالتالى فإن وظائفها أيضاً قد تطورت من الواسع إلى الضيق ، فخرجت منها وظائف كثيرة تحولت إلى الحكومة والهيئات القضائية والمجالس النيابية بعد أن كان رئيس الأسرة هو الذى يتولى كل هذه الوظائف . كما أن الوظيفة التربوية أصبحت من إختصاص المدارس، وهكذا الحال فى باقى الوظائف ، ولم يبق للأسرة غير الوظيفة الأخلاقية التى يراها وظيفة أساسية . حيث يدخل فى نطاقها عمليات التنشئة الاجتماعية مثل تلقين النشئ آداب الأسرة، وعرفها وتقاليدها ودينها ، والحرص على ممتلكاتها والدفاع عن مصالحها وغير ذلك .

(د) نظريته فى الإنتحار :

فى نطاق علم الاجتماع الأخلاقى درس "دوركيم" أهميته من قبل وذهب إلى أن الانتحار يرتبط أشد الإرتباط بالحالة الاقتصادية والدينية والعرف والتقاليد وغيرها من شئون الاجتماع الإنسانى.وقد خصص لهذه الدراسة كتابا خاصا سماه "الانتحار" Suicide نشرة عام ١٨٩٧.

وقد اعتمد فى هذه الدراسة على الإحصائيات التى أجريت فى البلاد الأوروبية ما بين عام ١٨٤٠-١٨٩٠ ، خاصة فى فرنسا ، وانجلترا ، وإيطاليا ، وألمانيا ، ويخرج بهذه الظاهرة من المحيط الفردى ، كالحب والغيرة ، والإدمان، والمرض المستعصى وغيرها ، وأدخل هذه الظاهرة فى نطاقها الاجتماعى ، فبحث عن العوامل الاجتماعية الكامنه فى طبيعتها ، وهذه العوامل ترجع لأسباب خارجة عن ذوات الأفراد وتنشأ من طبيعة الظروف المحيطة بالمجتمع ، وهى أسباب عامة بصرف النظر عن تجسداتها الفردية أو الطرق الشخصية التى تتحقق فيها الظاهرة وتتشكل بها ، وقد تكون هذه الأسباب الاجتماعية مرتبطة بالأسباب الاقتصادية ، والدينية ، والسياسية ،

وانهيار روابط الأسرة والحروب ، والثورات وما إلى ذلك من الأمور العامة فى المجتمع . وهنا توصل "دوركيم" إلى قانون اجتماعى مؤداه أن الميل للإنتحار يتناسب تناسبا عكسيا مع درجة التكامل فى البيئة الدينية . وكذلك مع درجة التماسك فى الأسرة ، ومع درجة الوحدة فى الهيئة السياسية فكلما قويت هذه الهيئات الثلاث ، الدين والأسرة، والدولة، واشتدت سلطتها على الأفراد الذين ينتمون إليها كلما قل عدد المنتحرين ، والعكس صحيح ، وعلى هذا فعدد المنتحرين يتزايد كلما ضعفت الروابط التى تربط الأفراد بمجتمعهم ، ويقل هذا العدد إذا قويت الروابط وإتجهت نحو التكامل وقد أيد "دوركيم" هذا القانون ودعمه يالإحصاءات التى أضفت عليه صيغة علمية .

خامسا : أهم الإنتقادات الموجهة لآراء "دوركيم" :

١)ذهب بعض الباحثين إلى أن صفة الجبر والإلزام التى تتميز بها الظواهر الاجتماعية تجعل من الفرد عبدا للمجتمع ، مسلوب الإرادة،معدوم الحرية ، وبالتالى تنهار قيمه الأخلاقية والعقلية . أى أن هذا المبدأ يرفع من (الأنا الاجتماعية ، ويحقر من شأن الأنا الفردى) ، ولكن "دوركيم" يرد على ذلك بأن الأفراد حينما يتصرفون لايحسون بهذا الجبر والإلزام ، ولكنهم يتصرفون بمحض إراداتهم

لأن التربية الاجتماعية قللت من حدة هذا الجبر والإلـزام ، وتعرفـوا على الفوائد التى تعود عليهم من هذا الجبر والإلـزام ، فاطمـأنوا فـى ظله، ولم يعودوا يشعرون بـالقوى التـى تنطـوى عليـها إلا فـى حالـة الخـروج عما يرسمه المجتمع .

٢)جاء تقسيمه للعلـوم الاجتماعيـة قـاصرا ، فلـم ينشـئ علمـا لدراسـة المجتمعات البدائية وتطورها رغم أنـه استقى مـن هـذه المجتمعـات الكثير من مادته العلمية ، كذلك أغفل علوما هامة مثل علم الاجتمـاع السياسى ، والريفى، والحضرى ، والـتربوى رغـم أهميتـها ، ورغـم أنه تعرض لموضوعاتها .

٣)كذلـك كـان تقسـيمة للمجتمعـات ناقصـا بحـيث تـوقـف عنـد الامبراطوريـات القديمـة ، ولم يتضمـن تصنيفـه ،المجتمعـات الإقطاعيـة، والامبراطوريـات ، والقوميـات الحديثـة ، والـدول الاستعمارية فى العصر الحديث .

٤)كما أن نظريته فى الدين كـانت ناقصـة ، فقد أرجـع الديـن إلى أصـل أرضى ، أى إلى طبيعة المجتمع الإنسانى ، ولم يعترف بإرتباط الدين بالإرادة السماوية ، ورغم أنه وفق فى تفسير الطقـوس والعبـادات إلا أنه أخفق فى تفسير القسم الأول ، وهو القدسى .

ورغم هذه الإنتقادات وغيرها فإن عظمة "دوركيم" تبقى واضحة في مجال الفكر الاجتماعى عموما ، وعلم الاجتماع بوجه خاص . فقد تميز كما قلنا بدقة التحليل والعمق بشكل لم يسبقه إليه أحد .

(ب) فى بريطانيا

أ- هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣)

تلقى هربرت سبنسر تعليمه داخل منزل الأسرة ، حيث لم يلتحق بأى مدرسة لاعتلال صحته . كذلك لم يدرس بالجامعة ، الأمر الذى جعل الدوائر الأكاديمية فى إنجلترا لا تهتم بكتاباته أو نظرياته .

وقد أدت طبيعة نشأته إلى ميله إلى العزلة خاصة حينما بلغ سن الرشد وإلى جانب ذلك كان يعارض بعض المبادىء الأكاديمية . ولعل هذه العوامل يجب أن تؤخذ فى الحسبان إذا أردنا فهم أفكاره وميوله الفلسفية .

وقد إتجه سبنسر فى سن مبكرة إلى دراسة الميكانيكا ، حتى أنه أصبح عام (١٨٣٧) رئيسا لمهندسى سكك حديد لندن وبرمنجهام ، ثم استقال من هذا العمل ليصبح محررا فى مجلة الايكونوميست عام (١٨٤٨) .وفى عام (١٨٥٠) نشر كتاب " الاستاتيكا الاجتماعية " .

ويرى سبنسر أن الخط الأساسى للمعرفة العلمية يتمثل فى نظرية التطور ، وهو خط صحيح بالضرورة . ولو أن كثيرا من نظرية

التطور عند سبنسر تعجز فى مواجهة الدراسات الاجتماعية الحديثـة ، خاصة الدراسات الاستقرائية والكمية كما سنرى فيما بعد . ومع كل هذا فإن النظريـة تمثـل واحـدة مـن أهـم النظريـات التـى أثـرت علـى الفكـر الإنسانى ، منذ مراحلة الأولى ، حيث لاتمثيل لهذه النظرية فى دراسات المحدثين فلقد اعتنق الرجل مذهب التطور فى النشوء والإرتقاء، وكتـب فى عدة فروع منها علم النفس والحياة والاجتماع ، والتربية والسياسة . وقد عكست هذه الكتابات آراءه وافكاره التطورية .

أولا : دعائم فكره الاجتماعى :

لاحظ "سبنسر" من دراسته فى البيولوجيا أن الأنـواع الدنيـا مـن الحيوان تتكون أجسامها من أجزاء متماثلة لا يتوقف بعضها على بعـض أما الأنواع العليا فتتألف أجسامها من أعضاء متباينة تعتمـد فـى أدائـها لأعمالها ووظائفها بعضها على البعض .

وقد ذهب "سبنسر" إلى أن هذا الأمر ، وهذا التكوين ينطبق علـى المجتمع ، فالمجتمع شأنه شأن أى كائن حى يبدأ متجانسـا . ثـم يميـل إلى التعقيـد واللاتجـانس ، ويبـدأ الإنتقـال مـن التشـابه والتمـاثل عنـد "سبنسر" ينطبق على كل الظواهر السياسية وظواهر الأخلاق ، والعادات

والقانون ، ويذكر الكثير من الأمثلة التـى توضح هـذا المبـدأ ويقـرر فـى النهاية أن " التخصص هو غايـة كـل تطـور وإرتقـاء فـى الموجودات " وهذا القانون يستند عنده على أساسين :-

الأول : كلما تزايدت درجة التعقد فى المركب الحيـوى تزايـدت درجـة التخصص والتنوع .

الثانى : كلما تزايدت درجـة التخصص والتنـوع فـى الأعضـاء تزايـدت درجة استقلالها .

وحينما ينتقل للحديث عـن المجتمـع ليطبـق عليـه هـذه القـاعدة يقـول إن الجماعـات البشـرية كـانت فـى البدايـة تعيـش علـى الفطـرة، وتتكون من أفراد متشابهين من حيث طرق المعيشة والانتمـاء للمجتمـع، والغايات والحاجات،ولا يعتمد كل فرد على غيره فى سائر أموره، فكان الفرد يعد طعامه،ويبنى مسكنه ويدافـع عـن نفسـه مثلـه فـى ذلـك مثـل الأنواع الدنيا من الحيـوان.ثـم ظـهرت الحيـاة الاجتماعيـة وإنتقلـت إلى مرحلة أكـثر إرتقـاء،فظـهرت الفـروق بـين الأفـراد،وأمكـن ملاحظتـها بوضوح وأصبح للفرد زوجة وأولاد يزرعون ويحصـدون معـا،ويتقـاسمون أعمال الزراعـة والصيـد والرعـى وشـئون الحيـاة الاجتماعيـة الأخـرى،

فتزايد التخصص والإستقلال فى مرحلة تطورية أخرى،فأصبح هناك من يقوم بالزراعة،ومن يقوم بغيرها من الأعمال سواء المرتبطة بها أو غير المرتبطة.

كما ظهر من يقومون بأعمال الإدارة ، والحكم والأمن وغيرها ، وبعد أن كان رب العائلة يقوم بكل الوظائف الاجتماعية فى عائلته أصبح هناك من يقوم بجزء كبير من أعماله ، وهكذا يستمر التطور فى كل شئون الحياة الاجتماعية حتى تظهر الطبقات المختلفة ، وفى المجتمعات الحديثة إستمر هذا التخصص إلى أن وصل إلى مراحل دقيقة فظهرت عشرات التخصصات فى المهنة الواحدة .

ومع ذلك فإن التخصص ووصوله إلى المراحل التى وصل إليها لا يعنى استقلال كل فرد عن الآخر أو كل طبقة عن غيرها من الطبقات، ولكن هذا التخصص يتضمن إلى جانب ذلك التضامن والتعاون، ويتمثل هذا التعاون فى الأهداف والغايات التى يسعى إليها كل تنظيم إجتماعى ، أى أن نظرية "سبنسر " فى الإنتقال من التشابه إلى التباين تقوم على فكرتين :

الأولى : التباين ***Defferentiation***

وهى تعنى الإنتقال من المتجانس إلى اللامتجانس ، ومن التماثل

المطلق إلى التباين المحدد .

الثانية : التكامل ***Integration***

وهى ظاهرة تسير جنبا إلى جنب مع ظاهـرة التبايـن بمعنـى أن التخصص لا يؤدى إلى الإستقلال، والإنعزال ، والإكتفاء الذاتى ، ولكنـه يؤدى إلى التضامن والتماسك وإعتماد الأجزاء علـى بعضـها البعـض طبقـا لمبدأ التكامل الاجتماعى لشئون الحياة الاجتماعية .

ثانيا : نظرية "سبنسر" فى طبيعة المجتمع :

يعتبر المجتمع جزءا من النظام الطبيعى للكون ، وهـو فـى ذلـك يتفق مع "داروين وهيجل " ونظريته على هذا الأسـاس تعتـبر نوعـا مـن التفسير الطبيعى الذى يطبقة على سائر الكون ويرى أن علم الاجتماع هو محاولة لمعرفة نشأة المجتمع وتركيبه وعنـاصره ، وهيئاتـه ، ومراحـل نموه ، وتطوره ، وغير ذلك من المظاهر التى تخلقـها العوامـل الطبيعيـة والنفسية والحيويـة . وهـى عوامـل تـؤدى دورهـا متضـافرة فـى عمليـة تطورية موحدة ، فالتطور الاجتماعى من وجهـة نظره هو عملية تطوريـة عضوية يسميها " التطور فوق العضوى " **Super Organic** والمجتمـع الإنسانى يمثل أرقى صور هذا التطور . فالمجتمع يشبه الجسـم الحـى ، ويعقد "سبنسر" مماثلة من حيث الـتركيب الداخلـى ، فـالمجتمع مـزود

بجهاز للتغذية مثل الكائن الحى ، وهذا الجهاز يتمثل فى البيئات والطبقات المنتجة ، كما أنه مزود بدورة دموية تتمثل فى نظم التوزيع ،وطرق المواصلات،ومزود بجهاز هضمى يتمثل فى نظم الإستهلاك وجهاز عصبى يتمثل فى الجهاز التنظيمى والإدارة الحكومية.

ولكن الفروق بين المجتمع والكائن الحى من حيث التركيب تتمثل فى أن عناصر الكائن الحى تكون كلا متماسكا ومتحدا بصفة مباشرة إتحادا ماديا ملموسا، بينما نجد أن العوامل التى تؤدى إلى الوحدة فى المجتمع عوامل خارجة عن التركيب العضوى فى الفرد ، وهذه العوامل هى اللغة والعواطف والإنفعالات ، والأفكار ، والمعتقدات والتقاليد وغيرها .

كذلك فإن الجهاز العصبى فى الجسم الحى يشغل مساحة صغيرة وهو العقل بينما هو فى الكائن الحى موزع بين الأفراد ، فلكل إنسان الحق بالمساهمة فى توجيه المجتمع . والمجتمع مثل الكائن الحى أو الفرد ينشأ فى صورة بسيطة ، ضيقة النطاق ثم يأخذ حجمه فى النمو . وعدد أفراده فى التكاثر وهذا النمو تميز فى الأعضاء والهيئات وتعقد فى التركيب وهو بذلك ينتقل من التجانس اللامحدود وعندما يقوم

المجتمع وتستقر الحياة الاجتماعية فيه تبدأ الظواهر والنظم الاجتماعية فى الإرتقاء والتطور . وهذه الظواهر فى تطورها تتأثر بنوعين من العوامل :-

داخلية : وهى تتمثل فى الناحية الفردية ، والتكوين الطبيعى ، والعاطفى والعقلى للأفراد الذين يكونون المجتمع .أى أن الأفراد يشكلون الظواهر وفقا لهذه الخواص الداخلية .

خارجية : وتتمثل فى نظره فى البيئة الجغرافية ، والطبيعية ، والمناخية لأنها تؤثر بصفة مباشرة على الأفراد ، وبالتالى على الظواهر التى هى نتاج لأوجه نشاط هؤلاء الأفراد . وإذا كان المجتمع مثل الكائن الحى يمر بالضرورة بمراحل النشوء والإرتقاء فإنه يمر أيضا بمرحلة التدهور والإنحلال ، وهناك دول ومجتمعات تضعف بعد قوة ، وتتدهور بعد مجد وسلطان وتحل مجتمعات جديدة محل تلك التى يصيبها الإنحلال،وهكذا فإن هناك خلقا متجددا فى الحياة الاجتماعية.

ثالثا : أهم النظريات الاجتماعية :

عرض "سبنسر" بعض النظريات فى مجال السياسة والأخلاق ، والإقتصاد والدين ، ويهمنا هنا أن نشير إلى بعض هذه النظريات :

١- تصنيف المجتمعات :

يقسم "سبنسر" المجتمعات إلى نوعين : الأول : على أساس التكوين المورفولوجى ، والثانى : من الناحية الوظيفية . فمن الناحية الأولى يرى أن المجتمعات إما بسيطة أو مركبة ، ومن الناحية الثانية يرى أن المجتمعات إما صناعية وإما حربية .

فالمجتمعات تبدأ فى حالة بسيطة مثلما هو حال الكائنات الدنيا وتكون فى هذه الحالة متجانسة ، وتعيش فى حالة فوضى بدائية. ثم تأخذ هذه المجتمعات فى النمو كما ينمو الكائن الحى ، فتنتقل لدرجة أعلى من التعقيد والتركيب ، والتنوع فى النظم والظواهر والوظائف وبتوالى مثل هذه العمليات عبر الزمن تنتقل المجتمعات البسيطة الساذجة إلى مرحلة التعقيد والتركيب .

أما النوع الثانى فيقول عنه "سبنسر" أن من بين المجتمعات من يعيش أهله عن رغبة فى القتال ، كما كانت الحياة فى نظر الاقطاع ، ومن بينها من يعيش أهله ، لأجل مكافحة متاعب الحياة ومواجهة مشكلاتها ، فغايتهم الأساسية هى العمل ، فالأولى هى المجتمعات الحربية ، والثانية هى المجتمعات الصناعية ، ففى المجتمعات

الحربية يكون الجيش هو الأمة بأكملها ويكون فى حالة حركة دائمة ، أما فى المجتمع الصناعى فيكون الجيش وراء الأمة ، ويكون فى حالة سكون بينما تكون الأمة فى حالة حركة دائمة والسلطة فى المجتمع الحربى تتركز فى يد الحكومة بينما فى المجتمع الصناعى تكون فى أيدى الهيئات والنقابات .

هذا وكما أن الكائن الحى عرضة للتغير وفقا لظروف الطبيعة والبيئة ، فكذلك يتغير شكل المجتمع ، فقد يتحول المجتمع الحربى إلى صناعى ،والصناعى إلى حربى ريثما تتوفر الظروف التى تؤدى إلى مثل هذا التحول ، ويستشهد فى ذلك بالمجتمع البريطانى الذى كان فى البداية مجتمعا صناعيا رائدا ، ما بين عامى ١٨١٥، ١٨٥٠ ولكنه تحول بفعل تغيرات معينة فى القارة الأوروبية إلى مجتمع حربى إستعمارى . مع ذلك يكره "سبنسر" الحروب ويرى أن تطور الإنسانية ورقيها مرهون بالقضاء على الحروب .

٢- نظرية "سبنسر" فى الحكومة :

ينظر "سبنسر" إلى الحكومة على أنها ظاهرة عرضية استدعتها ضرورة التنظيم الذى بدونه لا يتم تكامل المجتمع ، فالتنظيم هو

الضرورة ، أما قيام الحكومة فلا ينطوى فى حد ذاته على شىء من الضرورة والتنظيم ضرورى لأنه يسهل التعاون بين أفراد المجتمع ويحفظ كيانه ، ويحرص على استقراره ، ويعمل على دوامه .

ويفرق "سبنسر" بين نوعين من التنظيم ، الأول : تنظيم تلقائى ينشأ بنشأة الحياة الاجتماعية ويرمى إلى تحقيق الصالح العام وتنظيم رغبات الأفراد فى حالة الاجتماع البسيط . والثانى : تنظيم مقصود وهو ما تلجأ الحكومات إلى وضعه عن قصد ، وتفرضه على الأفراد بالإلزام وقوة القانون ، وغرضه أيضا يكون الصالح العام ويصطلح الأفراد عليه رغبة فى قيام التعاون الاجتماعى وتنظيم الحريات وقيام الحكومة وما ينطوى عليه من نظم لايحقق فى نظره التكامل السياسى إلا إذا توفرت شروط كثيرة ، منها صلاحية البيئة لنمو المجتمع من الناحية السياسية والاجتماعية ، وضرورة تشابه الهيئات والطبقات . وينتقل بعد ذلك إلى تحديد وظائف الحكومة ، وهى تتلخص فى حماية الدولة من خطر الغزو الخارجى ، وتحقيق الأمن فى الداخل ، وضمان تنفيذ العقود والإلتزامات القائمة بين الأفراد . ويعارض تدخل الحكومة فى كثير من نواحى الحياة الاجتماعية .

٣- نظريته فى الاقتصاد :

وهذه النظرية مترتبة على نظريته السياسية ، فنراه فى نظريته الاقتصادية يدافع ويدعم المذهب الفردى والنظريات الاقتصادية الحرة ، وقد إتجه إلى هذه الوجهه لما شهده من إخفاق من جانب الحكومات وهيئاتها الإدارية وعدم كفاءتها الاقتصادية . لذلك دعا للحد من تدخلها فى الشئون الاقتصادية ،وقد وافق " مالتس Malthus " فى القول يتحديد النسل وضرورته ، وقد إستند هنا إلى بعض مشاهداته عن تناسب الإنجاب مع النمو وكبر الحجم تناسبا عكسيا . فكلما كان الكائن الحى قويا كانت ذريته قليلة العدد لأنه لا يحتاج كثيرا إلى من يدعمه والعكس صحيح ولما كانت الإنسانية قد بلغت درجة كبيرة من التقدم فإنها ليست بحاجة إلى المزيد من التناسل ، وبالتالى فإن تقدم البشرية تكنولوجيا يؤدى إلى تناقص الإنجاب أو تناقص القدرة التناسلية مع تزايد القدرات العقلية .

(٤) نظريته فى الأخلاق :

كانت نزعته السياسية والاقتصادية ذات أثر على نظريته الأخلاقية . لقد كان فى الجانب الأخلاقى ماديا أنانيا ، فيبدأ بتعريف

الأخلاق على أنها سلوك الإنسانية والفعل الخلقى فى نظره هو الذى يتفق مع ظروف الحياة ، ويكون أكثر مطابقة لطبيعة الإنسان ، ولما كان الإنسان يتجه دائما لتحصيل اللذه وتجنب الألم ، فإن الفعل الأخلاقى هو الذى يحقق اللذه ويبعد الألم ، ومقياس اللذه هو المنفعة ، وهى التى تساعدنا على الحكم على كل فعل بأنه أخلاقى أو غير أخلاقى.

رابعا : نقد أراء ونظريات "سبنسر" :

ووجهت آراء "سبنسر" بنقد كبير ومن أهم ما وجه إليها ما يلى :-

(١) هناك شك كبير فى القضية أو القانون الذى وضعه "سبنسر" حول سير التطور من البسيط إلى المركب ، أو من السذاجة إلى التعقيد فى كل أنحاء الطبيعة فحتى لو انطبق هذا القانون على بعض الحالات الخاصة إلا أنه لا يمكن أن ينطبق بصورة عامة .

(٢)عقد "سبنسر" مماثلة بين الكائن الحى والمجتمع ، صحيح أن المجتمع يتكون من أفراد ، والأفراد خاضعون لقوانين علم الحياة ولكن مع ذلك لا نستطيع القول بان المجتمع كائن حى كبير يخضع لنفس القوانيين .

(٣)جانبه الصواب فى التقسيم الذى قدمه للمجتمعات الإنسانية، فتقسيم المجتمعات إلى بسيطة ومركبة أمر مقبول،ولكن تقسيمها إلى مجتمعات ذات وظائف حربية وأخرى صناعية،تقسيم غير واقعى لأنه لا يتمتع بالعمومية المطلوبة لأى قانون فهو لاينطبق على كل المجتمعات.

(٤)أعلى "سبنسر" من شأن الدولة الصناعية وقيمها وإستقرارها ، ولكنه لم يدرك أن نفس المجتمعات الصناعية هى التى اخترعت وسائل الحرب والدمار ، وهى التى بدأت سياسة الإستعمار .

(٥)وقع "سبنسر" فى كثير من الأخطاء نتيجة اعتناقه المذهب الفردى، وضرورة الحد من سلطات الدولة . واعتقد خطأ أن التطور سوف يؤدى بالحكومة إلى الإنحلال . وبينما اعتقد فى تطور المجتمع من البسيط إلى المركب ، أعتقد على العكس من ذلك بأن الحكومة تنتقل من المركب إلى البسيط كلما إستمر التطور والإرتقاء .

(٦)كل هذا فضلا عن الأخطاء المنهجية التى وقع فيها ، فبدأ الإعتماد على الملاحظة والتجربة ، ولكنه أسرف فى فرض الفروض والإحتمالات التى أدت به فى النهاية إلى الفلسفة بدلا من العلم .

كذلك إستخدم المنهج التاريخى فقط فى الحالات التى تدعم صحة آرائة ، وهذا خطأ جسيم ، وأيضا كانت مقارناته غير علمية ، الأمر الذى إنعكس فى قوانين غير دقيقة كانت ولاتزال عرضة للنقد والهجوم .

ب- بعض علماء علم الاجتماع فى بريطانيا

لعل هربرت سبنسر كان من أهم رواد علم الاجتماع فى بريطانيا، وعلى ذلك فلقد ظهر علماء آخرون ، وان كانوا أقل شهرة من سبنسر ، إلا أنه كان لكل منهم طابعا مميزا وإتجاها أسهم فى تعميق دراسات علم الاجتماع ، وسوف نشير هنا اشارات سريعة إلى بعض هؤلاء العلماء الإنجليز ، مع التعقيب على ذلك بأهم الإتجاهات التى تسيطر على علم الاجتماع هناك .

أولا : جون ستيورت مل J.S. Mill

تأثر "مل" بالفلسفة الوضعية التى وضع دعائمها أوجست كومت، فقد إهتم مع غيره بمسائل السياسة الوضعية ، وعبادة الإنسانية على حين أهمل النواحى العملية والمنهجية فى فلسفته الاجتماعية . ومن أجل هذا فقد كان إسهامه وغيره من العلماء الذين إهتموا بهذه

السياسة ضئيلا فى مواجهة المشكلات التى تفاقمت فى المجتمع البريطانى ، ومن أهمها الصراع الذى نشب بين الطوائف الدينية ، والتصادم بين العمال وأصحاب العمل وبين الاشتراكيين والرأسماليين .

ويعتبر جون ستيورت مل من وجهة نظر بعض الدارسين رجل اقتصاد ومصلحا اجتماعيا أكثر من كونه عالم اجتماع ، ذلك أن الجانب الأكبر من كتاباته كان فى الفلسفة الاجتماعية ، والإصلاح الاجتماعى والتاريخ رغم أنها كانت تميل إلى الناحية السوسيولوجية .

ويرى "مل" أن الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع هى الكشف عن القوانين التى تؤثر فى الإنتقال من حالة اجتماعية إلى أخرى . ويرى أن أفضل المناهج فى ذلك هو المنهج التاريخى . وقد إعترف باستقلال علم الاجتماع وتزعمه للعلوم الإنسانية كلها .

وفى كتاباته الأولى كان "مل" من المؤيدين" للمدرسة النفسية "، فيرى أن الممكن إرجاع قوانين الحياة الاجتماعية إلى قوانين علم النفس الفردى ، وأن من الممكن تفسير قواعد الاجتماع وظواهره فى ضوء

مبادئ علم النفس ، والقدرات الكامنة فى الطبيعة الإنسانية التى يخضعون لها بإعتبارهم أفرادا . وأن اجتماع الناس لا يضفى عليهم صفات ذاتية كنتيجة لهذا الاجتماع .

ويذهب إلى أن ما ينشأ بين الناس من ظواهر أو يستحدث من نظم يخضع لقوانين لا بأس من تسميتها قوانين اجتماعية ، ولكن هذه الظواهر لا يمكن إلا أن تكون أفعالا وانفعالات ومؤثرات متبادلة بين الأفراد . فالأفراد هم أفراد مهما كانت حالة الاجتماع التى تضمهم ، أو العلاقات التى تنشأ بينهم . فما يصدر عنهم إنما هو بإعتبارهم ذوى طبائع نفسية فردية .

ومن الواضح هنا أن تصور "مل" لطبيعة الظواهر والقوانين التى تخضع لها هذه الظواهر تنطوى على انكار صريح لعلم الاجتماع . ومع كل هذه الدعاوى فإن "مل" قد عاد وخفف من هذه الآراء المتطرفة تحت تأثير أوجست كومت .

ثانياً : هوبهاوس Hobhouse (١٨٦٤-١٩٢٩)

ومن بين علماء الاجتماع فى بريطانيا نجد هوبهاوس الذى يعتبر خليفة لهربرت سبنسر ، فقد بنى نظريته السوسيولوجية على أساس فلسفته العامة فى التطور . فإذا كان سبنسر قد اقتنع بأن التطور عبارة عن عملية تباين متقدم، وتوافق أفضل ، فإن هوبهاوس أيضاً اعتبر أن غاية عملية التطور هى تحقيق الإنسجام التام ، والتناسق الكلى فى الحياة الاجتماعية . كما أن كلاهما نظر إلى المجتمع بإعتبارة وحدة عضوية .

على أن هناك إختلافات بين سبنسر وهوبهاوس . فيعتقد سبنسر أن التطور يسير أوتوماتيكيا بالرغم من تدخل الإنسان على حين يدعى هربهاوس أن مهما كانت عملية التطور معتمدة أوتوماتيكيا على الصراع من أجل البقاء إلا أنها تعتمد أكثر وأكثر على التحكم الشعورى للعقل الإنسانى . وأن التقدم سيعتمد أولا على التوجيه الشعورى للعقل الإنسانى ودورة فى فى العملية الاجتماعية . وكذلك يرى سبنسر أن الطبيعة العضوية للمجتمع تعتمد على الإستخدام الواسع للمماثلة البيولوجية ، بينمايمتنع هوبهاوس عن إستخدام المصطلحات

البيولوجية، ولكنه يتحدث دائما عن الوحدة الضرورية للحياة الاجتماعية والإعتماد المتبادل بين أجزائها . هذا فضلا عن أن هوبهاوس يتناول مشكلات المجتمع من وجهة نظر الفلسفة التطورية ، ولكنه مع ذلك يتميز بكونه عالم اجتماع واسع العلم ، يميل للديموقراطية في مجال فكره السياسى.

ونجد هوبهاوس يناقش علاقة علم الاجتماع بعلم السياسة ، فيقول إن علم السياسة فرع متخصص من علم الاجتماع ، حيث أن علم السياسة يدرس التنظيم السياسى داخل المجتمع . ويرى أن فهم موضوع علم الاجتماع هو من أجل التقدم الاجتماعى ، فهو علم التقدم الإنسانى،فتفاعل الدوافع الإنسانية وتفاعل الأفراد هو العنصر الأساسى فى العملية الاجتماعية ، وهو الموضوع الرئيسى للتطور الاجتماعى وهذا التفاعل هو الحقيقة الأساسية فى الحياة الاجتماعية . وكأن التأثير الذى يمارسه على الأفراد هو الحقيقة الأساسية فى التطور الاجتماعى .

ومن وجهة نظر هوبهاوس إن ألتقدم الاجتماعى هو الهدف الأساسى للدراسات الاجتماعية ويفرق بين التقدم والتطور ، فيرى أن التطور أعم وأشمل ، فقد يتضمن تقدما ، وقد يتضمن تطوراً . أما المقصود

بالتقدم الاجتماعى فهو نمو الحياة الاجتماعية من حيث الصفات التى لها قيمة عند الإنسان . ولا يعتمد التقدم الاجتماعى على العوامل البيولوجية . بل إنه شىء ثقافى ينتج عن عوامل نفسية واجتماعية .

والتقدم الاجتماعى عند هوبهاوس هو نهاية المطاف فى عملية التطور الاجتماعى . وهو ينطوى على إزدياد تكيف الأفراد مع المجتمع وتناسق أشكال التنظيم الاجتماعى المختلفة ، وتناسق المجتمع ككل مع بيئته ويشير إلى أنه من الممكن أن نعتبر التقدم الاجتماعى تطوراً لمبادىء الوحدة والنظام والتعاون والانسجام بين الكائنات الانسانية . فالمجتمع المثالى هو الذى يسير نحو هذا التقدم هو ذلك المجتمع الذى يتحقق فيه هذا الإنسجام والتناسق ، كما أن المجتمع المثالى هو الذى يعيش ويزدهر بالنمو المتناسق بين أجزائه ، كل منها يتطور فى إتجاهه الخاص وتبعا لطبيعته الخاصة وهو يساعد على تطور الأجزاء الأخرى .

وهذا التوافق والتناسق لا يتم بطريقة آلية أوتوماتيكية ، ولكنه يتحقق عن طريق أو بفعل الإرادة والذكاء ، والجهد الحى .

ولذلك فإن الضبط الاجتماعى الرشيد لظروف الحياة يمكن أن يكون دليلاً على التقدم الاجتماعى . ومن هنا يمكن أن نأخذ نمو العقل الاجتماعى وسيطرته وتحكمه فى ظروف الحياة على أنه مقياس للتقدم

وهكذا فإن الخصائص المميزة للعصر الحديث تكمن فى أن الحضارة أصبحت لها اليد العليا ، وأصبحت ظروف الحياة المادية تحت سيطرة الإنسان ، وأن ذلك ساعد على وضع أسس النظام الاجتماعى الذى يكفل التطور والتقدم.

ثالثاً : أرنولد توينبى Arnold Toynbee

حقق أرنولد توينبى شهره واسعة لإهتمامه بالتاريخ السوسيولوجى . أو علم الاجتماع التاريخى ، أو المقارن وكان كتاب "دراسة التاريخ أهم كتبه وأشهرها ".

أثرت الحرب العالمية الأولى فى توينبى وجعلته يتجه للشئون العامة ، ومنذ ذلك الوقت ربط بين الكتابات التاريخية ، خاصة تاريخ الشرق الأدنى المعاصر ، وبين نشاطه فى الحياة العامة .وكتب كتابا عن القومية والحرب ، حيث تناول علاقة القومية بالحرب العالمية الأولى،كذلك كتب كتابا عن اليونان المعاصرة ، وتركيا المعاصرة ، وقام بزيارة عدد كبير من بلدان العالم القديم والحديث .

وقد درس توينبى حضارات العالم التى ظهرت من قبل ، وكرس جهوده فى هذه الدراسات لمشكلة نمو الحضارات وانهيارها ، والمبادىء

التاريخية التى نلاحظها عند دراسة الحضارات والعمليات الداخلة فى تكوين هذه الحضارات وكتب بعد ذلك عن نضوج الحضارات وانحدارها وسوء تكاملها .

كذلك إهتم توينبى بكتابه تاريخ الحرب العالمية الثانية ، اعتقادا منه أن على المؤرخ أن يهتم بالمسائل العامة ويضع تعاليمه وطاقته فى خدمة بلده والعالم بأسره وقد كان توينبى مسيحيا مخلصا ، يرى أن الخلاص الكلى للإنسانية يكمن فى تمسك الحضارة الغربية بالتعاليم والقواعد المتضمنة فى المسيحية .

وتتمثل إسهامات توينبى فى علم الاجتماع فيما يطلق عليه حاليا دراسة الثقافة دراسة قائمة على أسلوب دراسة الحالة **Case study** . وقد قدم لنا أمثلة هامة لإمكانية دراسة الثقافة من وجهة نظر علم الاجتماع التاريخى .

هذا وتعتبر دراسات توينبى من وجهة نظر علم الاجتماع إسهاما بارزا فى مجال علم الاجتماع المقارن ، وتختلف عن الدراسات الأولى لعلماء الانتروبولوجيا والاجتماع التاريخى . من حيث أنه اهتم بالحضارات التاريخية بدلا من أن يكرس كل جهده لدراسة المجتمعات

البدائية .

رابعاً : بعض الإتجاهات العامة فى دراسات علم الاجتماع البريطانى:

بعد أن استعرضنا بعض اسهامات علماء الاجتماع البريطانيين ومن أهمهم هربرت سبنسر وهو بهاوس تجدر الإشارة إلى بعض الإتجاهات التى غلبت على دراسات هذا العلم فى بريطانيا ومن أهمها :-

١- المسح الاجتماعى :

وقد إشتهر هذا الأسلوب فى بريطانيا على يدى تشارلز بوث Charies Booth، ، ورونترى Rowntree ، حيث إهتم هؤلاء باجراء دراسات مسحية لاستجلاء ظواهر الفقر فى لندن ، وكذلك أحوال الطبقة العاملة . وقد غلبت على هذه المسرح الأهداف العلمية، سواء للكشف عن ظواهر معينة ، أو الحصول على مادة علمية تمهيدا لإجراء خطة عن ظواهر معينة .

٢- الممارسة الاجتماعية :

ظهرت دراسات كثيرة فى علم الاجتماع البريطانى كان هدفها

خدمة الممارسة العملية ،والإسهام فى صنع سياسة عملية . وقد ظهر فى كثير من أعمال مانهايم ،الذى كان كتابه فى علم اجتماع المعرفة يتضمن محاولة قديمة لعلم الاجتماع تتمثل فى الوصول إلى مذهب فى السياسة العملية وكذلك كتابه " الحرية ، والقوة والتخطيط الديمقراطى"، فضلا عن إنشغاله وغيره من الكتاب بمسألة تحقيق التكامل .

٣- علم الاجتماع الصناعى :

وفى ضوء إزدهار الصناعة ، وإنتشار الثورة الصناعية إزدهر علم الاجتماع الصناعى الذى يركز أساساً على العلاقات الإنسانية فى الصناعة ، ونتائج عملية العمل الرشيد ، ومشكلات الصناعة واسلوب اتخاذ القرار داخل المصنع . وهكذا إنتعش هذا الفرع الجديد من فروع علم الاجتماع فى بريطانيا.

٤- الطبقات الاجتماعية :

كذلك ظهر إهتمام كبير فى مجال علم الاجتماع البريطانى بمناقشة طابع البناء الطبقى للمجتمع الصناعى الحديث . وقد تجلى ذلك فى أعمال بوتومور " الطبقات فى المجتمع الحديث " دراسة

مقارنة لمفهوم الطبقة والبناء الطبقى ، إلى جانب أعمال " مارشال " عن المواطنه والطبقة الاجتماعية حيث يصف التغـيرات التـى تحـدث فـى بناء المجتمع البريطانى الحديث .

ولقد أدت هذه الإهتمامات والأعمـال المرائـده التـى أظهرتـها إلى نشأة فروع متميزة فى مجال علم الاجتماع البريطانى ونشرت دراسات عديدة يصعب حصرها هنا تعبر عن هذه الإتجاهات أو التيـارات التـى تميز بها علم الاجتماع فى بريطانيا .

جـ - فى ألمانيا

تمهيد :

لم يكن معظم علماء الألمان فى بداية دراساتهم متخصصين فى علم الاجتماع ، ولكنهم تلقوا تعليما فى الفلسفة ، أو الاقتصاد ، أو القانون أو الأنثروبولوجيا ، وشغلوا كراسى الأستاذية فى هذه التخصصات وليس فى علم الاجتماع . ومع ذلك كانت لهم إسهامات هامة ومتعددة فى علم الاجتماع . الأمر الذى خلق أمامهم أشكالا كثيرة من المعارضة والعقبات .

وقد ثار جدل كبير فى الكتابات السوسيولوجية الألمانية حول إمكانية تطبيق طرق البحث فى العلوم الطبيعية ، على العلوم الاجتماعية ، واختلف العلماء حول مؤيد ، ومعارض . فالمعارضون رأوا أن مجال المادة وهو موضوع العلوم الطبيعية ، يختلف عن مجال النفس وهو موضوع العلوم الاجتماعية . أما المؤيدون فرأو أن العلوم الاجتماعية قد تستخدم طرق العلم الطبيعى فى البحث بطريقة نافعة ، وذلك باستثناء التاريخ الذى يدرس الجوانب الفردية والفريدة فى مجال الظواهر الاجتماعية ، وهذه الدراسة لايمكن الإستدلال على أساسها .

ومع ذلك فقد هاجم المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى هذا الزعم قائلا بأنه يمكن استخلاص بعض القوانين العامة التى يسير عليها التطور التاريخى .

ويمكن القول إن العلماء الألمان هم أول من وضعوا أسس علم الجغرافيا البشرية ، وهو العلم الذى يدرس العلاقة بين الإنسان والمجتمع والبيئة المادية . ولاتزال كتابات "راتزل" فى هذا المجال تمثل منزلة راقية بين الكتابات فى هذا العلم فى العالم العربى بأسرة . وقد إنشغل بالتوفيق بين مبادىء التطور البيولوجى ، وعملية التأثير الجغرافى على النوع الإنسانى .

كذلك إهتم العلماء الألمان بالإتجاه البيولوجى فى علم الاجتماع وحاولوا إجراء تطبيقات مختلفة على فروض داروين **Darwin** عن العمليات الاجتماعية . وقد عبروا كثيرا عن فكرة المماثلة بين الكائن البيولوجى ، والوحدات الاجتماعية . وأحيا بعضهم فكرة الكائن العضوى الاجتماعى ، واتخذوا منها أساساً لأفكارهم فى الإصلاح الاجتماعى . وفى هذا المجال دافع " جمبلو فتش " بحماس كبير عن التماثل بين " الداروبنية الاجتماعية " ، أى الحرب وصراع الأجناس من ناحية ، وبين التطور العضوى من ناحية أخرى .

كذلك نسب أصل الدولة ونمو بنائها الاجتماعى إلى أثر الحرب وصراع الجماعات الاجتماعية . وقد شاع بين العلماء الألمان هذا الإتجاه وهو تطبيق مبادئ دارون فى التحليل الاجتماعى ، وبذلوا جهدا كبيرا لوضع نظرية عن التطور الاجتماعى فى حدود مبادىء الوراثة ، والإنتخاب الطبيعى ، والتغاير والصراع من أجل البقاء ، والبقاء للأصلح. وقد مثلت هذه الجهود تطورا كبيرا فى مجال علم الاجتماع فى ألمانيا وغيرها ، حيث حاولوا تطبيق المبدأ التطورى على كل من المجتمع والثقافة .

وإلى جانب الجهود السابقة كان لرواد المدرسة الألمانية الاجتماعية إسهامات متميزة فى مجال علم النفس ، سواء علم النفس الشعبى أو علم النفس الاجتماعى ، أو الرأى العام ، أو علم الاجتماع النفسى الذى يدرس العوامل النفسية المؤثرة فى حياة الجماعة .

وقد دافع عدد كبير من العلماء الألمان عن علاقة علم الاجتماع بالتاريخ ، فقالوا أن علم الاجتماع من حيث تكوينه هو تاريخ متسع وغنى . ويمكن القول أن علم الاجتماع والدراسات الاجتماعية فى ألمانيا قد تأثرت إلى حد كبير بالبيئة والأفكار والمؤثرات السائدة فى

مجتمعهم. ومن هنا فإن الأساس البيئىء للنظريات الاجتماعية قد أسـهم فيما يعـرف بإسم علـم اجتمـاع المعرفـة الـذى حــدد معالــة ماكــس شيللــر Max Scheler، وأسهم فيه كارل مانهايم Karl Manheim بجهد كبير منذ أن صدر كتابه " الايديولوجيا واليوتوبيا " .

وسوف نتناول فى هذا الفصل إسهامات كل مـن فرديناند تونـيز F.Tonnies ، وجورج زيمل George . وماكس فيبر Max weber .

١- فرديناند تونيز F. Tonneis :

ولد تونيز فى مقاطعة فى شمال ألمانيا عام ١٨٥٥ ، لأسـرة تعمـل بالزراعة منذ فترة طويلة . وقد درس تونيز فقه اللغة وقد أثر هذا النوع من التعليـم فـى إتجاهـه لدراسـة الفلسـفة الاجتماعيـة ، والعلـوم الاجتماعية وقد تأثر بعدد مـن العلمـاء والكتـاب ، وخاصـة أحـد علمـاء الإقتصاد ويدعى فاجنر Wagner وكان هذا الأخير يؤمن بضـرورة قيـام الدولة بتنظيم متزايد للحياة الاجتماعية ، لذلـك تـأثر تونـيز بفكـرة أو مذهب إشتراكية الدولة ، وبعد ذلك إهتم تونيز بكتابات تومـاس هوبـز Thomas Hobbes وكان هوبز من أعظـم المدافعـين عـن سـلطة الدولـة التى لا نهايــة لهـا . وقـد أدى ذلـك إلى أن يكـرس تونـيز جـهدا كبـيرا

لقــراءة الفلسـفة السياسـية،والقـانون الطبيعـى،فضـلا عـن العلـوم الاجتماعية.

وقد ألم بقدر كبــير مــن الكتابــات الألمانيــة ، والإنجليزيــة والفرنسية ومن مجمل قراءاته تصور أن كل صور التفكير غير العقلانى أو غير الرشيد لها معناها الخاص ، وهى فى النهاية مشتقة مــن الإرادة الإنسانية ، وأصبحت النظريات الاجتماعية من وجهــة نظره تعبيرات عن الإرادة الاجتماعية ، وإنعكاس للظروف الاجتماعية الواقعية .

كذلك إتضح لـه أن بعض الأفكـار كالشـيوعية ، والإشـتراكية لاينبغى إعتبارها مجرد صور ذهنية أو خيالية ، بـل فـى حقيقـة الأمـر صـور مـن الحيـاة الاجتماعيــة الواقعيــة ، فالدراسـات الاثنوجرافيــة الحديثـة أثبتـت وجـود الشيوعية البدائيـة . وأدرك تونـيز أن تـاريخ الإنسانية قد مر بعدة مراحل بدأت بالشـيوعية البسـيطة ، وإنتقلت إلى مراحل مختلفة من النزعة الفرديـة ، ثـم إلى الإشـتراكية العالميـة . وقـد عرض تونيز كـل هـذه الأفكـار فـى مؤلفـه الشـهير " المجتمـع المحلـى والمجتمع العام"

ولقد كان تونيز محافظا ، ومع ذلك فقد إشترك فى كل الحركـات التقدمية الهامة التى ظهرت فى عصره ، فقد إشترك فى فرعين من فروع الحركة العمالية المنظمـة ، وهمـا الجمعيـات التعاونيـة الإستهلاكية ، والنقابات العماليـة المنظمـة ، معتقـدا أنـهما قـد يمـهدان الطريـق لقيـام مجتمع أفضل .

كذلـك إشـترك تونـيز فـى تأسـيس الجمعيـة السوسـيولوجية الألمانية. وظل رئيسا لها عـدة سنوات ، وكـان عضـوا شرفيـا فـى الجمعيـة السوسـيولوجية الأمريكيـة ، وكـان علـى صلـة وثيقـة بكـل مشاهير عصره من الكتاب والفنانين ورجال السياسة .

أهم نظرياته وكتاباته :

تضم كتابات تونبر كثيرا من الموضوعـات ، والمجـالات الواسـعة فى علم الاجتمـاع ، والفلسـفة الاجتماعيـة ، والاقتصاديـة والسياسـية . وتشكل نظريـة تونـيز عـن المجتمـع المحلـى والمجتمـع العـام ، والتـى تعرف بإسـم Gemeinschaft and Gesellschaft ، تمثـل مرتكـزا لأفكار تونيز عن كثير من المفـهومات الاجتماعيـة . كذلـك فـإن شـهرتـه العالمية فى مجال علم الاجتماع مستمدة من هذه النظرية .

ولقد تميز كتابه عن المجتمع المحلى والمجتمع العام بقوة التفكير . وجمال الأسلوب ، ويضم بين دفتيه الأسس النفسية الاجتماعية والمقولات السوسيولوجية الأساسية .

وقد طبق تونيز مفهوماته الأساسية عن المجتمع المحلى والمجتمع العام على دراسة ظواهر خاصة من الحياة الاجتماعية ، كالأخلاق ، والطرق الشعبية Morals and Folkways ، فضلا عن تطبيقها فى مجال الرأى العام ، ولم تتوقف إسهامات تونيز عند هذا الكتاب وحدة ، ولكن نظريته السوسيولوجية تطورت ونضجت بعد ذلك ووصلت إلى آفاق أرحب . وهناك أجزاء من نظريته فى علم الاجتماع لم يعرفها معرفة جيده سوى تلاميذه ، حيث لم تظهر فى صورة كاملة،بل ظهرت فى عدة مقالات . ولذلك نقول إن كتابه المجتمع المحلى والمجتمع العام أكثر نفعا ، ولاغنى عنه لفهم نظرية تونيز فى علم الاجتماع .

وحينما درس تونيز نظرية توماس هوبز فى القانون ونظرية الدولة تعاظم إهتمامه بمشكلات المجتمع ، وفلسفة القانون . كذلك تجدر الإشارة إلى أعمال تونيز فى مجال الدراسات الامبريقية (أو

الواقعية) ، تلك الأعمال التى كرس لهـا جـزءاً هامـا مـن حياتـه . فقـد أجرى عدة مسوح اجتماعية عن العاملين فى الملاحة،والموانـى البحريـة، والتى طلب إليه القيام بها بعد إضـراب قـام بـه العمـال فـى هـامبورج . كذلك أجرى دراسة عن العلاقة بين بعض الظواهر الأخلاقيـة والظـروف الاقتصاديـة والاجتماعيـة فـى إحـدى المـدن . وكتـب عـدة مقـالات عـن الجريمة فى تلك المدينة ، وتعتمد هذه المقالات على معلومات جمعها من السجون الرئيسية . هـذا إلى جـانب دراسـة عـن الإنتحـار فـى المدينـة، والتغيرات الدورية فى معدلات الزواج ونسبة المواليد الذكور إلى الإنـاث فى بعض الفئات الاجتماعية والاقتصادية . وهكذا كانت دراسات تونـيز متعددة ومتشبعة غطت كثيرا من المجالات الاجتماعية.ومع ذلك فسوف نمنح بعض التركيز لنظريته عن المجتمـع المحلـى والمجتمـع العـام لما نالته من شهرة جعلتها علامـة متميزة علـى طريـق نمـو علـم الاجتمـاع الألمانى .

المجتمع المحلى والمجتمع العام :

يمثل مبدأ العلاقات الإنسانية ، أو الحقائق الاجتماعية المجردة الأساس لنظرية تونيز . ويقـوم هـذا المبـدأ علـى التمييـز بـين مفـهومين

أساسيين هما المجتمع المحلى والمجتمع العام . وهذان المفهومان يشكلان موضوعا أساسيا للمناقشة بين الفلاسفة الاجتماعين منذ عهد أرسطو .

ويعتبر كل منهما صورة من جانب واحد لواقع الحياة الاجتماعية . ولقد قصد تونيز بهذين المفهومين الإشارة إلى التباين الشكلى أو التصورى الواضح بين نمطين أساسيين من أنماط الحياة الاجتماعية وهما نمطان متعارضان لصور اجتماعية واقعية ملموسة ، وقد لاحظ أن من يكتب عنهما بتناول أحدهما فقط دون الآخر .

وإذا كنا قد أشرنا إلى تأثير هوبز على تونيز ، فيمكن القول أن هوبز ميز بين الدولة الطبيعية ، والدولة السياسية ، وكان هذا تمهيدا لظهور مفهومى المجتمع المحلى والمجتمع العام . كذلك أسهمت المعلومات التى أتيحت نتيجة الدراسات الانتروبولوجية الثقافية ، وفقه اللغة ، والقانون المقارن فى بلورة مفهوم المجتمع المحلى والمجتمع عند تونيز . فعلى سبيل المثال تأثر تونيز بكتاب " مورجان Morgan " عن المجتمع القديم إلى جانب تأثره بفلاسفة الحقوق الطبيعية الألمان، والإنجليز ، والأمريكان .

ونجد تونيز يعترف بفضل السير هنرى مين Sir H.Maine خاصة فى فكرته عن إنتقال المجتمعات الإنسانية من المنزلة أو المكانة الاجتماعية إلى التعاقد .

ومن الواضح أن التمييز بين المجتمع المحلى والمجتمع العام كمفاهيم أساسية للجماعات الاجتماعية يتطلب التمييز بين الكيانات الاجتماعية العضوية ، والكيانات الآلية أو الميكانيكية . أو بين العلاقات التى تنشأ طبيعيا من عواطف المشاركة الوجدانية ، والعلاقات التى تتكون بطريقة شعورية مقصودة ومن أجل غرض محدد.

ويثير تونيز هنا عددا من القضايا على النحو التالى :

(أ)ينبغى أن ننظر إلى كل العلاقات الاجتماعية بإعتبارها من خلق الإرادة الإنسانية ، وتظهر كوقائع اجتماعية من خلال طريق واحد هو إرادة الأفراد فى الإرتباط معا .

(ب)هذه الإرادة وما ينشأ عنها من علاقات داخلية بين الأفراد المترابطين مع بعضهم البعض ، هى من طبائع متنوعة . فقد تكون الجماعة أو العلاقات أمورا مرغوبا فيها من أجل تحقيق غاية محددة تتمثل فى اللامبالاة التامة ، أو النفور من الشركاء (كما هو الحال فى

الشركة التجارية مثــلا) ، أو قـد تكـون العلاقـة ذات قيمـة فـى حـد ذاتها (كالصداقة) بسبب المشاركة الوجدانية القائمة بـين الشـركاء . وهنا ميز تونيز بين نوعين من الإرادة همـا الارادة العاطفيـة،والإرادة الرشـــيدة (أو الإرادة الرئيســـية ، والإرادة التحكميـــــة) والإرادة الرشيدة هى التى تميز بين الغاية والوسيلة . والإرادة العاطفية ليست بالضرورة إرادة غير رشيدة ، بل على العكس قد يستطيع المرء التمييز بين درجات من الرشاد فى الإرادة العاطفيـة ، والمجتمعـات المحليـة المشـتقة منـها . ويكـون المعيـار أو المقيـاس هنـا بادئـا مـــن المشـــاركة الوجدانية الغريزية بين الأفراد المترابطين ترابطا بيولوجيا فهذه هـى التى تحدد الإرادة الفردية ، هذا بالإضافـة إلى إعتبـارات أخـرى كـأن تعتمد الإرادة الفردية على علاقة تنشأ عن التشبث العـام بقيـم معينـة كعلاقة الدم والجوار والأسرة والمجتمع المحلى والطائفة المهنية .

وقد هوجمت تصورات تونيز على أساس أنها تصورات نظريـة أو تصنيفية، ولكن تونيز لم يكن يقصد ذلك ، بل أكد علـى أن هـذه المفـاهيم تعبر عن أنماط مثالية لا توجد بهذه الصورة فى العالم الواقعـى ، ولذلك فهى لا تستخدم كنماذج تصنيفية ، بل ينبغى إعتبارها كسمات موجودة

بنسب متباينة فى الكيانات الواقعية . فإذا قلنا أن الأسرة مجتمع محلى، فإن مهمة عالم الاجتماع هنا أن يحدد مدى توافق الأسرة مع موقف واقعى مثل أسرة العامل فى مدينة كبيرة مثلا ، وهل توافق الأسرة مع مجتمع محلى أكثر من توافقها مع موقف أو مجتمع آخر مثل الأسرة فى المزرعة . ويقول أننا إذا أخذنا هذه المفاهيم على هذا النحو فإنه يصبح من المكن إستخدامها فى دراسة الظواهر التاريخية دون تشويه فى منطق النظرية .

والواقع أن مفهومى المجتمع المحلى والمجتمع العام غير متناقضين تماما . فالسلوك الإنسانى لا يحركه العقل وحدة ولكن تحركه أيضاً الميول والعواطف ، أى تحركه أساسا الإرادة الطبيعية العاطفية ، كما تحركه الإرادة الرشيدة إلى حد ما . أى أن الروابط والتنظيمات لها بالضرورة أساس فى المجتمع المحلى . أى أن المفهومين متداخلان وغير متناقضين .

النظرية والبحث عند تونيز :

حظى كتاب المجتمع المحلى والمجتمع العام بشهرة واسعة فى المانيا ولكنه لم يحظ بمثل هذه الشهرة والتقدير فى أمريكا ، ذلك أن

علماء الاجتماع الأمريكيين لايهتمون كثيرا بما يسمى علم الاجتماع النظرى . ومع ذلك فقد إعتقد تونيز فى إمكان التوصل إلى مناهج للبحث فى العلوم الاجتماعية . ولم ينظر إلى النظرية بإعتبارها غاية فى حد ذاتها،أو مشتقة أو منفصلة عن البحث الاجتماعى . فهو يميز بين ثلاثة فروع لعلم الاجتماع لكل منها جوانبه المعرفية وطرقه البحثية :-

(١)علم الاجتماع النظرى .

(٢)علم الاجتماع التطبيقى .

(٣)علم الاجتماع الامبيريقى أو السوسيوجرافيا .

وفكرة علم الاجتماع النظرى تتفق تقريبا مع فكرة علم الاجتماع العام الذى نعرفه فى الوقت الحاضر.وموضوع هذا العلم هو دراسة الكليات الاجتماعية المجردة الثابتة ،وهى تتكون من العلاقات الاجتماعية،والجماعات أو التنظيمات الاجتماعية.ويتكون هذا العلم من نسق من المفاهيم وهى وسائل ضرورية لوصف وفهم الظواهر الاجتماعية الواقعية.

أما علم الاجتماع التطبيقى فهو يهتم بتطبيق مفاهيم علم

الاجتماع النظرى فى تحليل وتفسير المجتمعات التاريخية الواقعية ، والعمليات الاجتماعية للتطور . ويتضح من هذا أن المعنى الأصلى لعلم الاجتماع هو أنه فلسفة علمية للتاريخ ، كما كان يدركه أوجست كومت. والإختلاف بين علم الاجتماع النظرى وعلم الاجتماع التطبيقى هو أمر مساو للإختلاف بين النظرية الاستاتيكية ، والنظرية الديناميكية عن المجتمع ، وأبعد من هذا فإن هذا الإختلاف يرجع إلى الإختلاف بين المنهج التجريدى والمنهج الاستدلالى . ففى علم الاجتماع التطبيقى ينبغى جمع المعلومات الإمبيريقية وتنظيمها وتفسيرها تبعا لمبدأ التطور العام من المجتمع المحلى إلى المجتمع العام .

وأخيرا فإن الدراسة السوسيوجرافية للظروف والعمليات الاجتماعية الحالية ، أو ما يسمى علم الاجتماع الإمبيريقى ، فيستخدم الطرق الاستقرائية أو الإمبيريقية ، لأن كل البيانات المطلوبة فى هذا المجال إما أنها موجودة ، وإما أنه يمكن الحصول عليها .

فالدراسات الإمبيريقية تستخدم مفاهيم علم الاجتماع النظرى من أجل إختبار الحقائق وتنظيمها . ويتفق هذا المفهوم للسوسيوجرافيا مع النموذج الحديث للمسوح الاجتماعية ، والدراسات الايكولوجية المنتشرة فى أمريكا والتى تقوم على الدراسة العلمية للحقائق

السوسيولوجية كما تبدو فى المجتمعات المحلية ، أو الجماعات الواقعية الملموسة .

وهكذا يتضح أن فكر فرديناند تونيز كان فكرا خصبا أثرى نظرية علم الاجتماع ، وأرسى دعائم المدرسة الألمانية باعتباره أحد روادها المؤسسين .

٢- جورج زيمل : George Simmel

يعتبر جورج زيمل من وجهة نظر علماء الاجتماع الزعيم الفعلى للمدرسة الألمانية فى علم الاجتماع . فقد كان من بين العلماء الذين إنتقلوا بهذا العلم من التقليد الكلاسيكى إلى عصر النهضة فى أواخر القرن التاسع عشر ، وذلك فى مجال النظرية والبحث السوسيولوجى على حد سواء . وفضلا عن ذلك فإنه ينظر إليه على أنه زعيم الإتجاه الصورى أو المدرسة الشكلية فى علم الاجتماع . وقد كان فيلسوفا بالدرجة الأولى ، فقد إهتم بمشكلات المجتمع إلى جانب التاريخ ، والفنون الجميلة ، والأدب . وقد ترجمت كتاباته إلى كثير من اللغات الغربية . الأمر الذى أكسبة شهرة كبيرة .

موضوع علم الاجتماع عند زيمل :

لا يتفق زيمل مع القول بأن علم الاجتماع هو العلم الذى يدرس كل الحقائق الاجتماعية ، أو كل ما هو إنسانى . فذلك يوسع نطاقة ولا يمكن الباحثين من الإحاطة بكل جوانبه . ولكنه يرى أن علم الاجتماع يجب أن ينفصل عن العلوم الخاصة التى يدرس كل منها موضوعاً اجتماعياً محدداً . ويرى أن العلوم الاجتماعية التى تقوم حديثا يجب أن تعتمد على التجريد ، بمعنى أن تجرد حقائقها وموضوعاتها مما تنطوى عليه من مادة ، وذلك من أجل الوصول إلى مبادئها الجوهرية والشكلية . ويطبق هذه النظرة على علم الاجتماع ، فهو عنده علم نظرى مجرد موضوعة دراسة العلاقات الاجتماعية فى صورها الخالصة ، أى دراسة أشكال التفاعلات الاجتماعية المتبادلة التى تحدث فى كل ميادين الحياة الاجتماعية ، ولا يدرس هذا العلم الحقائق المادية التى تنطوى عليها الظواهر ، فهذه متروكه أو يجب أن تترك للعلوم الاجتماعية الخالصة التى تعالج مختلف ميادين النشاط الاجتماعى ، أما مهمة علم الاجتماع فهى مهمة تجريدية مقصورة على الوصول إلى أشكال العلاقات الاجتماعية .

وترتكز نظرية زيمل على التمييز بين طبيعة العلاقات الاجتماعية من ناحية الشكل أو الصورة ، وما تنطوى عليه مضمون اجتماعى ، لأن العلاقات التى تنشأ بين الأفراد فى المجتمع كالصراع والتنافس ، والخضوع ، وتقسيم العمل ، والتقسيم الطبقى وغيرها موجودة فى مختلف ميادين الحياة الاجتماعية . ووظيفة علم الاجتماع هى تحليل هذه المظاهر المختلفة للعلاقات الاجتماعية حتى تصل إلى مقوماتها الأساسية ، وخصائصها الذاتية ، ثم تحاول تفسيرها فى صورها المجردة بعيدا عن تجسداتها أى مادتها فى المجتمع .

طبيعة المجتمع :

ينشأ المجتمع من وجهة نظر زيمل عن التفاعل النفسى بين الكائنات الإنسانية كأفراد ، وكأعضاء فى جماعات . والمجتمع فى الحقيقة ليس شيئا عاديا ولكنه عبارة عن عملية معقدة ، فهو مجموعة من العلاقات المعقدة ، أو الأحداث أو الوقائع ، أو الأشياء الوظيفية التى يخلقها الأفراد ، ويعيشون فيها وتعبر عن تفاعل خبراتهم . وكثيرا ما كان زيمل يتجنب إستخدام كلمة المجتمع ، ويستخدم بدلا منها مصطلح الهيئة أو الرابطة ليشير إلى الطبيعة الحقيقية للواقع الاجتماعى. ومع

ذلك فإن التفاعل النفسى لايكون عمليـة الـترابط Association . فليـس الترابط مجرد تبادل النظرات بـين الأفـراد ، أو بـين فرديـن يمـران فـى الشارع ولكن الترابط يتكـون مـن الظواهـر الكـبرى التـى إذا مـا تكـررت تشتد وتقوى ، ويكون لها طبيعة العمليات الاجتماعيـة . فـالوجود معـا والترابط الكامل يفترض أن يعمل على إستمرار التأثير المتبادل الكثيف . وحتى الجماعات الكبيرة أو التنظيمات ، التى تتكون من العلاقـات بـين الأفراد ، والتى تتطابق مع فكرة المجتمع عند زيمـل ، هـذه الجماعـات ليست سوى تعبير عن التفاعلات المباشرة بين الأفـراد . وهـذه العلاقـات ليست نفسية فحسـب ولكنها أيضاً علاقات أخلاقية .

وهذا القول عند زيمل يتضمن مبدأين أساسين :-

الأول : أنه فـى أى نـوع مـن أنـواع التفـاعل ، عندمـا يفقـد أحـد طرفـى العلاقة التفاعلية أهميته عند الطرف الآخـر فـإن أى علاقـة يراهـا أحـد الطرفين هامة فى حين يراها الطرف الآخر مجرد وسيلة لتحقيـق غايـة لا ترتبط بالطرف الأول . أو إذا وجدت اللامبالاه الكاملة من جانب أحـد الأطرف نحو الآخر ،فان العلاقة الناشئة لا تعتبر علاقة اجتماعية علـى الإطلاق ، بسبب عدم وجود رابطة فى مثل هذه الحالات .

الثانى : يمكن النظر إلى المجتمع على أنه نسق من العلاقـات الأخلاقيـة والقانونيـة التقليديـة بـين الأفـراد ، وأن هـذه الرابطـة تتضمـن تبـادل الحقـوق والواجبـات . وهـذا المبـدأ يسـتخدم فـى تحليـل علاقـات القـوة والسيادة والسيطرة . ولا مجـال للإجبـار فـى العلاقـات الاجتماعيـة لأن التفاعل يتضمن بالضرورة قدراً من الفعل ، والإختيار ، وإتخـاذ القـرار. وهذا لا يحدث من جانب الأفراد المجبرين .

ومعنى ذلك أن مفـهوم التفـاعل الاجتمـاعى عنـد زيمـل يسـتبعد العلاقات التى قد تنشأ بين الإنسان والأشياء مـن مجـال علـم الاجتمـاع . أى أنها لكى تكون داخله فـى مجـال علـم الاجتمـاع لابـد أن تكـون بـين أشخاص.

وفضـلاً عـن ذلـك يـرى زيمـل أن العمليـات التـى قـد تـؤدى إلى الإنحلال هى عمليات هامة فى حياة الجماعة مثل الترابط تماماً . حيـث أنه ليس هناك جماعات متجانسة تجانساً تامـاً . وإذا أمكـن وجـود مثـل هذه الجماعة فلن توجد فيها أية حيـاة ، ولذلـك نجـد أنـه فـى علاقـات الـزواج هنـاك قـدر معـين مـن الصـراع، فـهو عنصـر ضـرورى . كمـا أن

المعارضة هى الوسيلة الوحيدة التى تساعد الأفراد الذيـــن يقـــوم بينـهم عداء على أن يتحملوا وجودهم معا فى رابطة واحدة .

ومع ذلـك فـإن الصـراع وحـدة لاينتـج صـوراً اجتماعيـة،غـير أن وجودها إلى جـانب قـوى الـترابط يكونـان معـا الوحـدة الواقعيـة الحيـة للجماعة.

ويتحدث جورج زيمل عن أن هناك قدرا مسموحا بـه مـن العـداء بين أعضاء الجماعة . فالجماعات الكبيرة التى تتصف بدرجة عاليـة مـن التنظيم سوف تقاوم درجة أعلى من الإنقسـام ، وذلـك بشـكل أكـبر ممـا تتحملـه التجمعـات الميكانيكيـة . فالدولـة العصريـة مثـلا تســتطيع أن تتحمل صراع الأحزاب السياسية ، كما تستطيع إستخدام العـداءات بـين هذه الأحزاب لحفظ توازن الدولة وإستمرار تقدمها ، على حين أن دولـة المدينـة اليونانيـة تحطمـت بسـبب الصـراع الحزبـى الداخلـى . وهكـذا تتفاوت حدة الصراع ، كما يتفاوت معدل تحمـل الجماعـة لهـذا الصـراع وفقا لظروفها وبنائها .

بناء المجتمع ومشكلات النمو الاجتماعى :

تتطابق فكرة الصورة عند جورج زيمل مع فكرة البناء . فــهو قـد ناقش مثلما فعل الوظيفيون مشاكل السيادة والتبعية كظواهــر أساسـية ، وميز بين ثلاثة أنماط رئيسية من السيادة والسلطة .

(٢) السيادة عن طريق شخص واحد .

(٢) السيادة عن طريق جماعة من عدة أشخاص .

(٣) التبعية لمبدأ موضوعى لاشخصى .

وترجع أهمية أفكاره هنـا إلى تحليلـة الدقيـق للمواقـف النوعيـة التى تنبع من كل نمط من هذه الأنماط الرئيسية .

ويتبع زيمل الأشكال التطورية فى الأسرة والدولة ، وفى الشـكل الاقتصادى أيضاً . فيحدث نفس التطور فى العلاقـة بـين صـاحب العمـل والعمال إلى الحد الذى يصبح فيه الطرفان تابعين لمبدأ التعاقد الموضوعى. ويحدث هذا الأمر بصفة خاصة إذا كا التعاقد يعتمد علـى اتفـاق جمـاعى بين هيئة أصحاب الأعمال والنقابة العمالية .

وقد كان زيمل واعيا بالمزايا التى تنشأ عن تبعية الأفراد للعناصر الشخصية فى السلطة ، ولكنه كان يفكر بشكل عام فى جعل علاقات السلطة علاقات لاشخصية لأن ذلك يجعل التبعية أكثر إحتمالاً و إهانة وقهراً . وقد أفاض كثيراً فى مسائل السلطة والتبعية والديمقراطية . والمعايير الواجب توافرها فيمن يتولى السلطة ، فيرى أن الوظائف العليا فى الدولة العصرية تتطلب مؤهلات شخصية غير عادية عند إختيار الشخص . ولاشك أن ندرة الأشخاص المؤهلين تأهيلاً عالياً تخلق صعوبات جديدة ، ولكن يخفف هذا الأمر وهذه الصعوبة أن الأفراد الذين يختارون لهذه المناصب ، قد يتوافقون مع المهام الجديدة والضخمة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه قد يتم التعجيل الموضوعى للوظيفة ذاتها. هذا الأمر الذى لايقوم على مؤهلات شخصية.

وقد أثار زيمل بعض التساؤلات فى هذا الإطار مثل ما الذى يؤدى إلى تكامل الجماعات،أو تفككها،وما الذى يجعلها تستمر خلال فترة طويلة من الزمن.

ولقد مثلت هذه الأفكار جوهر الفكرة الرئيسية عن المجتمع . فمناقشته عن إحتفاظ الجماعات بذاتها قد تعتبر معياراً لإسهاماته فى

نظرية علم الاجتماع . فهو يتحدث عن إستمرار الهوية الخاصة بالجماعة رغم التغير الذى يحدث فى تكوينها أو تكوين أعضائها . فلاشك أن إستمرارها بالجماعة يتأثر أساساً بإستمرار الموقع المحلى ، أو الاقليم الذى توجد به ، ومدى ترابط العواطف والمضامين الفكرية من الجماعات وتأثيرها بأرض الآباء أو الأجداد . وهنا يقول على الرغم من تشابه العلاقات إلا أن صفاتها السوسيولوجية تختلف تبعا لإختلاف الفترة الزمنية التى تستمر فيها هذه العلاقات .

كذلك يرى أن الشرط الثانى لإستمرار الجماعة هو الإتصال الفسيولوجى بين الأجيال فله أهمية عظمى من أجل إستمرار الجماعات الكبرى فى الوجود فإحلال جيل محل جيل أمر لايحدث فى الحال ولكنه يحدث خطوة خطوة أو بالتدريج . كما أن عضوية الجماعة تساعد على المحافظة على الثقافة واستمرارها ، وإنتقالها . وهنا يعارض زيمل إعتماد الجماعة فى وجودها على حياة فرد واحد ، أو حاكم ، أو قائد ، وهو يحذر من هذه الحالة من أن وضع الحاكم يجب أن يكون موضوعيا ، بمعنى أنه ليس سوى تشخيص لروح غير شخصية أو فوق شخصية Super personal، أو لمبدأ مرتبط بالوضعية .

والتنظيم من وجهة نظر زيمل هو أهم شرط لإستمرار أى جماعة. فكل الهيئات تنشأ أساساً من التفاعل المباشر بين الأعضاء ، ومن أدوارهم كأعضاء فى جماعة عن طريق التنظيم والوظائف التى تؤثر فى وحدة الجماعة . والجماعة المنظمة أقوى من الجماعة غير المنظمة ، من حيث مقاومة الأخطار الداخلية والخارجية .

وهكذا نرى كيف أن جورج زيمل قد أحدث تأثيرا ملحوظا فى علم الاجتماع ظل حتى الوقت الحاضر ، فقد تأثر به كثير من علماء الاجتماع الأمريكين مثل روس Ross، وسمول Small ، وزنانيكى Znaniecki وبيكر Becker وغيرهم .

ومع ذلك فإن هناك اعتراضات كثيرة وإنتقادات أثيرت حول تأكيده على أن علم الاجتماع يدرس الصور الاجتماعية ، ويرون أن دراسة العلاقات الاجتماعية دراسة مجردة وردها لعناصرها الأولية يخرجها عن طبيعتها ويجردها من معانيها الاجتماعية ، فتبقى غير ذات دلالة مادية أو شيئية .

كذلك يرى النقاد أن تجريد العلاقات الاجتماعية وإرجاعها إلى عناصر أولية مجردة يقطع صلتها ويمزق وحدتها ، لأن هذه العلاقات

متداخلة ومتشابكه وسريعة التغير ، ودائمة التفاعل . ومن الملاحظ أن كل تغير يصيب ناحية من نواحيها لابد أن يتردد صداها فى باقى العلاقات ، فلا يمكن دراسة العلاقات منعزلة أو مجردة ، لأن مثل هذه الدراسة تصبح غير ذات جدوى . ومن ثم يجب دراسة المجتمع ككل ، ويجب دراسة العلاقات دراسة موضوعية كما هى موجودة فى مختلف أوجه النشاط الاجتماعى .

وأخيراً أثار النقاد أن دراسة العلاقات الاجتماعية دراسة مجردة يتنافى مع فكرة القانون الاجتماعى ، إذ كيف نستطيع الوصول إلى قانون اجتماعى حول ظاهرة معينة مالم يكن ذلك مرتبطا بالأحداث الاجتماعية ومقيدا لشروطها الزمنية والموضوعية . إن من الصعب أن ندرس العلاقات الاجتماعية ونفهمها بطريقة فلسفية ميتافيزيقية لأن ذلك يفقدها خاصتيها الاجتماعية .

وعلى الرغم من أهمية هذه الإنتقادات ، إلا أن الإتجاه الصورى أو التجزيدى الذى تزعمه زيمل ، كان فى حد ذاته إسهاماً كبيراً فى مجال نظرية علم الاجتماع .

ثالثا : ماكس فيبر Max Weber :

ينتمى ماكس فيبر لأسرة ميسورة ، فلقد عاش فى الفترة ما بين (١٨٦٤-١٩٢٠) . وكان والده سياسيا نشطا ، وكان فيبر يدرس الإقتصاد والقانون فى مطلع حياته وتفوق فيهما ، وقد عين فى عام (١٨٩٣) أستاذا للاقتصاد بالجامعة . وقد أصيب بإنهيار عصبى أبعده عن الجامعة، ولم يعد إليها إلا قبيل وفاته بعامين ، حيث كان قد حقق أقصى درجات النضج .

ولقد أثر ماكس فيبر فى نمو النظرية السوسيولوجية تأثيراً واضحاً ، فعلم الاجتماع يتخذ عنده طابعا ذاتيا ، ويعتبر أحد ثلاث سيطر عليهم الإتجاه السيكولوجى ، والآخران هما توماس Thomas وبارتيو Pareto ، خاصة فى حديثة الأخير عن الغرائز .

ولقد تعددت إهتمامات فيبر ، ما بين الاقتصاد والمجتمع ، والتاريخ الاقتصادى والإجتماعى ، وعلم اجتماع المعرفة ، والسياسة ، والقانون ، وكانت إهتماماته عملية ، فلم يهتم بالموضوعات الأساسية فى علم الاجتماع ، ومع ذلك كانت لديه قدرة تحليلية فائقة ، فدرس موضوعات قد لاتبدو لصيقة بعلم الاجتماع ، ولكنها أثرت النظرية

السوسيولوجية بقدر كبير .

علم الاجتماع عند فيبر :

كأى عالم لايمكن فهم أفكار فيبر دون فهم المناخ الاجتماعى والعلمى والسياسى السائد فى عصره . وهنا فقد وجد فيبر أفكار ماركس وكانط شائعة ، وإطلع كذلك على إسهامات تونيز وزيمل .

ولقد حاول فيبر أن يضيق الفجوة بين العلم الطبيعى ، والعلم الروحى ، وهنا فرق بين طبيعة العلوم الاجتماعية ، والعلوم الطبيعية إذا ما كانت مهمة العلوم الطبيعية هى الوصول إلى الضبط الكامل ، فإن مهمة العلوم الاجتماعية هى التقويم Evaluation . ولذلك يتعين على العلوم الاجتماعية أن تدرس القيم Values ، وألا تفصل بينها وبين المعايير والمثاليات التى تشتق منها موجهات ضبط السلوك الواقعى . ويتطلب الأمر أن يكون العلم الاجتماعى علما أمبيريقيا (واقعيا) يدرس الوقائع الملموسة .

ولقد كان لأفكار فيبر هذه تأثير كبير على فكره وبحوثه . فلم يهتم بتقديم تعميمات تنسحب على كل المجتمعات ولكنه قصر إهتماماته وتعميماته على المجتمع الذى يعيش فى نطاقة ، على الرغم

من أنه فى حالات أخرى قدم تحليلات أوجد لهـا تطبيقـات فـى ثقافـات أخرى .

وأجرى فيبر دراسات مقارنة مكنته فى حياته مـن الإعتقـاد فـى امكان ظهور علم الاجتماع العام ، وظهر ذلك جليا فـى كتابـه "الإقتصـاد والمجتمع ". ولذلك يمكن القول بأن أفكارة الأولى لم تكـن متعارضـه مـع جوهر أفكاره فى السنوات الأخيرة ، بل يمكـن النظـر إليـها علـى أنـها تمهيد لأفكاره الناضجة المتأخرة .

وفى محاولته التوفيق بين العلوم الطبيعية ، والعلوم الروحيـة ، ذهب إلى إمكانية تحقيق أعلى مستوى لفهم الظواهر الاجتماعية ، بشرط أن يكون هذا الفهم سببيا ، وملائمـا علـى مسـتوى المعنـى . وهنـا يثـير تساؤلات ثلاثة :

- ماهو الفهم السببى الملائم ؟
- ماهو الفهم الملائم ذو المعنى ؟
- وكيف نربط بين الإثنين ؟

١- الفهم السببى : Causal understanding

يقول فيبر فى مجال إجابته على التساؤل الأول إن تفسير الأحداث يكون سببيا بدرجة ملائمة إذا توصلنا من خلال الملاحظة إلى تعميم يؤكد تتابع الأحداث بنفس الطريقة . وهذا يجب أن يستند إلى سبب إحصائى بقدر الإمكان . وإذا تعذر الإحصاء فيجب اللجوء إلى المقارنة .

ولقد إستخدم فيبر المقارنات التاريخية وتحليلاتها بشكل واسع فحاول إختبار صدق القضية التى تقوم عليها الماركسية وهى كون الاقتصاد هو أساس تفسير كل الظواهر بما فيها الثقافية والدينية . حيث يذهب ماركس إلى أن الإصلاح البروتيستانتى كان ناتجا عن ظهور الرأسمالية . ولكن حينما قرر فيبر إختبار هذا الفرض حصل على نتائج مختلفة . فيقول إن الرأسمالية عبارة عن مشروعات هادفة إلى الربح ، وترتبط فيما بينها بعلاقات سوقية . والرأسمالية بهذا المعنى نمت وإزدهرت فى أماكن كثيرة عبر التاريخ . ولكن الرأسمالية الحديثة شيء مختلف ، فهى تتميز بالطابع العقلى الرشيد للعمل الحر ، ومن هنا ينتقل إلى أن الرأسمالية الحديثة كانت نتاجا لظهور البروتستانتية،

وخاصة الكالفينية (نسبة إلى حنا كلفن) ، ويفترض أن المناطق الألمانية التى تسودها البروتستانتية أكثر ثراء من المناطق الكاثوليكية ، ثم حاول التأكد من هذا الفرض فتوصل إلى وجود إرتباط سببى بين نمو الرأسمالية الحديثة والبروتستانتية .

وفى بحثه حول إثبات العلاقة السببيه بين روح الرأسمالية الحديثة ، وروح البروتستانتيه ، أشار إلى الروح على أنها نسق السلوك الإنسانى . ويذكر أن البروتستانتية ، وخاصة المذهب الكالفينى لايشجع التملك بشكل مباشر ، ولكن يؤكد على ضرورة الخلاص ، وهذا الخلاص يعتمد على المصير الذى تحدده إرادة الله أى أن الإنسان لايستطيع أن يفعل شيئا لتحقيق هذا الخلاص . ولما كان الخلاص هو بؤرة الحياة الدينية للإنسان ، فإنه سيسعى بالضرورة لمعرفة ما إذا كان من المختارين أولا : لأن النجاح فى الأمور الدنيوية والتى ترتبط بالعمل، يعتبر دليلا قاطعا على أن الشخص من بين المختارين ، ومهما كان العمل الذى يناسب الشخص فإنه يتحتم أن يكون له نظاما مجددا ، وأن يؤديه بصفة منظمة ، وهكذا فإن فيبر يعتبر أن هناك إتفاقا بين غايات السلوك الدينى ، والسلوك العلمانى . بحيث يمكن القول أن نشأة التوجيه

الأخلاقى البروتستانتى كان شرطا ضروريا ، لظهور الرأسمالية الحديثة أى أن غايات الفعل فى الكالفنيه تــوجــه المؤمنين إلى إتباع سلوك يتفق مع الروح الرأسمالية الحديثة .

وإستنتاج فيبر هنا يشبه طريقة التلازم فى الحدوث ، وطريقــة الإتفـاق فـى المنـاهج الحديثـة لعلـم الاجتمــاع ، وفــى محاولــة تــأكيد استنتاجه إستخدم طريقة الإختلاف ، فيتساءل عما كان يمكن أن يكــون عليه حال الرأسماليه الحديثة لو وجدت كـل الظروف أو العوامـل التـى وجـدت بإسـتثناء " الديـن " . وهنـا أجـرى عـددا كبـيرا مـن الدراسـات المقارنه عن الصين والهند . ولم يؤكـد الأهميـة السـببية الممكنـه لعوامـل أخرى ، وهذا الإعتقاد أضعف من قوة إستنتاجه السابق .

ومن مجمل دراساته عن الصين والهند توصل إلى أن هنــاك ظروفـا اقتصادية ملائمة لنمو الرأسماليـة الحديثـة ، وظـروف أخـرى لاتشـجع على ذلك. ولذلك لابد من وجـود قـوة دافعيـة معينـة تتمثـل فـى القبـول السيكولوجى للقيم والأفكار التى تلائـم التغـير . ومـهما تكـن مصداقيـة النتيجـة التـى توصـل إليـها فيـبر عـن تأثـير البروتسـتانتية علـى نمـو الرأسمالية الحديثة إلا أنه قدم لنا خطوات عملية للوصول إلى فهم سببى

ملائم للتتبع التاريخى الذى لايعتمد على معالجـات إحصائيـة . أى أنـه مهد لظهور التجربة السوسيولوجية ، أو شيئا قريبا منها .

٢- الفهم على مستوى المعنى والفعل :

يقول ماكس فيبر فى هذا إن الكائنات البشرية غالبـــا ماتكـون على وعى مباشر وإدراك ببناء الأفعال الانسانية . ففى دراسة الجماعات الإنسانية يمكن أن نفــهم الأفعـال والمقـاصد الذاتيـة للفـاعلين الذيـن هـم أعضاء الجماعات . أما فى العلوم الطبيعية فإن ذلك غير ممكن ، فحركـة الـذرات لانسـتطيع أن نفهمـها ، كـل مـا يمكـن أن نفعلـه هـو ملاحظـة الإنتظام القائم بينها . ويعرف الفعل ذاتياً . وكل فعل يخلــو مـن المعنــى لايدخل فى إطار الدراسات السوسيولوجية المتعمقة. ومعنى ذلـك أن علـم الاجتماع هو العلم الذى يدرس الفعل الموجـه إلى سـلوك الآخريـن . وأكـد هنا أن الفعل الاجتماعى هو نوع من السلوك يتضمن معنى للفاعل نفســه . أى أنه أكد الدور الذى يلعبـه المعنـى فـى الفعـل الاجتمـاعى . أمامنـا أن (٣ X ٣ = ٩) فنحن نفهم ذلك ، ونفهم ما يعنيه القائل ، والفــهم علـى مستوى المعنى يتحقق اما بالملاحظة المباشرة للمعنى الذاتى والذى ينطوى عليه فعل يؤتيه شخص آخر ، وإما أن هذا الفهم يتحقق عن طريــق فـهم

الدافع الذى يقدمه الشخص لفعله أو سلوكه . وقد أسهم فيبر كثـيرا فـى حـالات الفـهم علـى مسـتوى المعنـى ، وان كـان قـد وقـع فـى بعـض التناقضات، إلا أنه كان يدافع عنها ويفسرها .

٣- العلاقة بين السبب والمعنى :

كما قلنا فإن التساؤل الثالث يكمن فى محاولـة فيـبر الربـط بـين السبب والمعنى . وهنا نجد أن فيبر استشهد فـى هـذه العمليـة بحـالات نادره فقط من السلوك الواقعى أو الملموس . ولكن يلجأ بـدلا مـن ذلـك إلى الأفعـال النموذجيـة أو النمطيـة المجـردة . ومـع ذلـك فالتفسـير السوسيولوجى عنده يجب أن يكون لـه معنـى ذاتـى ، فـى الوقـت الـذى يكون فيه أيضا ممكنا من الناحية الواقعية . ومع ذلـك فإنـه كـان يـدرك صعوبة توافر تفسيرات ذات معنى ، فيقول إن هناك مواقـف لايسـتطيع فيها الفاعل أن يكون على وعى كامل بكل ضروب السلوك ، كما أن هنـاك ضروربا أخرى من السـلوك يصبح الفـرد فيـها عـاجزا تمامـا عـن إدراك المعنى الذاتى ، خاصة حينما يكون السلوك تقليديا ، أو خاضعاً للعـادات والعرف . أو حينمـا يكـون وجدانيـا مشحونا بالإنفعـالات ، وفـى هـذه الحالات يقول أنه يمكن تجاهل بعض عمليات السـلوك الإنسـانى خاصـة

تلك التى يصعب فهمها لعدم توافر المعنى الذاتى . ومع ذلك لم يستبعدها من مجال علم الاجتماع وقال إن بالإمكان دراستها بمناهج أخرى مختلفة .

ومعنى ذلك أنه جعل إهتمام علم الاجتماع ينصب بالدرجة الأولى على الفعل (أو الأفعال)الذى يتضمن معنى ذاتيا ، أو على الأقل معنى شائعا أو مفترضا .

٤- *النموذج المثالى عند فيبر :*

إرتبط إصطلاح النموذج المثالى بإسم ماكس فيبر حيث رأى فيه أداه منهجية تعين الباحث فى دراسة الفعل الاجتماعى . ويقول أن هذا المصطلح ليس من إبتداعه ولكنه استخدم من قبله فى الدراسة العلمية ، ويقول إن النموذج المثالى هو " بناء وتشييد عقلى يتشكل من خلال ظهور أو وضوح سمه أو أكثر ، أو وجهات نظر يمكن ملاحظتها فى الواقع ، والنموذج الذى يتشكل على هذا النمو يطلق عليه " مثالى " لأنه يتحقق كفكرة كذلك يقول إن من المستحيل أن نجد فى الحياة الواقعية ظواهر تنطبق تماما على النموذج المثالى الذى تم تشييده بطريقة عقلية خالصة والنموذج المثالى يختلف عن المتوسط الإحصائى أو الحسابى كما أنه ليس

فرضا ، ولكنه أداة لتحليل الأحداث والمواقف التاريخية الملموسة .
ويتطلب هذا التحليل أن تكون المفاهيم محددة بدقة ، وواضحة إلى أبعد الحدود حتى تستطيع مواجهة النماذج المثالية. فهو نموذج محدد نقارن به المواقف الواقعية فى الحياة ، والأفعال التى ندرسها ، وهذه الدراسة للواقع الملموس تمكننا من الحصول على العلاقات السببية بين عناصر النموذج المثالى . ويمكن القول أن فيبر لم يشيد نماذجة المثالية بطريقة استقرائية جامده ، لكنه كان يجمع الخصائص المميزة لهذا النموذج باستخدام استقراء مرن يرتكز على دراسة مستفيضة للبيانات . ثم يلجأ بعد ذلك إلى إختبار السمات التى تتضمنها النماذج المثالية .

ويمكن أن نشير لبعض التعريفات التى أوردها ماكس فى إطار استخدامه لفكرة النماذج المثالية . فالعلاقة الاجتماعية تمثل عنده مفهوماً يرتبط بالفعل إرتباطاً منطقيا ، ويعرفها بأنها " السلوك الذى يصدر عن مجموعة من الفاعلين ، إلى المدى الذى يكون فيه كل فعل من الأفعال آخذا فى إعتباره المعانى التى تنطوى عليها أفعال الآخرين".
حدلك فالجماعة المنظمة " هى التى تمثل علاقة اجتماعية

من خلالها يقوم أفراد معينون - بشكل منتظم - بمهمة تدعيم النظام فى الجماعة " ، أما الجماعة السياسية فهى " الجماعة التى يقوم جهازها الإدارى بتدعيم النظام داخل منطقة اقليمية معينة ، وذلك عن طريق التهديد بإستخدام العقاب البدنى " ، وتصبح الجماعة السياسية دولة إذا ما تمكن جهازها الإدارى . من إحتكار الإستخدام الشرعى للعقاب البدنى فى تدعيم النظام . وعلى هذا النحو نجد ماكس فيبر يضيق نطاق كل مفهوم عن المفهوم السابق عليه ، مثلما ينتقل من الجماعة المنظمة إلى الجماعة الإقليمية المنظمة ، إلى الجماعة التى تستند إلى ضبط ملزم ، إلى الجماعة السياسية . وهكذا فالمفهومات عنده تتدرج من الإتساع إلى الضيق ووصلت إلى الجماعة السياسية ووجدنا أن الدولة هى النموذج المثالى لهذا النوع من الجماعات .

وعلى النحو السابق نجد فيبر فى تعريفه للنماذج المثالية ، يقدم تعريفات ثلاثة للسلطة تعتمد كل منها على شكل مجرد من الشرعية، ولكل منها نموذجه المثالى . فهناك السلطة العقلانية الرشيدة ، التى تستند إلى قواعد موضوعية ، وغير شخصية ، وهو النموذج الذى يوجد عموما فى المجتمع الغربى الحديث . وهناك السلطة التقليدية التى

ترتكز على الإعتماد على قدسية التقاليد ، وشرعية المكانة التى يحتلـها أولئـك الـذى يتمتعـون بمكانـه اجتماعيـة ممثلـة للسـلطة القائمـة علـى التقاليد ، كما هو الحال فى الملكيات ، أو الجماعات الملكية القائمة حتى الآن . وهناك أخيرا السلطة الروحية أو الملهمة التى تعتمـد علـى الـولاء المطلق لقدسـية معينـة اسـتثنائية مثـل البطولـة ، أو نمـونج مـن نمـانج الشخصيات يحتذى لما لديه من مثل وقيم ، أو بسبب نظام إبتدعه وطوره زعيم معين ، مثل غـاندى وهتلـر وغـيرهم مـن الزعمـاء . ويقـول إن مـن الممكن ظهور نمانج أخرى للسـلطة ، ولكنـه أراد صياغـة بعـض النمـانج السوسيولوجية الهامة بشكل دقيق وتصورى .

وعلى هذا يمكن القول أن نمانج السلطة التى صاغها تمثل بناءات عقلية مجردة . وهناك ملاحظة يجب ذكرها وهى أن فيـبر قـد ركـز فـى صياغتـه للنمـاذج المثاليـة علـى الحـالات الجمعيـة أو المجموعـات الاجتماعية ، لأن نقطة الانطلاق عنده تمثلت فى أن علم الاجتمـاع يـهتم فى المحـل الأول بدراسـة الأفعـال الاجتماعيـة ، ولذلـك نجـده يعـرف العلاقة الاجتماعية بأنها مجرى الفعل الاجتماعى ، والفعل لايوجد فـى

شكل السلوك الذى يصدر عـن فـرد أو أكـثر . والمجموعـات الاجتماعيـة نتاج للتنظيم الذى تشكله أفعال الأفراد .

وأخيراً فإنه لايذكر مفهـوم البيروقراطيـة دون أن يشـار إلـى إسهامات فيبر فى دراستها . فهو ينظر للبيروقراطية بما تتميز بـه مـن صورية ، وتسلسل رئاسى وتقنين ، بإعتبارها شكلا من أشـكال التنظيـم الاجتماعى يرتبط بإقتصاد التطور والرشد الذين يسودان العالم الحديث. هذا ولم يقصر دراسته للبيروقراطية على الظروف السياسية والاقتصادية التـى تسـود المجتمعـات الرأسماليـة ، ولكنـه إهتـم بدراسـة ماسمـاه " بالإختراع الإنسانى العظيـم " الـذى ابتدعـه الإنسـان والـذى يتمثـل فـى البيروقراطية . ولاتزال تحليلاته فى هذا المجال تلفت أنظار كثـير مـن العلماء الاجتماعين . ولذلك يمكن القول إن هذه الأعمال الرائده فـى هـذا المجال لاتزال توجه كثيرا من البحوث فى مجـال علـم الاجتمـاع حتـى اليوم .

ولقد ترك فيبر تأثيرا واضحا علـى كثـيرا مـن علمـاء الاجتمـاع ، خاصة فى أمريكا ، ونذكـر منـهم تـالكوت بارسـوز الـذى ترجـم بعـض أعمال فيـبر إلى الإنجليزيـة ، وعلـى وجـه الخصـوص كتابـه " الأخـلاق

البروتستانتيه وروح الرأسمالية " ، و " نظرية التنظيم الاجتماعى والاقتصادى " . وقد كان لترجمة أعماله إلى الإنجليزية ، والدور الذى لعبه تلاميذه أكبر الأثر فى المكانه التى إحتلها فى علم الاجتماع حتى يومنا هذا.

د - فى أمريكا

تمهيد

بإتساع مجالات علم الاجتماع ، ازداد التخصص فى مجاله فازدهرت تخصصات وفروع عدة ، ومال علماء الاجتماع إلى التجاوب مع هذا التخصص فبدأت الدراسات فيه تتسم بنوعية أو مجال خاص .

فنجد أن علم الاجتماع التاريخى قد إزدهر فى الولايات المتحدة الأمريكية . وذلك بفضل جهود ودراسات علماء الانثرويولوجيا الثقافية، الذين ركزوا إهتمامهم على الثقافات والنظم الاجتماعية البدائية . فضلا عن جهود المؤرخين الإجتماعيين الذين درسوا تطور النظم الاجتماعية فى كل من أوربا وأمريكا . ولقد كان كتاب بيتريم سوروكين P.Sorokin " الديناميات الاجتماعية والثقافية " من أعظم الإسهامات من جانب علماء الاجتماع الأمريكيين فى هذا المجال . كذلك كان هوارد بيكر H.Becker من أكثر العلماء نشاطا فى دراسة ووضع الخطوط العريضة لمناهج البحث التى يجب إتباعها فى علم الاجتماع التاريخى.

كذلك خطت الايكولوجيا البشرية خطوات واسعة على يدى

روبرت بارك R.Park، وماكينزى Mejenzie ، وجيمس كوين J.Quinn وأندرسون N.Anderson،وبيرجس R.Burgess ، وقد أحدث هؤلاء العلماء ثورة فى علم الاجتماع الحضرى ، وقدموا دراسات أقامت دعائم هذا العلم .

ومن الجهود التى يجب ذكرها فى مجال علم الاجتماع الأمريكى، تلك التى بذلها علماء الاجتماع النفسى ، والذين ابتعدوا عن الدراسات الفلسفية ، والوصفية وإتجهوا بالتقريب بين علم النفس ، وعلم الاجتماع . والإهتمام بتطبيق النظريات العلمية فى مجال علم النفس على المجتمع .

وفضلا عما سبق ظهرت إهتمامات فى مجال علم الاجتماع الأمريكى بدراسة العمليات الثقافية ونمو النظم ، خاصة علماء الانثروبولوجيا الثقافية ، إلى جانب إحياء المذهب التطورى الاجتماعى عند مورجان .

وأسهمت المدرسة الأمريكية مجالا أو فرعا هاما من فروع علم الاجتماع هو علم اجتماع الجريمة Criminology ، وعلم العقاب Pinology،وأجريت فى إطارها دراسات هامة فى مجال الجريمة وجناح الأحداث . وأساليب علاجها والوقاية منها .

هـذه المجـالات وغيرهـا شـهدت تقدمـا وإزدهـاراً فـى المدرسـة الأمريكية فى علم الاجتماع ، إضافـة إلى تطـور الإتجاهـات الكميـة فـى الدراسات الاجتماعية تلك التى نظر إليها العلمـاء الأمريكـان علـى أنـها تطبيق للمنهج العلمى المحكم .

وزيادة على ما سبق فإنـه تجـدر الإشـارة إلى أن علمـاء الاجتمـاع الأمريكين كانوا يدرسون المجتمع دراسة بنائية ضيقة النطاق ، لكن هذا الإتجاه قـد إنتـهى ، وظـهر الإتجـاه نحـو الإهتمـام بموضوعـات ضيقـة النطاق ، وبالمشكلات الصغرى ، الأمر الـذى أتـاح الفرصـة لبنـاء منـاهج وأدوات جديـدة فـى البحـث والاسـتقصاء ، وفـى الوقـت نفسـه جعـل المشكلات المطروحة على بساط البحث مشكلات غير مترابطة . وقد ساعد على ذلك ما شهدة هذا المجتمع من نمـو سـريع فـى الحيـاه الحضريـة ، والإنتقـال مـن الاقتصـاد القـائم علـى الزراعـة إلى الاقتصـاد القـائم علـى الصناعة واسعة النطاق ، كبيرة الحجم ، الأمر الـذى أوجـد عـددا كبـيرا من المشكلات الجديدة تبعا لظهور نوع جديـد مـن الحيـاة الاجتماعيـة ، فانهارت أنساق القيم القديمة تحت وطأه العنـاصر الحضريـة الجديـدة . خاصة وأن العلماء الأمريكين تنقصهم خبرة الفهم التاريخى والفلسـفى ، والوضـوح النظـرى والتصـورى . هـذه كلـها مثلـت مشـكلات أمـام علـم

الاجتماع الأمريكي رغم إزدهار وتطور الدراسة في عدد كبير من مجالاته .

وسوف نتناول هنا بعض رواد علم الاجتماع البارزين في أمريكا وذلك على سبيل المثال لا الحصر ،لبيان إسهاماتهم في تطور هذا العلم.

أولا : بيتريم سوروكين Pitrium Sorokin

ينتسب بيتريم سوروكين إلى أصل روسي، وهو سليل أسرة من الفلاحين ، وولد عام ١٨٨٩ ، ودرس في جامعة بطرسبرج . وبعد حصوله على الدكتوراه عام ١٩٢٢ عمل بالتدريس والكتابة والنشاط السياسي . وكانت له خبرات أثناء الثورة الروسية ، أثرت على إتجاهاته ونظرياته الاجتماعية . وفي هذه الفترة من حياته تكرست كراهيته للشيوعين . وقد حكم عليه بالإعدام عام ١٩٢٢ ، وتدخل تلاميذه ، فخففت العقوبة إلى النفي من البلاد فهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وشغل كرسي أستاذ علم الاجتماع في الجامعات الأمريكية .

أهم مؤلفاته :

كتب بيتريم سوروكين عددا من المؤلفات فى علم الاجتماع ، كان لها تأثير ضخم على علم الاجتماع الأمريكى ، وعلم الاجتماع على المستوى العلمى ، ومن أهم هذه المؤلفات "سوسيولوجية الثورة" ، "والديناميات الاجتماعية والثقافية" ، "والحراك الاجتماعى" ، "والنظريات السوسيولوجية المعاصره" ، "وعلم الاجتماع الريفى" ، "ومبادىء علم الاجتماع الريفى والحضرى" ، "والسلوك الإنسانى" ، "وروسيا والولايات المتحدة" .

ويمثل كتاب " الديناميات الاجتماعية ، والثقافية " ، وكتاب " المجتمع والثقافة والشخصية " أهم هذه الكتب على الإطلاق .

الديناميات الاجتماعية والثقافية :

تناول بيتريم سوروكين فى هذا الكتاب تاريخ الحضارة الإنسانية لفترة دامت (٢٥٠٠) عام ، وذلك فى محاولة لتوضيح أشكال وأنواع التغير الاجتماعى ، والثقافى . وقد استهدف من ذلك إعادة النظر فى نظرية التقدم التى سيطرت على الآراء الفلسفية عند كثير من العلماء الاجتماعين فى القرن التاسع عشر . وتوضح هذه النظرية مدى كفاءة

الإنسان فى السيطرة على الطبيعة من أجل توفير أكبر قدر من الراحة والأمن ، وتحرير الإنسان من التحيز ، والجهل ، والعواطف الهدامة . وقد حاول كثير من العلماء الذين يؤمنون بنظرية التقدم إثبات أن تاريخ الثقافات يشبه دورات الميلاد ، والنمو ،والإنتحار ، والموت ، وهى فى ذلك تشبه الدورات المتكررة أكثر من مشابهتها للخط التصاعدى التقدمى. وهذان هما المبدآن الأساسيان للتغير التاريخى . وهناك عدة انتقادات جذرية موجهة لنظرية التقدم، ولكن نظرية التقدم الحديثة إبتعدت عن الإهتمام الفلسفى بالتاريخ.

وقد توصل سوروكين إلى نتيجة مؤداها أنه لايوجد تقدم مطلق كما لاتوجد حركات دورية ، وإن ما يوجد هو التقلبات فى أنماط الثقافة الرئيسية ، وفى أنماط العلاقات الاجتماعية ، وفى تركيز القوة فى الظروف الاقتصادية ، وفى الصراع ، أى أنه توجد تقلبات فى كل مكان ، وقد توصل سوروكين إلى هذا التعميم من بيانات حصل عليها عن الحضارات المختلفة ، فتناول فى المجلد الأول من هذا الكتاب صور الفنون ، وفى الثانى يتناول إتساق الحقيقة ، والقانون ، والأخلاقيات، أما فى الثالث فيهتم بالعلاقات الاجتماعية والجماعات والنظم من

الأسرة إلى الدولة ، ومن الكنيسة إلى القرارات الاقتصادية . كما درس ألف حالة من حالات الحرب، وستمائة حالة من حالات الثورة ، ودرس العلاقة بين الثقافة والشخصية والسلوك . وهو فى كل ذلك لم يدرس الظواهر التاريخية من أجل فهم طبيعتها التاريخية النوعية ، ولكن من أجل ترتيبها . وفى دراسته للوثائق القانونية كان يتساءل : إذا كانت الظواهر الثقافية تنقسم إلى عدد من الفئات ، ففى أى فئة تقع الظاهرة موضوع الدراسة ؟ هل هى طيبة ، أم مقبولة ، أم سيئة ؟ على أن عملية التصنيف لهذه الفئات لم تكن سهلة ، فهى تختلف من مجال ثقافى لآخر ، فعند تصنيف موضوعات الرسم ، والنحت ، والهندسة ، والموسيقى ، والأدب نجد أن هناك عددا من الفئات المتعارضة مثل الدينية وهى تدخل فى فئة(الظواهر الطيبة)،والدنيوية وهى تدخل فى فئة (الظواهر السيئة).. وهكذا.

هذه بإختصار هى الطريقة التى إتبعها سوروكين فى محاولة الوصول إلى تعميمات عن التغير الاجتماعى والثقافى . فهو ينظر إلى كل شىء من تاريخ الإنسانية على أنه مؤشر لعدد محدود جدا من القيم .

المجتمع والثقافة والشخصية :

وهذا الكتاب يعتبر كتابا فريدا فى علم الاجتماع الأمريكى . وقد كان سوروكين يقبل شأنه فى ذلك شأن من سبقوه بأن التفاعل الاجتماعى هو الوحدة التى ينبغى أن تكون أساس تحليل كل الظواهر الاجتماعية . أما التفاعل من وجهة نظره فهو ظاهرة اجتماعية ثقافية تحدث بين البشر أفرادا أو جماعات ، ولها ثلاثة عناصر مترابطة :

(١) الشخصية بإعتبارها فاعلا أو موضوعا للتفاعل .

(٢) المجتمع بإعتباره المجموع الكلى للشخصيات المتفاعلة .

(٣) الثقافة وهى المجموع الكلى للمعانى والقيم والمعايير الناشئة عن تفاعل الشخصيات الإنسانية ، وهى الإطار الكلى الذى يجعل معه المعانى موضوعية واجتماعية . ولقد إستطاع سوروكين من تعريفه للتفاعل أن يصوغ هذه القضية : " إن أية جماعة من الأفراد المتفاعلين هى أولا وحدة سببية وظيفية ، تجعل من الجماعة نسقا إجتماعيا . ولايستطيع النسق الاجتماعى أن يوجد بدون نسق ثقافى . والنسق الثقافى هو إطار أو نسق من المعانى والأفكار ، ويكون الاثنان معا نسقا ثقافيا اجتماعيا ، ويصبح هذا النسق مفتاحا لنظرية سوروكين. فكأن النسق الاجتماعى يشبه الهيكل العظمى لبناء المجتمع ، أما

النسق الثقافى فيعطيه الشكل ، والهيئة والحياة ، ويكون الإثنان وحدة وظيفية متكاملة .

ولقد كان إهتمام سوروكين بالثقافة راجعا إلى رغبته فى الكشف عن تسلسل الانساق الاجتماعية الثقافية ، ودرجة تكاملها ، وأدرك النسق الاجتماعى الثقافى الكلى على أنه نسق فوقى Super system ، وهو يكون متكاملا تقريبا . وإعتقد سوروكين أن كل نسق فوقى " يتميز بموضوع أو فكرة سائدة ، وهى معيار للحقيقة أو الصدق فى ثقافة نوعية.

وإذا كان الأفراد ينسبون هذا الصدق لدليل حواسهم ، فإن سوروكين يطلق على هذا النسق أنه " نسق حى " . أما إذا اعتقد الناس بأنه يوجد واقع آخر وراء إنطباعات الحواس ، وأن هذا الواقع أكثر عمقا وصدقا مثل صدق العقيدة فإن هذا النسق يسمى فكريا Ideational ، وعندما يجتمع الإثنان " النسق المدرك بالحواس والنسق المثالى " ، فإنه ينشأ نسق ثالث للحقيقة هو نسق الفعل أو الرشاد ويطلق عليه (المثالى Idealistic) ،وخاصة إذا كان النسقان منسجمان ومختلطان . أما إذا

كانت العلاقة بين النسق الحسى والفكر مجرد علاقة تجـاور فإنـه ينشا نمط رابع يسميه (المختلط) .

ويتضح من ذلك أن أسلوب الثقافة يتحدد تبعا لنســق الحقيقـة أو الصدق السائد فى المجتمع . ومع أن معالجة ســوروكين للشخصيــة لــم تكن ناضجة تماما ، إلا أنه كان يهدف إلى توضيح أن كل نسـق اجتمـاعى ثقافى ينتج أنماط شخصية فرعية .

ويرى ســوروكين أن الجماعـة الاجتماعيـة بإعتبارهـا جملـة مـن الأفراد المتفاعلين تكـون جماعـة منظمـة عندمـا تكـون هنـاك درجـة مـن الاتسـاق الداخلـى بـين المجموعـة الأساسـية مـن المعـانى والقيـم وشـكل المعايير القانونية التى تحدد بدقة جميع أفعـال ، وردود أفعـال الأفـراد المتفـاعلين فـى علاقاتـهم إزاء بعضـهم البعـض ، وإزاء مـن هـم خـارج الجماعة ، والعالم ككل ، وعندها تكـون هـذه المعايـير فعالـة ، وملزمـة لسلوك الأشخاص المتفاعلين .

وتفسيرا لهذا القول يمكن أن نحدده على النحو التالى :-

١)تتصف كل جماعة منظمة بمجموعة أساسية من المعانى والقيم ، وهنا يستخدم (معنى) كمرادف (للفكرة) تقريبا.

٢)يجب أن تكون المجموعة الأساسية من الأفكار والقيم متسقة مع نفسها.

٣)تتخذ الأفكار والقيم شكل المعايير التى يجب على أعضاء الجماعة الانصياع لها.

٤)يجب أن تكون هذه المعايير ، والتى يطلق عليها سوروكين كلمه المعايير القانونية، يجب أن تكون فعالة ، ومن ثم يمكن فرضها فى بعض الأحيان.

ومن الملاحظ هنا أن سوروكين قد وحد بين معايير سلوك الجماعة وبين القانون ، وهذا يفرض أن نأخذ مفهوم القانون بمعنى أوسع من المعنى الذى يستخدم به . ويرد سوروكين على هذه القضية بأن المعيار القانونى هو ذلك الذى يحدد حقوق الأطراف وما يقابلها من واجبات إزاء الأطراف الأخرى،وليس فقط مجرد قواعد قانونية شرعية.

وهكذا توضح الأفكار التى عرضنا لها هنا ، والتى صاغها سوروكين، أنه كان عالما وباحثا فى علم الاجتماع الأمريكى ، فى وقت كان فيه البحث،والمعرفة الفلسفية العريضة،لاتحتل مكانه عاليه ، بل لم تكن تحظى بتقدير وإهتمام.ولقد كان سوروكين يرفض التيارات

السائدة والتى اتسمت بالسطحية وعدم العمق،وردد كثيراً الأهداف الحقيقية والمناسبة لعلم الاجتماع كعلم عقلى.وكثيراً ما بحث عن مواطن الخطأ والزلل وراح يعود بها مرة ثانية إلى طريق الصواب.وفى سنوات عمره الأخيرة التفت علماء الاجتماع الأمريكيين إلى إنجازاته الفريدة، ومنحوه كل الإعجاب والتقدير .

ثانيا : تالكوت بارسونز Talcott parsons

إهتم بارسونز بموضوع النظرية فى علم الاجتماع ، وأثر كثيراً فى علم الاجتماع الأمريكى . ولعله من أهم رواده بعد سوروكين . وقد بدأ سوروكين حياته كعالم فى البيولوجيا ، ثم تحول إلى علم الاقتصاد. وقد إعتقد أن القوانين الاجتماعية يمكن الكشف عنها ، والتعبير عنها بنفس الطريقة المستخدمة فى العلوم الطبيعية .

وعندما سافر بارسونز إلى بريطانيا ، وإتصل بعالم الانتروبولوجيا البريطانى مالينوفسكى ، بدأ فى التحول إلى الإتجاه الوظيفى ، ومنذ ذلك الحين راح يعارض أى صورة من صور المذهب التطورى .

وقد درس بعمق أفكار فيبر فى جامعة هايدلبرج فى المانيا، وترجم كتابه الهام " الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية " إلى الإنجليزية. وبعد ذلك ترجم كتاب التنظيم الاجتماعى والاقتصادى. وتأثر بنظرية فيبر فى الفعل الاجتماعى، كما درس نظرية المنفعة الحدية لمارشال، وأكد الرأى الذى تكون لديه من دراسة فيبر والذى مؤداة أن هناك أهمية لانساق القيم الاجتماعية عند دراسة الفعل الاجتماعى، ودعم هذا الرأى من قراءته لدوركيم، وفضلا عن ذلك تأثر بكل من (باريتو)، (وفرويد).

مؤلفات بارسونز ومفهوماته :

كان مؤلفه الرئيسى الأول هو بناء الفعل الاجتماعى The structure of social action (١٩٣٧) ، وتضمن نقداً عنيفا لنظريات مارشال ، وباريتو ، ودوركيم ، وفيبر . ومن أهم سمات هذا الكتاب أنه يرى فى كل هؤلاء العلماء على الرغم مما بينهم من اختلافات ، نقطه بدء واحدة ، ومنها كونوا آراءهم ، وهذه النقطة أطلق عليها " الفعل الاجتماعى - التطوعى أو الإختيارى " .

وقد جاء هذا الكتاب بأسلوب غامض ، ورمزى فى بعض الأحيان. وبعد ذلك أصدر كتاب " مقالات فى النظرية الاجتماعية الخالصة والتطبيقية " (١٩٤٩) ، ثم كتاب " نحو نظرية عامة فى الفعل " (١٩٥١) بالإشتراك مع بيلز .

أ- الفعل الاجتماعى :

تعتمد نظرية بارسونز على أن الفعل الاجتماعى ينبغى رؤيته كنسق من السلوك . وهو نسق معقد يمكن تجزئته إلى أجزاء مختلفة لإمكان دراستها فى علاقتها المتبادلة ، واعتمادها المتبادل . ويقول إننا نرى فى كل نسق من السلوك ثلاثة عناصر هى "الفاعل" و "الرموز" ، "والقيم" التى توجهه . ولاشك أن دراسة هذا النسق من السلوك سيساعدنا على فهم كيف أن الفرد أو النسق الاجتماعى ككل ، أو الثقافة ككل ، تفعل وتؤدى وظيفة وتعمل .

كذلك يرى أن هناك عوامل ثلاثة يتضمنها الفعل الاجتماعي، هى الفاعل والموقف،وموجه الفعل نحو الموقف،ويرى أن الموجهات مختلفة،منها الدافعية،ومنها القيمية،وفى ضوء ذلك كله كون بارسونز

ثلاثة أنساق تحليلية، هى النسق الاجتماعى، ونسـق الشخصية، والنسـق الثقافى.

ب- *النسق الاجتماعى :* ***Social system***

وقد نسب بارسونز للنسق عدة معان ، فهو يعرفه على أنـه عـدد من الأفراد الفـاعلين ، والذيـن يتفـاعل أحدهـم مـع الآخـر ، وقـد يكـون النسق الاجتماعى شبكة من العلاقات بين الأفراد . وقد يشير إلى الدوافع التى توجة عددا من الأفراد . وعلى أى حال فإن فهم النسـق الاجتمـاعى يتطلـب فـهم الموجـه الدافعـى للأفـراد ، لأنـهم يدفعـون بواسـطة الميـل للإشباع الأمثل للحاجات. أما القيم والمعايير فـهى مسـائل مركزيـة فـى نظرية بارسونز ، ولذلك فهو يقول إنـه ليس بالإمكـان وجـود موجـه نحو الموقف دون موجه قيمى .

جـ - *الثقافة :* ***Culture***

كانت آراء بارسونز فى الثقافة واضحـة ، فالثقافـة هـى نتـاج أو ثمرة من ناحية ، كما أنها محددة لأنساق التفاعل الاجتماعى من ناحيـة أخرى. ويتكون النسق الثقافى من :

١- أنساق الأفكار .

٢- أنساق الرموز التعبيرية .

٣- أنساق الموجهات القيمية .

د- *نسق الشخصية :* ***Personallity system***

يشير نسق الشخصية عند بارسونز إلى المراكز الاجتماعية للفاعلين، وأدوارهم الاجتماعية فى الموقف الاجتماعى . حيث يشير المركز الاجتماعى إلى مكانه الفاعل فى نسق العلاقات الاجتماعية . أما الدور فيشير إلى سلوك الفاعل فى علاقاته مع الآخرين . ويعتبر هذه الأدوار الاجتماعية هى التى يؤديها الشخص فى ضوء أنماط التوقعات المحددة ثقافيا .

ومن مجموع الأدوار المترابطة يتكون النظام الاجتماعى . وفى ضوء هذه النظره فإن النظم الاجتماعية تصبح بؤرة إهتمام علم الاجتماع، لأن الوظيفة الفعالة للنظم شرط للإستقرار الاجتماعى . ولذلك يجب أن تهتم النظرية الاجتماعية بعملية تكوين النظم الاجتماعية ، لأنها عملية تشكل رابطة بين المجتمع والثقافة من ناحية ، والشخصية والدوافع من ناحية أخرى . وهى تسهم فى جعل موجهات القيمة

نمطية، وتدخل أنساق القيمة فى شخصية الإنسان . وقد إستعان بارسونز بنظرية التحليل النفسى ومفاهيمها فى وصف هذه العمليات .

هـ – *بدائل النمط* : *Pattern Alternatives*

لعل نظرية ، أو فكرة بدائل النمط عند بارسونز تعتبر من أهم الإسهامات الأصلية التى قدمها ، ولقد أثارت كثيرا من الجدل . فهى تشير إلى البدائل التى تبدو فى إختيارات الأفراد . وقد أشار إليها بشكل مستمر دارسو التغير الاجتماعى ، والتنمية . وهى تتضمن خمسة أزواج من البدائل هى :-

١-العاطفية مقابل الحياد العاطفى .

٢-المصلحة الذاتية فى مقابل المصلحة الجماعية أو الجمعية .

٣-العمومية مقابل الخصوصية .

٤-الإنجاز مقابل العزو أو الانتماء .

٥-التخصيص مقابل الإنتشار .

فالنمط الأول يعتبر عاطفيا أو وجدانيا إذا كان يتيح الإشباع المباشر لحاجة الفاعل . بينما يعتبر محايدا وجدانيا إذا كان يفرض النظام، فمن أجل مصلحة الآخرين يتم التخلى عن العاطفية أو الوجدانية.

وفى النمط الثانى : يقول أن المعايير قد تجبر الشخص الفاعل على الاهتمام والسعى وراء مصالحه الخاصة ، أو تجبره على العمل من أجل صالح الجماعة .

وفى النمط الثالث : قد تشير مستويات القيمة إلى درجة كبيرة من العمومية ، بينما يشير المتغير الثانى إلى المستويات القيمية التى لها دلالة لفاعل معين فى علاقات معينة مع أشخاص معينين .

وفى النمط الرابع : إما أن يكون التأكيد على تحقيق أهداف معينة (الأداء أو الإنجاز) أو على خصائص الشخص الآخر كأن ينتمى الفاعل إلى عائلة أو طبقة معينة تمنحة مكانه متميزة .

وأخيراً من المكن أن تعرف مصلحة معينة على وجه التخصيص، بحيث لايكون هناك ثمة إلزام أبعد من الحدود . وقد تعرف بشكل عام بحيث تتجاوز الالتزامات تلك الحدود .

ومن حملة هذه المفهومات نجد أن نظرية بارسونز تؤكد الجانب المعيارى من الحياة الاجتماعية .فيرى أنه ينبغى أن ننظر إلى الفعل الإجتماعى كسلوك يتضمن موجهاً للقيمة ،ويتخذ شكل النمط بفعل المعايير الثقافية . والنمط الاجتماعى عنده يعتمد أو يرتد إلى نسق ثابت

من أنماط السلوك المترابطة . ويتوقع من دراسة النسق الاجتماعى أن يكشف عن حالة من الاطراد الثابت تقريبا ، ولهذا فإنه يتكلم عن بناء الفعل الاجتماعى ، وأن وظيفته هى دعم وجود أنماط السلوك والقيم .

وظائف النسق الاجتماعى :

يشير بارسونز إلى أن الأنساق الاجتماعية كى تستمر فى الوجود يجب أن تؤدى أربع وظائف ضرورية :

١- الوصول إلى الهدف .

٢- التكيف .

٣- التكامل .

٤- دعم النمط وحسم التوتر من خلال التوقعات المعيارية ووحدات المركز والدور ، والعلاقات الاجتماعية لكل الجماعات الدائمة .

(١) تحقيق الهدف :

يرجع السبب فى وجود كل نسق اجتماعى إلى أن الفاعلين بداخله متفقون على الهدف الذى ترمى إليه الجماعة . ومعنى ذلك أنه بداخل بناء الأنساق الاجتماعية يوجد إطار من الوسائل والغايات

ولذلك يوجد عنصر الرشاد فى كـل نسـق مـن العلاقـات المنظمـة لفـاعلين يشغلون أوضاع المركز الاجتماعى ، ويرتبط بعضهم مع بعـض مـن خـلال الصور المعيارية لتحقيق الغرض الجماعى . وهناك أهداف جمعية يجـب السعى من أجل تحقيقها ، وهناك وسائل خاصة لتحقيق هذه الأهـداف . ومن خلال تنظيم العلاقات الاجتماعية عبر الصوره التخطيطية للوسـائل والغايات يتجه النسق الاجتماعى نحو الأهداف التى وضعها لنفسه ، أو التى وضعتها له وحدة بنائية كبرى مثل المجتمع .

(٢) التكيف :

ينبغى أن يتكيف كل نسـق اجتمـاعى مـع البيئـة الاجتماعيـة ، والمادية التى يوجد فيها ، ومعنى هذا أن كـل بنـاء فرعـى داخـل البنـاء الكلى، يجعل من مهمة التكيف وظيفتـه الأوليـة . أى يخضـع الظـروف الخارجية لمشيئته ويسيطر عليها حتى يكـون مـن السـهل عليـه تحقيـق هدفه . فكل مجتمع قومى يريد ان يشعر بالأمن فـى المجتمـع الدولـى . ويتحقق هذا الهدف الأساسى عن طريق الحكومة ، وهى بناء فرعـى مـن المجتمع القومى ، وإن الاقتصاد ، وهو الآخر بنـاء فرعـى مـن المجتمـع القومى ، جـزء مـن وظيفـة تكيـف المجتمـع القومـى مـع البيئـة ، فقـد

ظهرت التكنولوجيا أثناء ممارسة الإنسان للنشاط الاقتصادى ، اى أنها ظهرت من خلال النظم الاقتصادية المختلفة . وتهدف التكنولوجيا فى الواقع إلى ضبط البيئة أو السيطرة عليها ، غير أن بعض الوسائل التكنولوجية ، مثل الطاقة الذرية ، نشأت بفضل الجهود التى بذلتها الحكومة ، أى أن بعض الأدوات التكنولوجية وجد بفضل الاقتصاد . وبعضها الآخر وجد بفضل الحكومة ، وهكذا يوضح المثال أن الوظائف الضرورية فى 'المجتمعات المعقدة يؤديها عدد من الأبنية الفرعية .

ومن الواضح أن وظيفتى التكيف وتحقيق الهدف متصلتان بطريقة ما بالبيئة الخارجية ، لأن ميكاينزمات التكيف ترتبط بقوى خارجة عن النسق الاجتماعى .

وكذلك قد يكون لتحقيق الهدف معنى عند وحدات البناء الاجتماعى الأخرى خارج الوحدة المرجعية المحددة . مثال ذلك أن إحدى الشركات قد تعمل على بناء مطار عسكرى ، وهذا الهدف الذى ترمى إليه الشركة قد يكون تكيف مع أهداف المجتمع القومى ، هذا المجتمع الذى قد يرى فى بناء هذا المطار وسيلة يستخدمها لربط بيئته وتحقيق أغراضة الوظيفية.ومعنى هذا وجوب الربط بين الوظائف التى

يؤديها أى نسق فرعى.لكى يحقق أهدافه بوظائف وأهداف الوحدات الاجتماعية الأخرى .

(٣) التكامل :

إذا كانت وظيفة تحقيق الهدف والتكيف تشيران إلى الروابط والعلاقات بين الجماعة وبيئتها ، فوظيفة التكامل لاتتناول سوى العلاقات التى تتم داخل النسق الاجتماعى بالذات فدراسة وظيفة التكامل تلقى الضوء الكافى على المنظور السوسيولوجى .

ولعل المقارنه بين الجماعات الانسانية ، والأنساق الاجتماعية عند الحشرات من العوامل المساعدة على إلقاء الضوء على هذا المنظور السوسيولوجى . مجتمع الحشرات يشترك مع المجتمع الإنسانى فى أداء وظيفة تحقيق الهدف ، ووظيفة التكيف . فكلاهما يقيم اقتصادا حيث يتم إنتاج وتوزيع واستهلاك عدد من السلع والخدمات . كما يعمل على استمرار النوع . وإلى جانب ذلك فمجتمع الحشرات كنسق اجتماعى يجب أن يتكيف مع البيئة الخارجية ، بما فيها من طقس ، وبيئة جغرافية ، وكائنات أخرى . ولكن إستمرار مجتمع الحشرات

فى الوجود قائم على أساس بيولوجــى ، لأن الحشـرات ترتبـط ببعضــها إرتباطا اجتماعيا بسبب الإستجابات ، وضرورات التفاعل التى تفرضــها أجسامها وغرائزها ، وجهازها العصبى . وبالتالى فإن سـلوكها وصورهـا الاجتماعية تعبر عن قوى بيولوجية ، وعضوية داخليــة ، أى أن تكـامل مجتمع الحشرات ودعم النمط فيه يتحقق من خلال العملية التكوينية.

ويختلف الإنسان عن الكائنات الحية الأخـرى ، مـن حيـث أنـه يتصف بالمرونة والتكيف ، والذكاء كذلك فإنه يخلق الثقافة ويوجد لهـا أسباب الإستمرار فى الوجود ، ويترتب على ذلـك أن الأبنيـة الجماعيـة لاتتماسك فــى حيـاة الإنسـان بطريقـة أوتوماتيكيـة ، ولكـن عـن طريـق التكامل المعيارى ، والمعانى الرمزية المشتركة ، الأمـر الـذى يلقـى عبئـاً ثقيـلا علـى الأنساق الاجتماعيــة عنـد الإنســان . ومــادامت الأنســاق الاجتماعية الإنسانية لاتعتمد على التساند البيولوجى ، فإنــه يجـب أن يقوم الفاعلون بإعادة تكاملها ، وإعادة مســاندتها ، وتجديدهـا .ومعنــى ذلـك أن ميكانيزمـات التكـامل تتطلـب إنتباهـا وجـهدا مســتمرين . لأن النسـق الاجتمـاعى إذا فشـل فـى أداء وظائفـة فلـن يسـتمر أى فـرد فــى الوجود.

ويشير التكامل إلى حالة قائمة بين الوحدات (أى الجماعات الفرعية) المكونة للنسق ، وبذلك يصبح النسق متكاملا إذا وجد التأثير المتبادل الوظيفى بين ثلاثة عناصر :

(أ)الوسائل الثابتة (أى المركز والدور)

(ب)الأهداف الشخصية للفاعل (مثل السعادة والأمن والمركز الاجتماعى) .

(ج)أهداف النسق كإنتاج السلع والتنشئة الاجتماعية .

ومعنى ذلك أن التكامل هو تركيز العلاقات داخل النسق لتحقيق التضامن والتماسك ، والإستقرار ، والنظام ، والإستمرار النسبى لنسق العلاقات. ومعنى ذلك أن عملية التكامل مستمرة لاتتوقف عند نقطة معينة، ومن الضرورى إستمرار تجديد ميكانيزمات التكامل ، فليس هناك فاعل يتلقى تنشئته اجتماعية كاملة ، كذلك لايوجد نسق اجتماعى متوازن تماما ، ومناسب للبناء الداخلى للعلاقات . وقد تكون الأهداف الشخصية مدمرة ومخربة لأهداف الجماعة ومقاصدها . الاجتماعية والإنسانية لأنها غير ثابتة بل متقلبة ، كل هذه تفرض علينا العمل على استمرار تجديد ميكانيزمات التكامل داخل النسق .

(٤) دعم النمط وإدارة التوتر :

يتصل دعم النمط ، وإدارة التوتر بالحالة الداخلية للنسق الاجتماعى فإذا كان التكامل يشير إلى العلاقات بين وحدات النسق (الفاعلون والجماعات الفرعية) ، فإن دعم النمط وإدارة الصراع تشيران إلى حالة الفاعلين أنفسهم . إن الشخص أو الفاعل الاجتماعى، يشغل وحدة المركز أو الدور ، وتتحدد صورته الأولية بالشكل المميز للتوقعات المعيارية . فق يكون الشخص اجتماعيا بصورة أساسية أو هامشية ، وقد يكون غير مؤمن ، وقد يشكو من الأنومى ، وفقدان المعايير . ويتضح من ذلك أن النسق إذا كان يضم عددا كبيرا من الفاعلين الذين يعانون من صراع الأدوار ، ولا ينسجمون مع المعايير ، فلن يوجد التكامل والإنسجام بين الصور الاجتماعية والضرورات ، والأغراض .

وحتى يكون الفاعل متكاملا مع البناء الاجتماعى لابد أن يكرس قدرا كبيرا من الإنتباه حتى تكون التنشئة الاجتماعية مناسبة وتبدأ التنشئة الاجتماعية فى مرحلة الطفولة ، وداخل الأسرة بالذات ، حيث يتم تشجيع الطفل على تعلم وتقبل الصيغ الفكرية والمعيارية المميزه لنسق الثقافة ، ثم يشارك بعد ذلك فى كل فى كل أنواع التدريب

والتعليم فى السياقات النظامية المتخصصة . والهدف النهائى من ذلك تحقيق التكامل المعرفى للفاعل مع القيم والأبنية والمعايير الاجتماعية للنسق .

كذلك فإن للشخصية بعدا آخر انفعاليا ، وبالتالى توجد داخل النسق توترات انفعالية يجب ضبطها وادارتها حتى لايحدث اضطراب فى أداء النسق لوظائفه العادية . وتتم إدارة التوترات والصراع فى بعض الأنساق فى مجال العلاقات التى يوجهها المتغير النمطى الأول وهو العاطفة أو الوجدان مقابل الحياد .

ومن ناحية أخرى توجد حدود يقف عندها احباط أو كبت أو ضبط التعبير الإنفعالى . فالأسرة كنسق اجتماعى تسمح بمجال واسع للتعبير عن التوتر . وبذلك تتيح فرصة للتعبير عن الإستجابة ، أو التعبير الإنفعالى ، وبذلك تخفف من التوتر ، ويترتب على ذلك أنها تساعد أعضاءها على أداء وظائفهم بقدر أكبر من الفاعلية فى المواقف الاجتماعية التى تتطلب الحسم الدقيق للتوترات .

نظرية التنظيم عند بارسونز :

يواجه التنظيم الكثير من المشاكل الوظيفية التى تواجهها كل الأنساق الاجتماعية ، ويؤكد بارسونز أن المشكلتين الأولى والثانية تنشآن عندما تتناول الوحدة (فردا أو جماعة ، أو نسقا) مشاكلها الخارجية أو المشكلتين الثالثة والرابعة . وان الإهتمام باحدى المشكلات من شأنه أن يزيد الضغط على الأخرى . فمشكلة التكامل تزداد مع الإحتياج إلى التكيف . كذلك تتزايد مشكلات دعم النمط بالإحتياج إلى تحقيق الهدف، والعكس صحيح ، بمعنى أن الإهتمام بالمشكلات الوظيفية الداخلية يزيد الضغط على المشكلات الخارجية .

ولكن التنظيم يختلف عن الأنساق الاجتماعية الأخرى ، من حيث إتجاهه فى المرتبة الأولى نحو تحقيق هدف نوعى محدد ، وهى خاصية تؤثر فى البناء الداخلى للنسق ، كما تؤثر فى علاقاته الخارجية . وهو يؤدى وظيفته الخاصة به داخل موقف أو بيئة مكونه من الأنساق الفرعية الأخرى . أى أن الموقف يتكون من العلاقات بين التنظيم وبين الأنساق المتخصصه الأخرى ، المتفرعه عن النسق الاجتماعى العام الذى يوجد فيه التنظيم .

كذلك فإن إنتاج أى تنظيم أو تحقيقه لأهدافه ينشأ عنه شـىء قـد يستخدمه نسق آخر . فإنتاج التنظيم هو فى نفـس الوقـت طاقـه ومـوارد يستخدمها نسق آخر . فالإنتاج فى التنظيم الاقتصادى يتمثل فى عدد من السلع والخدمات التى تستهلكها تنظيمات أخرى فى عملية الإنتـاج كمـا أن الإنتاج فى الوحدات والهيئات الحكوميـة يتمثـل فـى مجموعـة مـن القرارات ، وفى التنظيم التربوى يتمثل فى كفـاءة وتقـدم التلاميـذ . أى أنه من الضـرورى فـى كـل مـن هـذه الحـالات وجـود نتـائج ناشـئة عـن العمليات التى تجرى داخل التنظيم ، وهذه النتائج قد تغير مـن وظيفـة الأنساق الأخرى داخل المجتمع .

وتنشأ التنظيمات عن ظاهرة تقسيم العمل فى المجتمع ، لأنه لـو كان الإنتاج والإستهلاك يتمان فى وحدة بنائية واحدة فلا توجد ضـرورة لكـى تتبـاين التنظيمـات المتخصصـة عـن بعضـها . أمـا فـى المجتمعـات البدائية حيث الإكتفاء الذاتى بالمعنى الاقتصادى للكلمة ، فإنـه لايوجـد بها تنظيمات متباينة بالمعنى الذى ذكرناه .

وإن ما يعتبر هدفا متخصصا بالنسبة للتنظيم ، يعتبر فى الوقـت نفسه وظيفة متخصصة بالنسبة للنسق العام أى أن المجتمع الـذى يوجـد

فيه التنظيم . كما يعتبر التنظيم جزءا من هذا النسق العام ، أو نسقا فرعيا منه ، وهذه العلاقة هى الرابطة الأولية بين التنظيم والنسق العام.بل هى الأساسى الذى يقوم عليه تصنيف التنظيمات .

فالتنظيم كما يعرفه ألفريد مارشال هو فى جوهره عملية ربط عوامل الإنتاج بطريقة محددة لتسهيل تحقيق هدف التنظيم بصورة فعاله ، كما يشير إلى عملية إعادة تكييف أنماط التنظيم نفسه ، وهى عملية كامنة فى عمليات التغير البنائى للتنظيم . وعلى هذا فالتنظيم بالمعنى الإقتصادى عامل هام فى كل الوظائف التنظيمية ، ويلعب دوراً هاما فى مراحل إقامة التنظيم . وفى المراحل التالية أيضا .

ويتضح من كل ذلك أن التنظيمات هى الميكانيزم الأساسى فى التحقيق الفعال لأهداف مجتمع متفاعل ، تلك الأهداف التى لا يستطيع الفرد وحدة تحقيقها . والظاهرة الأساسية أن التنظيم يعبىء القوة لتحقيق أهدافه ، ولو أن نسق القيم يجعل هذه الأهداف شرعية (لأن القوة أو القدرة العامة للتنظيم تجعل تحقيقها أمرا فعالا) .

ويطور بارسونز هذه الأفكار ليوازى بين القوة أو القدرة على تحريك الموارد فى المجال الاقتصادى والقدرة السياسية ومايتولد عنها من طاقات محركة للتنظيم والنسق العام . فتوليد القوة وممارستها هدف

هام للغاية بالنسبة للأهداف العامة للمجتمع كالإنتصار فى الحرب . وكذلك فإنها (القوة) تستخدم فى الحياة اليومية لتحقيق أكبر قدر من الأهداف الفرعية . والقوة مثل الثروة مورد اجتماعى هام وعام توزع على عدد كبير من الأنساق الاجتماعية الفرعية من أجل الإستهلاك أو إستثمار رأس المال . فكل تنظيم مهما كانت وظيفته جزء من السياسة، ومولد للقوة أو القدرة ، كما أنه يستقبل القوة التى يتم توليدها فى المستويات العليا من النظام السياسى،ويتحدث بارسونز عن شروط توليد القوة وهى:

١)إقامة وتأسيس نسق قيمى يجعل هدف التنظيم مشروعا .

٢)تنظيم عمليات الإستغلال وإتخاذ القرارات فى التنظيم بإعتبارها قواعد عامة.

٣)طلب المساندة اليومية من الأشخاص الذين تعاونهم .

٤)طلب التسهيلات الضرورية وهى تسهيلات مالية بالدرجة الأولى .

ويشير بارسونز إلى أن الأحزاب االسياسية فى أمريكا أصبحت تعكس صورة أو شكل الشرط الأول ، من حيث أن هذه الأحزاب تقيم رابطة ايجابية مباشرة مع الحكومة ، ومع النسق القانونى .

إن تالكوت بارسونز يشير إلى أن النهج الذى قدمه يتميز بتناسق صورى . فقد تناول نسق القيمة بإعتباره يحدد أهداف التنظيم ويجعلها شرعية . كما أن القيم الفرعية تنظم ميكانيزمات التكيف ، وتحقيق الهدف ، والتكامل فى التنظيم . وكل نمط تعاقدى كالتوظيف والاستثمار ينظم كل نمط من الموارد الأولية ، وكل ناحية أو جانب من جوانب السلطة تنظم الأجزاء الشرعية الفعالة . وأخيرا كل ناحية من نواحى إقامة العلاقات الثابتة المستقرة تحدد ولاء المشتركين نحو التنظيم عند مقارنته بالإلتزامات الأخرى .

هذه الأفكار وغيرها ، توضح مدى إسهام بارسونز فى نظرية علم الاجتماع . ورغم أى انتقادات توجه إليه فهى لاتقلل من أهمية أعماله. وقد ظل بارسونز ينادى حتى وقت قريب بأنه وضع نظرية عامة فى التغير الاجتماعى . ولقد أفاد كثيرون من علماء الاجتماع من الخطوط الأساسية للتفكير النظرى عند بارسونز ، كذلك يتجلى تأثيره على غيره من العلماء الألمان ، وقد إتضح ذلك فى كثير من المؤلفات الألمانية الحديثة، كذلك ظهر هذا التأثير فى ترجمة بعض مؤلفاته إلى الفرنسية. وعلى الرغم من هذه الأهمية إلا انه تجدر الإشارة إلى أن فكره لم يكن

تجديدا متميزا فى علم الاجتماع المعاصر ، فهناك أوجه شبه بينه وبين مؤلفات غيره من المعاصرين ومن بينهم سوروكين .

ثالثا :رايت ميلز : Wright Mills

شغل رايت ميلز كرسى أستاذ علم الاجتماع فى جامعة كولومبيا ولعل تأثيره فى علم الاجتماع فى الوقت الراهن أعظم بكثير من تأثيره أثناء حياته . بل أن هذا التأثير لا يزال فى تزايد مستمر . ويرجع ذلك إلى تحليله للأوضاع الاجتماعية بصفة عامة ، والأوضاع الاجتماعية فى أمريكا بصفة خاصة ، تحليلا يقترب من الصحة ، كما أن الموضوعات التى كرس لها إنتباهه منذ الخمسينات تبدو الآن فى صورة أكثر حدة والواقع أن عناوين مؤلفاته تعكس المسائل الأساسية فى المجتمع المعاصر على حد قوله ، ومن أهمها طبقة ذوى الياقات البيضاء ، وصفوة القوة ، وأسباب الحرب العالمية الثالثة والخيال السوسيولوجى ، والماركسية .

وتشهد تحليلاته لهذه الموضوعات عن مدى وعيه وإدراكه لأهميتها فى المجتمع . كما أن إسهامات ميلز فى الفكر السوسيولوجى، والنظرية السوسيولوجية تتناثر فى كثير من كتاباته ، ولكن يمكن

الإطلاع عليها باستفاضه فى كتاب " القوة والسياسة والمجتمع " ، الذى حررة هورفيتش Horwitz .

وقد عرض نظرية فى كتاب اشترك فى تأليفه مع هانز جيرث Hans Gierth ، وهو الشخصية والبناء الاجتماعى . واستخدم مفهوم الدور الاجتماعى كمفهوم مركزى للمجتمع ، ويراه كبناء يتكون من عدد كبير من الأدوار التنظيمية . كما يمكن تحليل البناء الاجتماعى الكلى إلى عدد من الأوضاع التنظيمية ، والسياسية ، والدينية ، والاقتصادية وغيرها. وقد استخدم هذا المفهوم ليوحد بين النظريتيين السيكولوجية، والسوسيولوجية بطريقة قريبة من طريقة بارسونز . ويشير مصطلح الشخصية فى هذا المؤلف إلى الفرد ككيان كلى يمكن التمييز فيه بين الكائن العضوى ، والبناء النفسى ، والشخصى ، أما الانسان الذى يلعب دورا معينا فى المجتمع . ويتم تفسير الدور من خلال الرأى القائل أن المجتمع كبناء مكون من عدة أدوار مرتبطة بنظم مختلفة . ويرى المؤلفان فى هذا الكتاب أنه يمكن تحليل البناء الاجتماعى الكلى إلى أنواع تنظيمية كالاقتصادية ، والسياسية والدينية كما قلنا من قبل. ويعترف بهذه الأنواع كإرتباطات بين النظم تكون لها نتائج أو غايات متشابهة . وتعتبر درجة استقلال الأنواع التنظيمية موضوعا للبحث فى أى مجتمع

من المجتمعــات . ولكننـا نجـد دائمـا أن هنـاك بعـض جوانـب السـلوك الاجتماعى تميز جميــع الأنـواع التنظيميـة ، ونعنـى بـها التكنولوجيـا والرموز والمكانه ، والتعليم . وفى مقابل ذلـك نجـد جوانـب أخـرى مـن الحياة الاجتماعية غير قابلـة للتعريـف فـى ضـوء مفـهومى البنـاء ، أو النوع التنظيمــى ، حيـث أن هنـاك أنواعـاً مـن التفـاعل لايمكـن القيـاس عليها .

(١) الإتفاق Correspondence

وهو مفهوم يعنى توحيد المجتمع عن طريق أساس مشترك يؤدى عمله بأسلوب متواز فى كل الأنواع التنظيمية .

(٢) الإنطباق Coincidenee

وهـو عبـارة عـن حالـة يتـم التوصـل إليـها إذا أظـهرت الأنــواع المتباينة بعض العناصر البنائيـة المختلفـة ، التـى تـؤدى إلى وحـدة غـير مكتمله أو جزئية ، وهذه تتمثل لنا فى ظهور الرأسمالية الحديثــة بعـد سقوط النظم الإقطاعية ونمو أطر تشريعية وإدارية جديدة

(٣) التنسيق Coordination

ويشير إلى تكامل المجتمع عن طريق شكل تنظيمــي معـين يطغــي على غيره من الأشكال مثل الديكتاتورية .

(٤) التقارب Covergenee

وتتم هذه الحالة عندمـا يتلاقـى نـوع تنظيمـى أو أكـثر إلى الحـد الذى تصبح فيه منصهرة مـع بعضـها . وكمـا يتضـح فـهى عمليـة عكـس التباين . كذلك يتضح أن لعرضها لمشكلة التكامل يقربهما مـن الوظيفيـين وعلماء الاجتماع النظرى فى وقت واحـد . وقـد إتسـم هـذا الكتـاب بأنـه ينطوى على تحليلات متداخله مع المادة التاريخية ، ولكن هدفـهما كـان سوسـيولوجياً ، وهـو تنـاول قضايـا قابلـة للتطبيـق العملـى ولم يكـن إهتمامهما بالمادة التاريخية الفريدة بنفس طريقة علماء التاريخ .

رابعا : روبرت ميرتون Robert Merton

حاول روبرت ميرتون أن يجمع بين المدخـل النظـرى ، والمدخـل الأمبيريقى (الواقعى) فى دراسة المشـكلات الاجتماعيـة . ولقـد كـانت كتاباتـه تتـم بأسـلوب متمـيز وجاذبيـة متفـردة ، ولقــد حقــق كتابــه "النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى" شهرة واسعة خارج أمريكا لما إنطوى عليه من مميزات لاتتوفر لمؤلفين آخرين . ولقد أدرك ميرتون عدم

ملاءمة الإتجاه الامبيريقى المجرد ، والتنظيم الميتافيزيقى ، لذلك عرض نموذجا خاصا من النظرية أسماه " نظرية المدى المتوسط " Medium Range Theory وهى نظرية تتلافى سطحية النظرية غير القابلة للإختبار الواقعى وتكون فى نفس الوقت امبيزيقية وهو يقصد الإشارة إلى أن علم الاجتماع لا يستحق أن يسمى علما ما لم يبدأ بفكرة أو نظرية . ولكن عند إجراء الدراسة الامبريقية ، فإن هذه الفكرة أو النظرية قد تحتاج لتعديل . وبالتالى إذا بدانا بفكرة أو نظرية فإنه لاينبغى النظر إليها إلا على أساس أنها تجربة عرضة للتعديل فى ضوء الدراسات التالية :

ويصنف ميرتون بين الوظيفيين على الرغم من أنه وجه انتقادات شديدة لبعض جوانب الفكر الوظيفى . وقد عرف الوظيفية

بأنها " النتائج المشاهدة المسئولة عن تكييف أو توافق نسق معين" وليس هذا تعريفا كافيا ، لأن المشاهد لأى نظام أو عرف فى المجتمع لا يوضح لنا دائما أسباب وجوده . كما أنها لا توضح لنا أصلة ، ولا تدلنا عن تكيف أو توافق نسق معين مرتبط سببيا أو منطقيا بهذه النتائج .

وعلى كل حـال فقد أسـهم ميرتون إسـهامات هامـة فـى مجـال النظريـة الوظيفيـة ، مـع تمييـزه بـين الوظـائف الظـاهرة ، والوظـائف الكامنة أو المستترة ، تشير الوظائف الظاهرة إلى النتـائج الموضوعيـة لأى نظام اجتمـاعى أو ممارسـة يقصدهـا المشـاركون ، فـى حـين أن الوظيفـة الكامنة تشير إلى النتـائج غـير المقصـودة . ولاشـك أن هـذا التمييـز أمـر أساسى ، وله قيمة بالغة ، لأنه يلفت الإنتباه إلى الوظـائف التـى كـانت موضوع تجاهل مستمر . وأورد ميرتون كثيرا مـن الأمثلـة التوضيحيـة ، فالوظيفة الواضحة كالإستهلاك الاقتصادى هو الإستخدام ، ولكن من بين وظائفه الكامنة دعم الهيبة أو الكبرياء . ولقد كرس ميرتون فصلا بأكمله لوصف السياسة الحضرية فى أمريكا . هذه السياسة التى تشبع حاجـات معقدة لجماعات مهملة قد تجاهلتها النظم الرسمية . ويصر ميرتون على أن من الخطأ الافتراضى بأن تلك الحاجات تشبع بطريقـة مختلفة فى ظل نظام أساسى مختلف ، لذلك فإن من الضـرورى دائمـا أن نـدرك إمكانيـة وأهمية البدائل الوظيفية .

وكذلـك استخدم ميرتون مفـهوم " الخلـل الوظيفـــى " أو ســوء الوظيفةDiesfunction لتعريف النتائج المشاهدة ، والتى نلاحـظ أنـها تقلل من تكيف وتوافق النسق وتزيد التوتر والصراع فى المجتمع .

ويعتقد ميرتون أن هذا المفهوم يوفر طريقــة لتحليـل الديناميـات والتفســير . وقــد يكــون مــن النــافع إضافــة مفهومــه الثــالث وهــو "اللاوظيفية". وهو مصطلح يشير إلى تلك الحالات المتعددة لإستمرار تلك الأعراف والتشريعات التى ليس لها ضـرورة او وظيفـة واضحـة ، ومـع ذلك لا تدخل ضمن ما أطلق عليه الخلل الوظيفى .

وهكذا فقد تناولنا على سبيل المثـال أربعـة مـن علمـاء الاجتمـاع الأمريكيين ، وقد كشف العرض كيـف أن الدراسـات فـى هـذا العلـم قـد تطـورت فـى أمريكـا متـأثرة بالدراسـات التـى أجريـت فـى غيرهـا مـن البلدان، ولقد حققت إسهامات هؤلاء العلماء إزدهــاراً لتيـارات جديـدة وهامة فى علم الاجتماع ، فضلا عن الميادين الجديدة .

الفصل السابع

مجالات حديثة فى علم الاجتماع

محتويات الفصل

مقدمة :

أولاً :السياسة والمجتمع .

ثانياً : الاقتصاد والمجتمع .

ثالثاً : الاتصالات والأعلام .

رابعاً : التنمية .

مقدمــة :

الواقع الاجتماعى يمثل المسـرح الـذى تتفـاعل فيـه العلـوم الاجتماعيـة والإنسـانية . كمـا أن هـذا الواقـع يحـدد منظـورات الدراسة ومداخلـها كمـا يحـدد ومناهجـها وأدواتـها . ولعـل علـم الاجتماع يأتى فى مقدمة العلوم التى تهتم بـالمجتمع بكـل أبعـاده ومجالاتـه ، علـى الرغـم مـن أن هـذه المجـالات قـد تبـدو ضمـن اهتمامات فروع اجتماعية أخرى .

وإن التطورات التى تضع أوزارهـا فـى الحيـاة الاجتماعيـة علـى المسـتوى العـالمى والإقليمـى والمحلـى ، فرضـت علـى علـم الاجتماع أن يطور مجالات الدراسة ، ويرتاد آفاقاً لم تكـن ممـهدة منذ نشأة هذا العلم ، ولم يعد تركيزه على القضايا التقليديـة التـى لازمته فى مرحلة النشأة ، فهذا هو مجـال السياسـة ، والاقتصـاد والثقافـة ، والتنشـئة ، والتفـاعل ، والقـانون ، والـرأى العـام ، والاتصـال ، والجريمـة وغيرهـا مـن المجـالات ، أصبحـت اليـوم تحظى باهتمام علم الاجتماع الحديـث . وقـد طـور هـذا العلـم مـن المنـاهج والأدوات والمداخـل النظريـة مـا يعـين علـى سـبر أغـوار الحياة الاجتماعية فى هذه المجالات .

ولعل دور الخبير الاجتماعى فى الدول المتقدمة ، أكثر اتساعاً منه فى الدول المتخلفة ، فدوره محورى فى كثير من المشكلات التى تطرأ على مسرح الحياة العامة والخاصة . وإن استمرار البحث وتتابع الجهود النظرية والميدانية هو الذى مهد الطريق أمام هذا العلم لتناول قضايا لم يكن يهتم بها كثيرين .

فعلم الاجتماع يسعى لتحقيق التكامل بين المراحل النظرية المختلفة فى دراسة المجتمع . ويحاول الخروج بمواقف شاملة تأخذ بتعدد الأبعاد ، وعدم الفصل بين جوانب الحياة الاجتماعية إلا لأغراض التحليل .

ومن هنا فإنه يتعين على دارسى الاجتماع أن يقفوا على أسلوب هذا العلم فى ارتياد المجالات الجديدة التى تعاظم الاهتمام بها فى العصر الحديث . لذلك أردنا أن نقدم فى هذا الفصل لمحات مختصرة عن هذه المجالات وأسلوب علم الاجتماع فى التعامل معها .

ويتناول هذا الفصل بعض المجالات الحديثة التى تطرق إليها علم الاجتماع على سبيل المثال وليس الحصر :

أولاً : السياسة والمجتمع :

من بين أكثر الظواهر انتشاراً فى الحياة الاجتماعية المعاصرة ، تعاظم الدور الذى تلعبه السياسة فى الحياة المادية والثقافية للإنسان ، فالسياسة تؤثر فى الاقتصاد ، وفى شكل وتوزيع السلع المادية ، وفى الأيديولوجيا ، والثقافة والأخلاق ، والأسرة ، وأسلوب الحياة ، وباختصار تؤثر فى كافة جوانب الحياة الاجتماعية ، هذا فضلاً عن أن الأحداث السياسية المعاصرة التى شملت الثورات الاجتماعية وتكوين الأنظمة الاشتراكية وغير الاشتراكية وتفكك الإمبراطوريات الاستعمارية ونشأة الدول القومية والصراع الطبقى والدولى والتغير فى أساليب الاتصال والتكنولوجيا العسكرية ، قد جعلت هذه الأحداث من الظاهرة السياسية قوة اجتماعية ومحوراً لاهتمامات الباحثين[1].

ويعتبر علم الاجتماع من أهم العلوم الاجتماعية التى ترتبط بعلم السياسة ، إذا أن ميدانهما يكاد يكون واحداً ، وإن اتسع نطاق ومدى دراسات علم الاجتماع كثيراً عن مثيله فى علم السياسة ، فعلماء الاجتماع ينظرون إلى الدولة التى تمثل صلب

---

(١) محمد على محمد ، أصول الاجتماع السياسى : السياسة والمجتمع فى العالم الثالث ، جـ١ ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ص ٤٦-٤٧

الدراسة فى علم السياسة ، على أنها أحد النظم الاجتماعيـة التـى يتناولها علم الاجتمـاع بالدراسـة ، ونتيجـة لهـذه العلاقـة ظـهر فرع جديد من فروع علم الاجتماع يجمع بـين علـم الاجتمـاع وعلـم السياسة هو علم الاجتماع السياسى Political Sociology[1].

ويلتقـى مصطلـح علـم الاجتمـاع السياسـى بمصطلـح علـم السياسة إلى حد كبير فيما عـدا أن المصطلـح الأول يتعـدى المصطلـح الثـانى بالالتفـات إلى وجهـة النظـر العلميـة الموضوعيـة الشـاملة التـى تبـدأ مـن تداخـل الظواهـر السياسـية وتسـاندها مـع غيرهـا مـن ظواهـر المجتمـع ، ويوجـد مفـهومان يتصارعـان حـول الاسـتحواذ علـى مضمـون علـم الاجتمـاع السياسـى الأول هـو علـم الدولـة Science Of State ، والثـانى يدعـى أنـه علـم القوة Science Of Power[2].

ولقـد عكـس الاهتمـام بقضايـا القـوة السياسـية والتنظيـم والسلطة ، محاولات المفكرين الاجتماعيين علـى مختلـف العصـور لإيجاد صيغة مناسبة لما ينبغى أن يكـون عليـه النظـام الاجتمـاعى والسياسى العام . ولقد أسهمت هذه المحـاولات فـى وضـع البـذور

---

(١) إسماعيل على سعد ، المجتمع والسياسة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٩٠ ، ص ص ١٧-١٨ .

(٢) محمد عاطف غيث وآخرون ، مجالات علم الاجتماع المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط١ ، ١٩٨٢ ، ص ص ٣٢٣-٣٢٤ .

الأولى لعلم الاجتماع السياسى ، وبخاصة فى ناحيتين رئيسيتين هما أخلاقية فلسفية ، وتاريخية مقارنة ، إذ انتقلت الاهتمامات الأخلاقية الفلسفية من الفلسفة اليونانية إلى كافة فلسفات العصور الوسطى - مسيحية ويهودية وإسلامية ثم التحما معاً ، وأضيفت إليهما عناصر جديدة مثل القوانين الرومانية وأسهما فى صياغة التيار الأول للفكر السياسى الحديث عند ميكافيلى وهوبز ولوك وروسو[1].

أما التحليل المقارن ، فعلى الرغم من أنه لم يكن منتشراً فى أواخر العصر الوسيط وبداية العصر الحديث ، إلا أنه شهد حركة إحياء فى القرن التاسع عشر فى أعمال المؤرخين من أمثال " جيبون " Gibbon وفلاسفة التاريخ مثل فيكو Vico ، وفوق ذلك كله عند أصحاب الاتجاه المقارن القدامى مثل ، "مونتسكيو" والأخلاقيين الاسكتلنديين من أمثال "آدم سميث" "وفيرجسون" وغيرهم ، ويلاحظ على هذا الاتجاه أنه قد أخذ يهتم بمختلف النظم الاجتماعية فى محاولة لدراسة التكوينات الاجتماعية والاقتصادية والأسرية فيها ، وذلك بالطبع على الرغم من أن محور الاهتمام قد ظل هو التحليل السياسى للدولة ، إلا أن الظاهرة الجديرة بالاهتمام فى هذا الصدد هى بداية وجود نوع

---

(١) محمد على محمد ، أصول الاجتماع السياسى ، جـ١ ، مرجع سابق ، ص ٤٧ .

من الاهتمام بالعلاقات المتبادلة بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعية ، وبينها وبين الظروف البيئية المحيطة(١).

ومع ذلك ، فعندما تحولت هذه الصور والأشكال من الفكر الفلسفى الاجتماعى إلى فكر اجتماعى حديث ، أخذت التيارات المقارنة والتيارات الفلسفية الأخلاقية ، بل والاهتمامات السياسية تتوحد معاً داخل إطار فكرى واحد تقريباً هو علم الاجتماع السياسى ولعل أهم ما يميز هذا التحول هو الانتقال من تأكيد الجوانب الفلسفية والاهتمامات الفكرية الأخلاقية إلى تأكيد النواحى السوسيولوجية ، ثم تطور علم الاجتماع السياسى ذاته فى إطار علم الاجتماع العام . وهكذا بدأ ينظر إلى ما هو سياسى على أنه يمثل نظاماً اجتماعياً واحداً مهما بلغت درجة أهميته(٢).

فمع ظهور علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر ، وبداية التفكير العلمى فى شئون المجتمع تحولت هذه التيارات الفلسفية والتاريخية المقارنة إلى تيار علمى ينظر إلى السياسة على أنها نظام اجتماعى ضمن نظم عديدة فى المجتمع ، واشتمل هذا التحول على تحولات عديدة فيما يختص بطرح مشكلات

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٤٧-٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

السياسة والمجتمع ، ومن هذه التحولات ما يلى: [١]

١- بدأ الفكر الاجتماعى السياسى يركز على التباين بين النظم السياسية والنظم المدنية ، فالمجتمع المدنى أصبح فى نظر المفكرين السياسيين كياناً مستقلاً متميزاً يشتمل فى داخله على النظام السياسى كأحد العناصر المكونة . ولقد ساهم فى تطوير هذه التفرقة على أساس علمى علماء الاجتماع فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من أمثال " سبنسر " و " باريتو " و " دوركايم " و " ماكس فيبر " و " كارل مانهايم " .

٢- بدأ الاهتمام باختلاف أنماط السلوك الفردى واختلاف التوجهات التى تحكمه باختلاف النظام الأخلاقى والدينى واختلاف النظام السياسى الاجتماعى واختلاف نظام حياة الأفراد أنفسهم ، وترتب على ذلك إمكانية النظر إلى الأفراد لا على أنهم من طراز واحد ، وإنما على أنهم مختلفون من حيث التوجهات والالتزامات التى تحكم سلوكهم ، وأن هذا الاختلاف لا يمكن أن يفسر فى ضوء الفروق الفردية فقط ، وإنما فى ضوء خضوع هؤلاء الأفراد لنظم اجتماعية وسياسية

---

(١) محمد الجوهرى ، المدخل إلى علم الاجتماع ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٤ ، ص ص ٣٤٧-٣٤٨ .

ذات طبيعة ميدانية ، وترتب على ذلك ظهور الاعتقاد بأنه لا يوجد نظام سياسى اجتماعى كامل تماماً ، وبالإمكان المقارنة بين النظم المختلفة وفقاً لدرجة توافقها مع أنماط مثالية ، ولقد ساهم مفكرو العقد الاجتماعى من أمثال " روسو " و "لوك " فى تدعيم هذه الفكرة كما ظهرت فى أعمال" فيرجسون " و " آدم سميث " .

٣- ترتب على ذلك أن أدرك الفكر السوسيولوجى مدى التنوع فى أنماط النظم الاجتماعية والسياسية ، وقابلية هذه النظم للتغير تحت ظروف تاريخية معينة ، ولقد استفاد تراث علم الاجتماع فى هذه النقطة من أعمال أرسطو ، ولكنه تجاوز أرسطو عندما نظر إلى هذا التنوع دون الخلط بين ما هو سياسى وما هو اجتماعى مع الاهتمام بالعلاقات المتبادلة بين الاطر الثقافية ونمط النظام السياسى ، وتفسير التغيرات التى تعترى النظام السياسى كأحد الميكانيزمات الفاعلة فى تنوع النظم السياسية .

٤- اهتمت النظرية السوسيولوجية فى السياسة بأهمية العوامل البيئية فى التأثير على النظم السياسية على تنوعها ، وقد أدت هذه التحولات إلى أن يهتم علم الاجتماع لا بالبحث عن

الظروف الطبيعية للنظام الاجتماعى فقط – أى بالبحث عن الخصائص العامة للمجتمع كحقيقة أخلاقية طبيعية – وإنما بالبحث أيضاً عن الظروف والميكانيزمات الداخلية للنظام الاجتماعى ، ومدى تغيره أو استمراره فى الوجود ، وبدأ علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر يتجهون ببحوثهم ودراساتهم نحو رصد التحولات التى طرأت على المجتمع الرأسمالى ،و تغير نظمه الاجتماعية والسياسية على إثر تحوله من النظام الإقطاعى القديم إلى النظام الحديث .

وهكذا فإن علم الاجتماع السياسى يستمد مبررات وجوده من حقائق هذا العصر سواء فى العالم المتقدم ، أم فى العالم المتخلف ، تلك الحقائق التى تشير بكل وضوح إلى أن أفضل فهم يمكن أن نحققه للحياة السياسية هو أن ندركها باستمرار داخل النسيج المتكامل للبنية الاجتماعية والثقافية ، ومن ثم تكون التفرقة التى يقيمها علماء السياسة بين السياسة polity والمجتمع Society هى تفرقة مضللة وغير مفيدة ، لأنها تنهض على فصل تعسفى بين مكونات جسد اجتماعى واحد ، إذ أن النظام السياسى لا يمكن أن يكتب له البقاء والاستمرار فى الوجود بعيداً عن المجتمع ، وإذن فالظاهرة

السياسية تكتسب معناها ومبناها من الوجود الاجتماعى الكلى الذى تنشأ فيه ، وهناك علاقة خلق متجدد لهذه الظواهر حينما تتفاعل مع الوجود الاجتماعى ، وداخل سياق تاريخى خاص . وربما تفيدنا هذه الحقيقة فى فهم أبعاد العلاقة السياسية بين دول العالم المتخلف وبين الدول المتقدمة ، فمن العسير زرع النظم السياسية فى دول العالم الثالث ، كما توجد بالفعل فى الدول الغربية المتقدمة ، إذ غالباً ما تحظى هذه النظم بالرفض وعدم القبول ، وتحاول الدول النامية أن تطور أنظمة وأجهزة سياسية تعكس طبيعة القوى الاجتماعية السائدة فيها ، ويستطيع المتتبع لحركات التحرر الوطنى فى الدول النامية أن يلمس المقاومة التى كانت تبديها هذه الشعوب للنظم السياسية التى كان يحاول الاستعمار زرعها فى هذه الدول[1].

فيولى المدخل السوسيولوجى لدراسة النظم السياسية اهتماماً خاصا بفكرة النظم الاجتماعية عموماً ، أو بالنظام الاجتماعى الشامل ، ومعالجة النظام السياسى بوصفه نظاماً فرعياً داخل المجتمع . ويجمع أغلب الدارسين فى العلوم الاجتماعية على أن هناك فى الواقع مجموعة من العلاقات تربط

---

(١) محمد على محمد ، أصول الاجتماع السياسى ، جـ١ ، مرجع سابق ، ص ١٤-١٥ .

النظم الاجتماعية ، وينطبق ذلك على كافة المستويات سواء على مستوى العلاقات الموجودة بين النظام السياسى وسائر النظم الاجتماعية الأخرى ، أو على المستوى الداخلى للنظام السياسى ذاته[١].

ويهتم علم الاجتماع السياسى فى دراسته للسياسة بعدد من القضايا من أهمها من يلى :[٢]

١- **الطابع الاجتماعى للنظام السياسى :** اهتم علم الاجتماع السياسى بتحديد خصائص النظام السياسى والعلاقات المتبادلة بينه وبين نظم المجتمع الأخرى ، والظروف التى تؤدى بالنظم السياسية عامة – أو بطراز معين منها إلى الثبات أو التغير . فالنظام السياسى فى أى مجتمع ليس نظاماً يعمل فى فراغ ، أو أنه يعمل فى ضوء عملياته الداخلية فقط ، فهو يوجد فى قلب مجتمع، وتتحدد وظائفه وأهدافه وخصائصه فى ضوء طبيعة المجتمع وثقافته ، ومن ثم فإن تحليل النظام السياسى وما يرتبط به من سلوك سياسى وما يعمل داخله من جماعات سياسية يصبح تحليلاً أوسع وأشمل إذا ما تم فى ضوء السياق العام للمجتمع .

---

(١) سامية محمد جابر ، علم الاجتماع المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ٢٢٣ .

(٢) محمد الجوهرى ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥٠ – ٣٦٢ .

٢- **دراسة بناء القوة** : أصبح مفهوم القوة أحد المفهومات المحورية فى دراسات علم الاجتماع السياسى . ويتأسس فهم علم الاجتماع السياسى لمفهوم القوة على فكرة أن التفاعل الاجتماعى بين الناس فى المجتمع يشتمل على ممارسة القوة . فكما ذكر أحد علماء الاجتماع " فإن كل سلوك اجتماعى ما هو إلا ممارسة للقوة ، وتحتوى كل علاقة اجتماعية على معادلة قوة ، وكل نسق اجتماعى ما هو إلا تنظيم للقوة وكذلك كل جماعة اجتماعية "

٣- **التحليل المقارن للنظم السياسية** : أدت الدراسات التى أجريت حول خصائص النظم السياسية وبناء القوة إلى الاهتمام بطبيعة الاختلافات بين النظم السياسية التاريخية والمعاصرة ، وقد أدى هذا الاهتمام بدوره إلى تطور اتجاه نظرى وامبيريقى داخل علم الاجتماع السياسى يهتم بالمقارنة بين أشكال النظم السياسية المختلفة ، ولا يمكن تحقيق هذه المقارنة إلا من خلال مجموعة من المحكات يمكن فى ضوئها إجراء المقارنة . ولقد ميز "أيزنشتات " على سبيل المثال بين ثلاث مجموعات من المحكات تفيد فى عملية المقارنة بين النظم السياسية ، تتصل المجموعة الأولى بطبيعة النظام السياسى وخصائصه ، وتتصل المجموعة الثانية بأسلوب عمل النظام السياسى ، وتتصل المجموعة الثالثة بأهداف النظام السياسى .

وهكذا تبدو علاقة العلوم السياسية وثيقة بعلم الاجتماع، فاهتمامات عالم السياسة تدور حول الأسباب الاجتماعية للاختلافات بين الأيديولوجيات السياسية ، وآثار التغير الاجتماعى على النظم السياسية ، وما يتبع ذلك من سياسات فضلاً عن اهتمام علم الاجتماع السياسى بمشكلات الثقافة السياسية كالثورة والحرب الأهلية والتدخل العسكرى فى السياسة . ويرجو عالم السياسة من دراسات علم الاجتماع تفسير الظواهر السياسية المعنية بينما يحاول عالم الاجتماع أن يوسع دائرة تفسيراته . بحيث تتناول ظواهر المجتمع فى نطاقها الأوسع والتى تبدو فيها " القوة السياسية " كمجرد عنصر واحد قد يتساوى من الناحية التحليلية مع القوة الاقتصادية والقوة الدينية على سبيل المثال[١]. وبذلك فإنه من الصعب تصور إمكانية إعداد المظاهر الخاصة بالسياسة على حده ، نظراً لأن المظاهر كلها هنا وحدة لا تتجزأ ، كما أن معالجة هذه الموضوعات تفترض من ناحية أخرى ثقافة من نوع خاص يفتقر إليها الباحثون عادة فى علم السياسة[٢].

---

(١) إسماعيل على سعد ، مرجع سابق ، ص ص ٤٢-٤٣ .

(٢) محمد نصر مهنا . عبد الرحمن الصالحى ، علم السياسة بين التنظير والمعاصرة ، منشاة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٣٦ .

ويتضح من ذلك العلاقات المتشابكة بين علم السياسة والعلوم الاجتماعية بصفة عامة ، وعلم الاجتماع بصفة خاصة ، وذلك لأنها تتناول جميعها حياة الإنسان من كافة جوانبها الاقتصادية والسياسية والثقافية والنفسية وغيرها ، وبالتالى لا يمكن تصور انفصال هذه العلوم بعضها البعض إلا لأغراض التحليل العلمى .

ثانياً : الاقتصاد والمجتمع :

إن أهمية الاقتصاد لا تحتاج إلى توضيح ، فنحن نعيش فى عصر تحتل فيه المشكلات الاقتصادية ، سواء بالنسبة للدول المتخلفة أو الدول المتقدمة مكان الصدارة فى اهتمامات الساسة والمخططين واهتمامات الرأى العام .

وبالرغم من ذلك ، نجد أنه من الصعوبة التوصل إلى تعريف متفق عليه لعلم الاقتصاد ، وذلك لأن التعريفات تتدرج من الاتساع الشديد إلى التعريفات المحدودة جداً مثل أن الاقتصاد هو دراسة الإنسان فى دورة العمل العادية ،و تتجه العناية إلى استقصاء السلوك الفردى والاجتماعى الذى يرتبط ارتباطاً وثيقاً باستغلال الموارد المادية اللازمة لإقامة حياة مستقرة[1].

ويرى آخرون أن الاقتصاد هو العلم الذى يدرس السلوك الإنسانى كمعبر عن العلاقة بين الأهداف والوسائل النادرة ذات الاستخدام المختلف . ويرى فريق ثالث أن الاقتصاد هو العلم الذى يدرس الظواهر من وجهة نظر الأثمان . على أنه يمكن صياغة تعريف توفيقى يرى أن علم الاقتصاد هو دراسة السلوك الإنسانى الذى يحاول أن يربط الوسائل النادرة ذات الاستخدامات

---

(١) محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٦ ، ص ٧٨

المتباينة بالغايات أو الأهداف المرغوبة ، مثل بلوغ الحد الأعلى من الدخل ، ويتضمن الاختيار بين الأهداف ، والاختيار بين السياسات الاجتماعية والقيم والتنبؤ بالنمو المتوقع أبعد من التقدير العقلى لأحوال السوق[١].

ويتضح من خلال تحليل النشاطات الاقتصادية التفرقة بين الاقتصاد الخاص والاقتصاد العام . فالاقتصاد الخاص هو ذلك العلم الذى يتخذ من النشاط الاقتصادى للفرد والمشروع الخاص فى سعيهما لتحقيق أقصى إشباع ممكن للحاجات نطاقا لدراسته . أما الاقتصاد العام فهو ذلك العلم الذى يتخذ من النشاط الاقتصادى للدولة فى سعيها لتحقيق أهداف المجتمع مجالا للدراسة، ويقوم تقسيم علم الاقتصاد بقسميه السابقين بناء على[٢]:

١- اختلاف القائم بالنشاط الاقتصادى ، فالاقتصاد الخاص يعنى بالنشاط الاقتصادى للفرد والمشروع الخاص ، فى حين أن الاقتصاد العام يهتم بالنشاط الاقتصادى للدولة .

٢- اختلاف الهدف من النشاط ، فالاقتصاد الخاص يهدف إلى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٢) حامد عبد المجيد دراز ، مبادئ الاقتصاد العام ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ، ١٩٨٩، ص ص ٤٣، ٤٥.

تحقيق أقصى إشباع ممكن للحاجات الخاصة أو أقصى ربح ممكن للمشروع الخاص ، فى حين يهدف الاقتصاد العام إلى إشباع الحاجات العامة وتحقيق أهداف المجتمع .

٣- اختلاف المبادئ التى تحكم الفرد والمشروع الخاص عن تلك التى تحكم الدولة فى مزاولة النشاط الاقتصادى .

ومن الجدير بالذكر أن المجتمعات البدائية فى عصور ما قبل التاريخ قد تميزت بممارسة الأنشطة الاقتصادية ، حيث استخدمت الموارد المتاحة لديها فى إشباع احتياجاتها الأساسية . وكان التخصص Specialization والتبادل Exchange أهم ما يميز الأنشطة الاقتصادية فى هذه المجتمعات ، فقد أدركت هذه المجتمعات منافع أو مزايا التخصص فبدلاً من قيام كل فرد بكل الأعمال أو المهام التى يتطلبها استمرار المجتمع ، ثم توزيع هذه المهام ، فالبعض قد عمل بالصيد والبعض الآخر بجمع الغذاء أو إعداد الأسلحة والأدوات التى تستخدم فى الصيد وهكذا . وقد أدى التخصص إلى جعل هذه المجتمعات أكثر إنتاجية ، ولم يكن التخصص ممكناً إلا فى ظل نظام للتبادل ، حيث يتبادل كل فرد نتاج عمله بنتاج عمل الآخرين ، وقد استطاعت أن تبقى المجتمعات البدائية ثم تتقدم فى النهاية بعد ذلك بفضل التخصص والتبادل . وعلى الرغم من أن النشاط الاقتصادى كان

سمة رئيسية لكل المجتمعات ، إلا أنه من الغريب أنه لم تتم دراسة هذه الأنشطة بالتفصيل حتى وقت قريب نسبياً ، حيث اعتبرت الظاهرة الاقتصادية إحدى الجوانب الأساسية للطبيعة الإنسانية ،و لا تستحق في حد ذاتها مزيداً من الدراسة أو الاهتمام الخاص ، وبالرغم من دراسة الأنشطة الاقتصادية من منظور تحديد النفع الشخصى ، فإن الاستقصاء والتحليل المتعمق لهذه الأنشطة لم يبدأ فى الواقع إلا فى القرن الثامن عشر[1].

والاقتصاد اليوم ذو صلة وثيقة بحياة الإنسان ، احتياجاته ورغباته وأنشطته وعلاقته بالآخرين والبيئة الطبيعية ، فهو يركز بصورة محددة على مدى تحقق الرفاهية المادية للإنسان ، باعتبار أن الإنسان هو نقطة البداية ، ومركز جمع المعاملات الاقتصادية .

ولكن الإنسان مخلوق اجتماعى أيضاً ، فمنذ اللحظة الأولى من مولده يصبح جزءاً من المجتمع ، وعائلته ،و عشيرته ، ومجتمعه ووطنه ، ولكن ليس كل الأفراد متساويين فى قدراتهم وحاجاتهم واهتماماتهم ورغباتهم الشخصية ، فقد تتصادم هذه الرغبات مع خطط واهتمامات المجتمع ، وهنا قد يحدث الصراع

(١) نعمة الله نجيب وآخرون ، مقدمة فى الاقتصاد ، الدار الجامعية ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ص ٦١-٦٢

بين حاجات الأفراد المتعددة والمتنوعة وغير المتساوية ، وبين المجتمع بقدراته واستعداداته ، ومن ثم تحدث علاقة تفاعل واضحة بين كل من الإنسان والمجتمع(١).

فالإنسان فى تفاعل دائم مع البيئة والمجتمع ، فهو يؤثر فيها ويتأثر بها ، وهو يحدث فيها من التعديلات ما يتوافق مع ظروف حياته التى يحياها ، وهو كذلك يعدل من نفسه ومن نظمه ويخلق نظماً جديدة تتلاءم معها ، وهكذا فإن قصة الحضارة هى قصة العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية والاجتماعية ، علاقات التعاون والتنافس والصراع ، وعلاقات السيطرة والخضوع ، وعلاقات التوزيع العادل ، والتوزيع غير المتكافئ ، وهذه كلها مظاهر لعلاقة الإنسان بالمجتمع الذى يعيش فيه(٢).

والقوانين الاقتصادية هى نتاج الروابط الاقتصادية بين الأفراد وهى روابط تستمد صفتها الاقتصادية من حيث أنها علاقات اجتماعية تنشأ بين الأفراد داخل المجتمع ، بمناسبة اشتراكهم فى النشاط الاجتماعى والتوزيعى ، وعلم الاقتصاد لا يعتبر الأشياء (المنتجات) أو الوظائف المتخصصة لعناصر

---

(1) Ludwig, H., Men And Idias In Economics, Rowman & Little Field, New jersey, 1977, p.1.

(٢) عبد الهادى والى ، قضايا الفقر والبيئة والتنمية ، ندوة عاطف غيث العلمية الرابعة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ ، ص ٦١ .

الإنتاج أو العمليات الاقتصادية من الموضوعات التى تنتمى إلى نطاقه إلا بالقدر الذى ترتبط فيه بالعلاقات الإنسانية ، سواء من حيث قدرة الإنسان على استغلال العالم المادى المحيط به ، أو من حيث علاقاته بأخيه الإنسان ، وهنا يظهر مدى التفاعل الواضح بين كل من الاقتصاد والمجتمع ، فكلاهما لازم وضرورى للآخر[١].

ولما كان علم الاقتصاد يهدف إلى توجيه الإنتاج المتوفر لدى أى مجتمع إلى أفضل الاستعمالات الممكنة ، وذلك بغرض إنتاج أكبر قدر ممكن من السلع والخدمات التى يحتاجها المجتمع ، فإن سلوك الإنسان الاقتصادى هو سلوك مميز يحاول من خلاله أن يقيم علاقات خاصة مع أفراد وجماعات كثيرة ، وذلك بغرض لتوصل إلى إشباع أكبر قدر ممكن من رغباته ، وتحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من أهداف[٢].

والإنسان لا يعيش بمعزل عن المجتمع الذى ينتمى إليه سواء كان هذا المجتمع متمثلاً فى قرية صغيرة ، أو مدينة كبيرة ، أو دولة ، أو المجتمع العالمى كله ، فأى فرد فى عصرنا الحالى لا يكرس كل جهوده لإنتاج ما يحتاج إليه من سلع

---

(١) عادل أحمد حشيش ، مصطفى رشدى شيحه ، مبادئ الاقتصاد للاجتماعيين ، دار النهضة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ٢٠ .

(٢) محمد ربيع ، الاقتصاد والمجتمع ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣، ص ٧.

وخدمات ، لكنه ينتج من السلع تلك التى يستطيع أن يبيعها للغير مقابل دخل نقدى يحصل عليه ، ويتصرف فيه كيفما يشاء لشراء ما يحتاج إليه من سلع وخدمات ينتجها الآخرون ، وعلى ذلك فإن النشاط الاقتصادى لأى فرد لا يتم بمعزل عن النشاط الاقتصادى لبقية الأفراد ، فالعلاقات الاقتصادية علاقات متشابكة ، فالفرد حينما يتخذ قراراً معيناً ، فإنه يتخذ هذا القرار بناء على عوامل شخصية خاصة به ، وعوامل أخرى موضوعية خاصة بظروف السوق التى يكون هو جزءاً منها[1].

وهكذا نجد أن العلاقة وثيقة بين الظواهر الاقتصادية والظواهر الاجتماعية بحيث يمكن القول بأن الفصل بينهما أمر غير ممكن إلا لأغراض التحليل العلمى فحسب ، ذلك أننا نجد تشابكاً واضحاً بين المهام الاجتماعية متمثلة فى التعليم والصحة والإسكان والضمان الاجتماعى ، وبين نظيرتها الاقتصادية المتمثلة فى الموارد والثورة وكيفية توزيعها والاستفادة منها . وبمعنى آخر يمكن القول بان كل الظواهر الاجتماعية ومنها التعليم والصحة والإسكان واستصلاح الأراضى والضمان الاجتماعى

(١) محمد خليل برعى ، مقدمة فى التحليل الاقتصادى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ب.ت ، ص ص ١٩-٢٠ .

يمكنها أن تكتب لنا فى النهاية برامج التنمية الاقتصادية[1].

ويمكن ملاحظة تلك العلاقة بين الظواهر الاقتصادية والاجتماعية من خلال معرفتنا بأن ارتفاع دخل أحد الأفراد سينعكس أثرة على سلوكه الاستهلاكى بحيث يزيد من الكمية التى يطلبها من السلع المختلفة[2].

ولما كان المجتمع يتكون من مجموعات كبيرة من الأفراد ، فإن بقاء المجتمع واستمراره يتطلب أن يكون لكل فرد فيه دوراً أساسياً يقوم به يساهم من خلاله فى الحفاظ على كيان المجتمع الذى يعيش فيه ، ولما كانت أدوار الأفراد فى المجتمع كثيرة ومتنوعة ، وذلك لأنها تحاول أن تتجاوب مع رغباتهم الكثيرة وميولهم المتضاربة ، فإن إيجاد نوع من التنسيق بين تلك الأدوار يصبح ضرورة ملحة إذا ما أراد المجتمع أن يبقى ويستمر ، ولما كانت عملية التنسيق بين أدوار مختلف الأفراد والجماعات لا تتم إلا عبر نظم ومؤسسات متعددة وبناء على قواعد وأنظمة كثيرة ، فإن بقاء أى مجتمع واستمراره يعكس بالضرورة ترابط نظمه العاملة وتكاملها سواء كانت هذه النظم اقتصادية أو

---

(1) Norton, W., The Economic Development: Problems, Principles, And Policies, Revised Edition, New York, 1968, p.405.

(٢) محمد خليل برعى ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

اجتماعية أو سياسية ، أو غير ذلك من النظم[1].

ويدعم المجتمع العمليات الاقتصادية ، فالعائلة كمؤسسة اجتماعية ، والمصنع كمؤسسة اقتصادية ، وأماكن العبادة كمؤسسة دينية ، تسهم جميعها فى دعم الاقتصاد وتطويره ، ومع أن دور العائلة الأساسى هو دور اجتماعى يرمى إلى المحافظة على المجتمع وتجديده ، فإن العائلة لكى تبقى وتستمر لابد لها من الاشتراك فى العملية الإنتاجية ، وأداء دور مباشر فيها ، ومع أن دور المصنع الأساسى هو دور اقتصادى يرمى إلى إنتاج السلع التى يحتاجها المجتمع ، فإن المصنع كى ينتج ويحافظ على كيانه لابد من ربط العاملين فيه بنوع من الروابط الاجتماعية والأهداف المشتركة . ولتوضيح تلك العلاقة نعطى مثالاً ، فالعرض يتضمن إنتاج سلع وخدمات ولهذا فهو عملية اقتصادية تقوم بخدمة أهداف اقتصادية وأخرى اجتماعية ، فالإنتاج يخدم أهدافاً اقتصادية ، وهى إمكانية استخدام تلك السلع فى إنتاج سلع أخرى ، كما يخدم أهدافاً اجتماعية تتعلق بإشباع رغبات إنسانية ، وعلى هذا فالعرض كعملية اجتماعية اقتصادية يوضح لنا الترابط الوثيق القائم ين مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية وبذلك تتقارب النظم الاجتماعية

---

(١) محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص ٨ .

والنظم الاقتصادية بشكل واضح ، فعندما تحاول النظم الاقتصادية أن تحدد علاقة الإنسان بالطبيعة وعلاقته بالمجتمع ، فإنها تحاول تحديد العلاقات الاقتصادية داخل المجتمع ، والتى تؤدى إلى المساهمة فى تحديد العلاقات الاجتماعية التى تسود المجتمع وتربط أجزاءه بعضها البعض ، وهذا الترابط أمر طبيعى[1].

وعلى هذا فإن هناك علاقة جدلية بين الاقتصاد من جانب والمجتمع من جانب آخر ، فيتغير الاقتصاد وينعكس التغير على المجتمع ككل ، والعكس صحيح . ويمثل الجانب الاقتصادى للحياة الاجتماعية أحد الفروع الأساسية التى يعنى بدراستها علم الاجتماع . وإذا كان رجل الاجتماع يتخصص فى دراسة هذا الجانب ، فهو لا يسعى إلى تقديم بحث فى الاقتصاد ، ولكنه يهدف فى الأساس إلى تقديم صورة واضحة للعلاقات المتبادلة بين الجوانب الاقتصادية الخالصة ، والجوانب غير الاقتصادية التى تؤثر فيها وترتبط معها فى سياق الحياة الاجتماعية ، وهذا الموضوع هو ما يطلق عليه إسم " علم الاجتماع الاقتصادى " Economic Sociology الذى يمكن تعريفه " بأنه محاولة منظمة لتطبيق نماذج التفسير الاجتماعى والمتغيرات الاجتماعية، وكذلك الإطار المرجعى لعلم الاجتماع فى دراسة مجموعة من

---

(١) محمد ربيع ، مرجع سابق ، ص ص ١١-١٤ .

الأنشطة المعقدة المتصلة بالإنتاج والتوزيع والتبادل واستهلاك السلع والخدمات[١]. ويدور علم الاجتماع الاقتصادى حول محورين أساسين هما[٢]:

١- إنه دراسة متخصصة للأنشطة الاقتصادية بالذات ، ومعنى ذلك أن عالم الاجتماع الاقتصادى يبحث فى كيفية صياغة هذه الأنشطة فى وحدات اجتماعية أو تنظيمات أو بناءات للأدوار. كما يهتم أيضاً بالقيم التى تضفى عليها الشرعية والمعايير والجزاءات التى تنظمها ، والتفاعل القائم بين كل هذه المتغيرات الاجتماعية .

٢- ويتمثل المحور الثانى فى التساند المتبادل بين المتغيرات الاجتماعية حين تتجسد فى السياق الاقتصادى والمتغيرات الاجتماعية التى يمكن أن نعتبرها بعيدة إلى حد ما عن المجال الاقتصادى مثال ذلك أن عالم الاجتماع الاقتصادى يعنى بدراسة التداخل بين الأدوار الأسرية والأدوار المهنية فى المجتمع المحلى وعلاقتهما بالبناء السياسى لهذا المجتمع ، أى أنه يهتم بالتساند والتكامل بين الأبنية الاقتصادية وغير الاقتصادية ، والمواقف العديدة التى يتجه

(١) محمد الجوهرى ، مرجع سابق ، ص ٣٦٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ص ٣٦٥ - ٣٦٧.

فيها نحو تحقيق أغراض مشتركة وبذلك يتضح لنا العلاقة الوثيقة بين الظواهر الاجتماعية والظواهر الاقتصادية الأمر الذى يحتم على كل دارس للعلوم الاجتماعية فهم هذه العلاقة ، وعدم قدرته على تحليل جوانب الحياة الاجتماعية دون وضع الجوانب الاقتصادية فى اعتباره .

ثالثاً : الاتصال والإعلام :

الاتصال عمليـة لصيقـة بالحيـاة الإنسـانية ، فطالما هنـاك بشر ، فإن من لوازم وجوده أن يتصل بغيره مـن الأفـراد ، وهنـاك مـن يقـول إن الاتصـال حيـاة ، بينمـا اللااتصـال عـدم ، فالإنسـان يمارس حياته ككائن اجتماعى يؤدى وظيفة فى المجتمـع ، لذلـك فلابـد أن يقـوم بينـه وبـين غـيره سـواء كـان غـيره هـذا فــرداً أو جماعة أو نظاماً أو تنظيماً اجتماعياً .

لذلك عرفت المجتمعات الإنسانية الاتصال منـذ نشأتها ، وظل خاصية من خصائصها حتــى عصرنـا هـذا ، ولا يخفـى علينـا ما يؤديـه الاتصـال مـن دور فـى تراكم المعرفـة الإنسـانية ، بكـل فروعــها ، كذلــك دوره فــى خلــق وتطويــر نظــم المجتمعـــات الإنسـانية ، وأســاليب التبــادل الثقــافى والاقتصــادى وغيرهــا وليس أدل على ذلـك مـن قـول الفيلسوف الأمريكـى جـون ديـوى John Dewey إن الاتصـال هـو أوجـب شـئون الحيـاة ، ذلـك أن المجتمع لا يوجد عـن طريـق الاتصـال فحسـب ، ولكـن يتأسـس وينمـو عـن طريـق هـذه العمليـة ، فدورهـا أســاس فــى التوافــق الاجتمـاعى داخـل المجتمعـات الإنسانية وخلـق تفـاعل وتكيـف للظروف السائدة فى المجتمع .

وقـد أصبـح الاتصـال فـى العصـر الحديـث سياج الحياة ،

فهو يحمل للإنسان كل يوم وكل ساعة ما هو جديد على عمله وخبرته ، وأصبح مقياساً لتفوق هذا المجتمع أو ذاك ومعياراً لنموه وتطوره .

ورغم أن الاتصال والإعلام بشكله الراهن يعتبر ظاهرة من ظواهر القرن العشرين ، إلا أنه يمكن القول إن هذه الظاهرة قديمة منذ العصور البدائية تطورت عبر عصور فجر التاريخ مروراً بالعصور الوسطى ، إلى أن وصلت إلى ما هى عليه فى العصر الحديث ، وقد عرفت المراحل التاريخية البدائية أشكالاً من وسائل الاتصال والإعلام من أهمها :

١- اتصال أو إعلام يقوم به المراقب الذى يكلف باستطلاع حالة الطقس ، والوقوف على مدى ملاءمته للعمل ، ورحلات الصيد ، وغير ذلك من أوجه النشاط الاقتصادى .

٢- اتصال يقوم به المعلم الذى يتولى تعليم الأطفال وتنشئتهم ليجعل منهم أعضاء صالحين ، يحافظون على عادات وقيم العشيرة أو القبيلة أو العائلة التى ينتمون إليها .

٣- الاتصال الذى يقوم به كبار السن والحكماء الذين يتم الرجوع إليهم فى الأمور الهامة التى تتعلق بطبيعة الحياة ، وهو يقدم لأفراد عشيرته حلولاً للمشكلات التى تواجههم .

وتختلف هذه الأعمال الاتصالية بطبيعة الحال عما يسود المجتمعات الحديثة وفى مراحل أخرى عرف الإنسان الأسواق وأماكن التبادل ، وشكلت فى الوقت نفسه مكاناً للاتصال والإعلام يتنوع بتنوع شئون الحياة ذاتها . وتشير كثير من المراجع إلى أهمية سوق عكاظ على سبيل المثال فى خلق أنماط من الاتصالات وتبادل الأفكار . كذلك كان الفراعنة فى مصر القديمة يضعون عند مداخل المعابد ألواحاً يدونون عليها ما يريدون إبلاغه لأفراد المجتمع . وبالتحول الذى حدث فى الحياة الإنسانية ، بدأ الإنسان يصمم مؤسسات وآلات تستكشف الجو وترصد ما كان يرصده شخص يتميز بحدة البصر .

كما أن الإنسان قد عرف أثناء الحروب أشكالاً مختلفة من الاتصال والإعلام ، وتمت الاستعانة بوسائل جديدة لإبلاغ التعليمات والتوجيهات إلى الجنود بشكل يكفل النصر . وعرف الإنسان أسلوب الاجتماعات والندوات حيث يتم تبادل المعلومات والأفكار والأنباء .

وباختراع الطباعة اتخذ الاتصال والإعلام شكلاً جديداً ، وقد جفل القرن الثامن عشر بأمثلة عن تأثيرات الإعلام من كل المجالات سواء فى الحرب أو الدبلوماسية ، ومع الاستمرار فى تطور وسائل الاتصال والإعلام فى مطلع القرن العشرين ، ومن

خلال هذه التطورات ظهر اتجاهان :

الأول : يعمل على دعم وتنشيط الرأى العام الجماهيرى فى مواجهة الحكومة .

والثانى : يعمل على دعم وتنشيط مواقف الحكومة فى مواجهة الرأى العام الشعبى .

كذلك بدأ عصر جديد باختراع التلغراف عام ١٨٧٣ ، حيث تم اكتشاف الموجات الكهرومغناطيسية ، وأصبح اللاسلكى حقيقة واقعة وله استخدامات تجارية . بعد ذلك تم اختراع آلات التصوير السينمائى ، وأنتج أول فيلم سينمائى عام ١٨٩٥ ، وكان الفيلم بدون صوت ، ولم تعرض الأفلام السينمائية الصوت إلا فى عام (١٩١٨) بعد تطورات كثيرة أدخلت فى هذا المجال .

إلى جانب ذلك كان الإرسال المسموع عن طريق الموجات الإذاعية عام ١٩٠٦ ، ومثلت إلى جانب ما سبق تطورات هامة ، وقد عرف العالم الأقمار الصناعية بدءاً من عام ١٩٥٧ ، وتم تطويرها بعد ذلك من أجل الاتصالات ، فدخلت الأقمار الصناعية الخاصة بالاتصالات إلى الخدمة بعد إطلاق أول قمر صناعى بحوالى عشرين عاماً .

ومع كل مرحلة تطورية من هذه المراحل كان يستتب فى الأذهان أن الإعلام يكتسب دوراً متعاظماً ، وأن مسئولية

الحكومات تتمثل فى عرض الأنباء والتحليلات الصحيحة على شعورها ، حتى تحصل على تأييدها ومشاركتها فى رسم السياسات واتخاذ القرارات ، إلى جانب ذلك تعاظم الاهتمام بدور وسائل الاتصال والإعلام فى تحقيق التنمية والتطور الاجتماعى المرغوب فى ضوء ما تبثه هذه الوسائل من برامج ووسائل إعلامية موجهة نحو تفعيل المشاركة الشعبية ، وتنشيط المبادرات الخلاقة ، وخلق الوعى الذى يدعم الخطوات الإيجابية للحكومة ، ويجعلها تدرك اتجاهات الرأى العام من ناحية وتتعامل معه بشكل ملائم من ناحية أخرى .

ولقد تنوعت النظرة إلى مفهوم الاتصال وفقاً لتنوع اهتمامات الدارسين والباحثين والعاملين فى مجاله ، ووفقاً لتنوع الأهداف التى يعمل كل من هؤلاء من أجل إشباعها ، كما تختلف النظرة إلى هذا المفهوم وفقاً لجوانب السلوك الاتصالى ، فعلى حين يشير إليه " جون ديوى " على أنه مشاركة فى الخبرة بين شخصين أو أكثر ، يقول آخرون إنه عملية يتم بمقتضاها توصيل فكرة أو خبرة من شخص لآخر حتى تصبح مشتركة بينهما أو تصبح مشاعاً ، أى أنها مشاركة فى الخبرة ، ومع ذلك فإن من أهم هذه التعريفات أن الاتصال هو العملية التى تشير إلى عملية الاشتراك أو المشاركة فى المعنى من خلال التفاعل

الرمزى Symbolic Inter – Action وتتميز بالانتشار فى الزمان والمكان ، فضلاً عن استمراريتها وقابليتها للتنبؤ .

وتتكون عملية الاتصال من عناصر تغطى الإجابة على التساؤل الرئيسى فى هذا المجال وهو : من يقول ؟ ماذا ؟ وبأى وسيلة ؟ ، ولمن يقول ؟ وبأى تأثير ؟ وتتلخص هذه العناصر فيما يلى :

١- المصدر : Source

٢- الرسالة : Message

٣- الوسيلة : Media

٤- المستقبل : Receiver

٥- التأثير : Effect

٦- رد الفعل : Feed Back

وتتكامل هذه العناصر وتتداخل فى عملية الاتصال ، بحيث لا يمكن الجزم بأنها اكثر أهمية وأقوى تأثيراً ، فلابد من توافرها جميعاً ويستلزم تكامل هذه العناصر أن يكون العمل الاتصالى موجهاً ومخططاً وليس عشوائياً ، وهذا التخطيط والتنسيق هو مسئولية المحرك الأول الذى هو المصدر ، فالمصدر هو الذى يحدد الجمهور الذى يوجه إليه الرسالة ، ويحدد شكل الوسيلة التى تناسبه ويتم ذلك فى ضوء دراسة احتياجات

الجمهور وطبيعته وتكوينه وسماته الخاصة .

أما الرسالة ، فتتطلب مواصفات معينة من أهمها البساطة ، والبعد عن التعقيد لكى تتناسب مع كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، ومن الضرورى أن تهتم بكل الفئات الاجتماعية دون التركيز على فئة دون أخرى .

ولا يمكن أن تتم هذه العملية ، وهى بث الرسالة إلا باستخدام وسيلة إعلامية ، وهى تقوم بنقل الرموز إلى المستقبل أو الجمهور ، ويجب أن تكون هذه الوسيلة سهلة التناول ، حتى يتم استخدامها على أوسع نطاق ممكن ، ومن هذه الوسائل الصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح والكتب ووكالات الأنباء والنشرات والمعارض والسياحة والشرائط المسجلة وغير ذلك

أما المستقبل ، فيمثل جوهر العملية الاتصالية أو الإعلامية ، فهو الجمهور الذى يستقبل الرسالة الموجهة ، ولا نتوقع أن تصل الرسالة الإعلامية بنفس الدرجة إلى كل الفئات ، ذلك أن هناك ما يعرف بالانتقاء Selection بين هذه الوسائل ، وبين الرسائل التى توجهها ، ويتضمن الانتقاء أنواعاً من أهمها :

أ- **التعرض الانتقائى** : بمعنى أن ينتقى المستقبل الرسالة التى يفضل التعرض لها وفقاً لعاداته وقيمه واتجاهاته ، فهذا ينتقى الإذاعة ، والآخر ينتقى التليفزيون ، وثالث يفضل

الصحيفة ، أكثر من ذلك أن من يتجه للصحف ينتقى واحدة أو أكثر من بين المتاح له وحتى داخل الصحيفة الواحدة ينتقى الموضوعات التى يرغبها والأخبار التى يميل إليها دون غيرها .

ب- **الإدراك الانتقائى :** ونعنى أن المستقبل يدرك الرسالة بأسلوب ومعنى خاص به . وقد يكون هذا الإدراك خاطئاً أو مختلفاً عن المعنى الذى يقصده المرسل ، ويختلف الإدراك من شخص لآخر حسب عمق تحليله ونظرته وميوله واتجاهاته وقيمه .

ج- **التذكر الانتقائى :** وتتمثل هذه العملية فى قدرة المتلقى على تذكر أمور دون غيرها ، وذلك فى ضوء ارتباطه بهذه الأمور أو تعلقه بها أكثر من غيرها ، فنحن نتذكر أفلاماً أو أخباراً أو مواقف درامية وننس غيرها حسب طبيعة ميولنا وعاداتنا .

وكلمة أو مفهوم الاتصال Communication تنطوى فى أصلها اللغوى اللاتينى أو الإنجليزى على نفس المدلول الذى ينطوى عليه المفهوم فى اللغة العربية ، وكما أشرنا ، فإن مفاهيم الاتصال تتعدد وتتنوع وفقاً لطبيعة أو مدخل الكاتب أو المؤلف ، ويقول البعض إن من الصعب الوصول إلى تعريف شامل أو جامع مانع لمفهوم الاتصال ، وذلك لتنوع الظاهرة الاتصالية

وامتدادها إلى مجالات عديدة للتفاعل الإنسانى .

يقول هوفلاند **Hovland** إن الاتصال عملية عن طريقها ينقل الفرد القائم بالاتصال منبهات (مثل الرموز اللغوية) لكى يعدل سلوك الأفراد الآخرين الذين هم مستقبلى الرسالة[1].

ويشير عالم آخر إلى أن الاتصال عبارة عن موقف تتوافر فيه مشاركة عدد من الأشخاص فى أمر معين ، أى أنه يعتبر الاتصال هو كل موقف يحقق التآلف حول قضية معينة سواء كان ذلك عن طريق الرموز أو بوسائل أخرى عامة وشائعة ، فالمشاركة فى المشاعر سواء كانت ظاهرة وواضحة أو لوحظت بمؤشرات أو مظاهر معينة ، هذا الموقف يشير إلى إحساس عام يسود بين الأفراد بهذه المشاعر .

ويقول جورج لندبرج **G. Lundberg** إن كلمة الاتصال تشير إلى التفاعل عن طريق الرموز ، وإن هذه الرموز قد تكون حركات أو صور أو لغة أو غيرها من الأمور التى تعتبر منبهات للشعور أو السلوك . ويذهب ماكويل **M acual** إلى أن هذا المفهوم يشير إلى العمليات التى يؤثر بها الناس فى بعضهم البعض ، ويضاف إلى ذلك من وجهة نظره التفاعل الاجتماعى ، أى أن أى

---

(١) يوسف مرزوق ، مدخل إلى علم الاتصال ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ٢٢ وما بعدها .

عملية يقوم بها الناس هى عبارة عن عملية اتصال ، وهنا تدخل الإشارة والإيماءة واللغة والرمز ، وكافة الممارسات الاجتماعية وعادات المجتمع وتقاليده ، أو بشكل عام ثقافة المجتمع . أكثر من ذلك أن الناس يكتسبون المعرفة فى مجتمعهم عن طريق هذه العملية المتشعبة ، وعبر تطورها ساعدت وسائل الاتصال على خلق وتطوير شبكة العلاقات بين الناس أفراداً وجماعات ، وتخطت الحدود الجغرافية ووصلت إلى المستوى العالمى ، ومن خلالها تنتقل الأفكار والنوايا الانتماءات والصراع .

ومعنى ذلك أن الاتصال عملية يتم بمقتضاها تفاعل بين مرسل ومستقبل من خلال رسالة معينة ، ويتم هذا التفاعل فى مضامين وأطر اجتماعية معينة ، وعبر هذه العملية يتم نقل أفكار ومعلومات ومنبهات بين الأفراد عن قضية معينة ، وأفكار مجردة، أو واقع معين .

أما ولبور شرام W. Schramm فيضيف إلى ما سبق عنصر المشاركة ، فعملية الاتصال عنده هى مجموعة الرسائل التى تربط البشر بعضهم ببعض ، وخلاله يقوم تفاعل ، وعلاقات إنسانية ، وبالتالى تجاوب شخصى بين المرسل والمستقبل. ومن هنا يقوم الاتصال على المشاركة فى المعلومات

والصور الذهنية[1].

ومن خلال ما سبق يمكن الكشف عن عدة عناصر تشكل مقومات أساسية لمفهوم وعملية الاتصال :

أ- **التفاعل** : ويشير إلى أن عملية الاتصال ليست ثابتة أو جامدة ، ولكنها عملية ديناميكية ، طالما أنها تخلق وتطور التفاعل بين أطرافها .

ب- **التداخل** : حيث لا يمكن فهم أحد جوانب العمنية الاتصالية بمعزل عن غيره من الجوانب ، ذلك أن مكونات هذه العملية متداخلة ومتبادلة التأثير والتأثر والتغير فى إحداها يؤدى إلى تغير توافقى فى الأخرى .

ج- **المضمون** : وهنا ندرك أن المضمون أو المناخ العام الذى تتم فيه عملية الاتصال ، عنصر أو مكون أساسى لفهم الدور الذى تؤديه هذه العملية ، ذلك أن الاتصال لا يتم فى فراغ ، ولكن فى إطار اجتماعى ، ويتوقف نجاحه على طبيعة هذا المضمون السائد ، كذلك فإن استيعاب الرسالة الاتصالية لا يتم إلا من خلال مضمون بمواصفات معينة .

د- **المشاركة** : وهى عنصر أساسى من عناصر عملية الاتصال ومفهومه ، فحينما تتم رسالة اتصالية و إعلامية معينة ،

---

(١) أنظر : المرجع السابق ، ص ص ٢٢-٢٤ .

فإنها تتطلب مشاركة الأشخاص فى المعنى الذى تهدف هذه الرسالة ترسيخه لدى جمهور المستقبلين ، ومن هنا فإن التغذية المرتدة Feed Back لهذه الرسائل يمكن قياسه ، والوقف على آثاره سلبا أو إيجابا .

وإذا أدركنا جيدا هذه الأبعاد فإننا نفهم عملية الاتصال ومغزاها وشمولها وتنوع أبعادها ، وطبيعة المناخ الاجتماعى الذى تعمل من خلاله . كما يضاف إليها العناصر الخمسة السابق الإشارة إليها وهى المرسل ، والرسالة ، والوسيلة ، والمستقبل ، والتأثير ، وذلك على المستوى الواقعى ومن خلال هذا الفهم نستطيع تخطيط الاتصال والإعلام عى المستوى البعيد والقريب ونتمكن من تطويعه لخدمة الأهداف الاجتماعية الكبرى فى المجتمع .

ومن المهم إجراء المزيد من الدراسات والبحوث من أجل قياس أثر العملية الاتصالية والإعلامية على سلوك الأفراد وقيمهم ، فدراسة جمهور المستقبلين والجمهور من حيث الواقع الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى الذى يعيشون فيه ، وتشكل هذه الدراسة الأساس القويم للتخطيط الاتصالى والإعلامى ، وتساعدنا فى قياس الأثر الإيجابى أو السلبى للخطة الإعلامية بأسرها ، وفى ضوء ذلك يمكن أن ندخل التعديلات

المرغوبة على هذه الخطة .

من ناحية أخرى يعرف الإعلام بأنه العملية التى يتم بمقتضاها نشر الحقائق والآراء والأفكار بين جماهير المجتمع سواء كانت هذه الجماهير داخل إطار الدولة أو خارجها .

ومعنى ذلك أن الإعلام يجب أن يقوم على مبدأ الوضوح والصدق والموضوعية والأمانة ودقة الأخبار ، والإعلام بهذه الأخبار بصرف النظر عن مضمونها ، أى أنه يجب أن يحرص على نقل الخبر سواء كان ساراً أو مؤلماً .

ويشير أحد العلماء إلى أن الإعلام هو التعبير الموضوعى عن عقلية الجماهير وروحها العامة واتجاهاتها وميولها . ومعنى ذلك أن الإعلام ليس تعبيراً ذاتياً يعبر عن شخص رجل الإعلام ، ومن هنا يختلف رجل الإعلام عن الأديب أو الفنان الذى يعبر عن ذاته أو رؤيته فى إطار معين .

ولذلك يقال إن الإعلام هو عملية تستهدف تزويد الجمهور بكافة الحقائق والأخبار الصحيحة عن مختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وإذا التزم الإعلام بهذا المسلك ، فإنه يسهم فى خلق وتعميق الوعى الاجتماعى بأبعاده المتعددة ، كما يسهم فى تنوير أفراد المجتمع بكل القضايا

العامة والخاصة[1].

ويتضح مما سبق أن الإعلام هو جزء من العملية الكلية التى أشرنا إليها وهو الاتصال ، فالاتصال يتميز بالشمول وتعدد الاتجاهات والاهتمامات وتنوع عملياته ورموزه ، وهو يتضمن الخاص والعام ، الذاتى والموضوعى ، فمن خلال مؤلف معين أو دورية يمكن للكاتب أن يعبر عن رؤيته الذاتية والشخصية نحو قضية أو مشكلة عامة أو خاصة . ولكن الإعلامى - كما يفترض فيه - يعبر عن الواقع بصدق وموضوعية بوسائل معينة .

من أجل ذلك فقد سيطر مفهوم الاتصال باعتباره الأعم والأشمل ، دون إهدار لمفهوم الإعلام ، الذى يرتبط أساساً بالسياسات الحكومية والتعبير عن آرائها ، ونقل رسائلها وأفكارها إلى الجماهير .

الاتصال وعلوم المجتمع :

الاتصال عملية تتداخل - كما قلنا - فى كل جوانب الحياة الإنسانية .

ومن هنا ، فإن له وجود بشكل أو آخر فى علوم المجتمع فيتداخل معها ، وتستفيد من تراثه النظرى ، ومع تطور العلوم

---

(١) أنظر هنا : سمير حسين ، الإعلام والاتصال بالجماهير والرأى العام ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

والثورة التكنولوجية أصبحت هناك نماذج جديدة ومعقدة للاتصال وتزايد تأثيرها على الإنسان ، الأمر الذى جعل من الاتصال موضوعاً لدراسات علمية ومنهجية ، تهدف إلى صياغة النظريات الخاصة به ، وكان الهدف من وراء ذلك أن يتحول الاتصال إلى علم له استقلاليته النظرية والمنهجية .

ولكن الصياغات النظرية للاتصال لم تصبح متاحة إلا فى القرن العشرين تحت تأثير الثورة التكنولوجية المذهلة فى وسائل الاتصال ، وما أحدثته من نتائج وتأثيرات عميقة فى الثقافة والاتجاهات والأنساق الاجتماعية لشعوب العالم . هذه التطورات وآثارها أصبحت بحاجة إلى مزيد من الدراسات العملية وتوظيف المناهج وطرق البحث والنظريات وقد أتاح ذلك كله الفرصة لتحديد المفهومات الخاصة بنظريات الاتصال .

ولعل الغموض الذى يكتنف دراسة الاتصال من الناحية المنهجية والنظرية يرجع إلى أنه من الصعب فصل هذا النوع من الدراسات عن غيره مما يتم فى العلوم الأخرى ، وذلك فى ضوء حالة التداخل والاعتماد المتبادل بين موضوعات وبين دراسات الاتصال . وقد تطلب ذلك إجراء نوع من التركيب أو التوليف بين مناهج العلوم الإنسانية الأخرى . لكى يتوصل إلى نسق علمى مستقل ، ولم تعد دراسات الاتصال جزءاً من الدراسات

الاجتماعية الأخرى ، خاصة دراسات علم الاجتماع وعلم النفس ، والسياسة وغيرها . وقد كان استقلال علم الاتصال مثاراً لكثير من الجدل ، فأنكر عليه البعض هذا الحق قائلين إنه مجموعة من الدراسات التى تدخل فى نطاق علوم أخرى ، بينما دافع عن ذلك علماء ومتخصصون فى المجال الإعلامى ، قائلين إن تعدد دراسات الاتصال يمنحه الحق فى إقامة نسق علمى خاص به .

وتجدر الإشارة إلى أن الواقع الاجتماعى متعدد الأبعاد ، ويختص كل علم من العلوم الاجتماعية بجانب أو بعد من أبعاد هذا الواقع ، ولكن ليس معنى ذلك أن أيا منها يستقل عن غيره ، لكه يتداخل معها ويتبادل التأثير والتأثر . إن هذا الفصل ليس إلا لأغراض التحليل وخدمة التعمق والتركيز . ومن هنا فإن اختصاص الاتصال بإطار نظرى ومنهجى لا يتناقض مع تعدد جوانب الدراسة فيه ، وتداخلها مع مجالات أخرى تدرسها علوم اجتماعية أخرى .

فعلماء الاجتماع : مثلاً ينظرون إلى عملية الاتصال باعتبارها عملية اجتماعية ، وأن مؤسسات الاتصال هى مؤسسات اجتماعية بالدرجة الأولى ، ولا تفهم إلا بالنظر إليها من منظور اجتماعى ، وفى إطار مناخ وظروف اجتماعية معينة . وبمعنى آخر فإن الاتصال يتم فى مجتمع له نظامه ومنظماته

بهدف إنعاش وتدعيم هذا النظام وتلك المؤسسات أى أن الاتصال عملية اجتماعية تنطلق من أسس اجتماعية وذات أهداف اجتماعية ، وهى إن كانت تحقق أهدافها من خلال التفاعل الاجتماعى ، فإن هذا التفاعل ذو صيغة اجتماعية خالصة .

أما علماء النفس : فإنهم يؤكدون على أن الظواهر السيكولوجية هى الفيصل فى عمليات الاتصال ، فعمليات مثل الاستيعاب والإدراك والتفكير والتركيز وتغير المواقف والاتجاهات والسلوك ، هذه كلها عمليات سيكولوجية ، وتعبر عن النشاط النفسى للإنسان كما يرون أن الاتصال رغم أنه جماهيرى بالدرجة الأولى ، إلا أنه لا يحدث نفس الأثر لدى الأشخاص بشكل متساو ، أى أن الأثر يتحول إلى شكل فردى أو سيكولوجى، مما يدعم القول بأن علم النفس هو المختص بدراسة عمليات الاتصال من حيث توجهاتها وآثارها المحتملة ، وأن أى تعديل فى الخطة الاتصالية أو الإعلامية لا يمكن أن يقوم إلا على أساس سليم من دون دراسة متعمقة لنفسية الجماهير أو الجماعات المختلفة التى يتكون منها المجتمع .

ونأتى إلى علماء الاقتصاد : فهؤلاء يؤكدون على ضرورة دراسة النظم المالية والاقتصادية التى تسير المؤسسات الاتصالية بمقتضاها ، وهم فى بحوثهم يربطون بين المنفعة أو العائد من

عملية الاتصال ، وبين تكلفة هذه العملية كلها . ويقول إن علم الاقتصاد وحده هو الذى يستطيع تقديم البدائل من أجل التشغيل الاقتصادى لعمليات الاتصال وقد ظهر فى دراساتهم فرع جديد عرف " باقتصاديات الاتصال "[1].

كذلك فإن علماء السياسة : ينظرون للاتصال من زاوية مسئوليته عن تكوين الرأى العام محلياً ودولياً وإمكانات التأثير فى هذا الرأى سلباً أو إيجاباً ، ويرون أى الرأى العام هو المحور الرئيسى لعملية الاتصال ، وهو محور سياسى بالدرجة الأولى ، كذلك فإن الاتصال فى هذا المجال يؤثر على التنظيمات السياسية المحلية والعالمية ، وعلاقة الدولة برعاياها وعلاقته بغيرها من الدول والمنظمات السياسية ، وهذا كله يرتبط من وجهة نظرهم بالمفهومات السياسية مثل الديموقراطية وحرية الرأى والتعبير ونشر المعتقدات السياسية المختلفة .

ولهذه الاعتبارات يرى علماء السياسة أن دراسات الاتصال وعمليات الاتصال تدخل فى صلب علم السياسة ، ذلك أن الحياة الاجتماعية الحديثة تنحصر فى وجود دولة وشعب أو حكام ومحكومين والتفاعل بينهما يتم من خلال علية الاتصال .

---

(١) انظر : يوسف مرزوق ، مرجع سابق ، ص ص ١٢-١٥ .

كما أن علماء التربية : ينظرون إلى الاتصال من زاوية الأثر الذى تحدثه عمليات الاتصال فى عملية التعليم ، سواء بالنسبة للتعليم المدرسى ، أو التعليم خارج المدرسة ، والارتقاء بالمستوى الثقافى ، وتنقية العادات والتقاليد ونقلها للأجيال التالية .

وهناك علوم أخرى تشير إلى أن الاتصال يشكل جزءاً محورياً من دراساتها ، مثل العلوم العسكرية التى تؤكد على دور الرأى العام والروح المعنوية وروح الانتماء والتآلف والتعاون بين القطاعات العسكرية المختلفة ، وأنها تستخدم الاتصال لتحقيق هذه الأهداف ، كذلك علم القانون الذى يؤكد أن التشريع يقوم أساساً على الاتصال ، فهو يستمد جذوره من احتياجات الناس ومتطلباتهم ، كما أنه يستخدم الاتصال فى نشر القاعدة القانونية والتعريف بها ، والتحذير من الاعتداء عليها ، هذا فضلاً عن كون القانون ينظم العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع بشكل يجنبه المشكلات والمخاطر الاجتماعية .

وواقع الأمر عن الحياة الاجتماعية متعددة الأبعاد ومتداخلة الجوانب ، وأن علوم المجتمع هى الأخرى متعددة الأبعاد متداخلة فى إطار الواقع الاجتماعى الشامل ، ولا يدحض ذلك كله اتجاه علماء الاتصال إلى الدعوة لقيام علم مستقل لدراسة هذه الظاهرة بمنظورات ومناهج وأدوات معينة تميزه

عن غيره من العلوم الاجتماعية فكل العلوم الاجتماعية تستفيد من دراسات بعضها وتفيدها . كما تستفيد من مناهجها وأدواتها البحثية ، هذا فضلاً عن عدم إمكانية إنكار أن المنهج العلمى واحد فى كل العلوم سواء الطبيعية أو الاجتماعية ، وأن الذى يختلف هو الأدوات والأساليب فى التحليل والتفسير . وربما يثور تساؤل مؤداه ما هو هدف هذا العلم إذا سلمنا بوجوده فعلاً ؟

وتتمثل الإجابة على هذا التساؤل فى أن هدفه هو الوصول إلى نتائج تسهم فى إنجاح العملية الاتصالية وبلورة النظريات التى تحكمها أو تفسرها ، كما يسعى إلى الوصول إلى مفهومات جديدة ، تتفق أو تتعارض أو تعدل من المفهومات والنتائج التى سبق التوصل إليها . وإذا سلمنا - ونحن نسلم - بقيام هذا العلم، فإننا نشير إلى أنه من أحدث العلوم الإنسانية ، وهو يبحث ظاهرة التأثير فى الناس بوسائل اتصال معينة مثل الكلمة المنطوقة والمدونة والمطبوعة والمصورة ، والرسائل والصحافة ، والإذاعة المسموعة أو الندوات والمؤتمرات . كذلك يبحث فى التفاعل الاجتماعى عن طريق الاتصال الطبيعى سواء كان شخصياً أو جمعياً ، أو كان عن طريق الاتصال الصناعى غير المباشر من خلال الوسائل الاتصالية المعروفة .

رابعاً : التنمية :[1]

إن الاهتمام بقضية التنمية قديم جديد ، فهو قديم من وجهة نظر علماء الاقتصاد الذين سبقوا غيرهم فى دراسة هذه القضية ، واجتهدوا فى تقديم تفسيرات لعواملها ومعالجتها ، وكذلك مشكلاتها وتحدياتها . لكن هذا الاهتمام قد اصطبغ – خاصة فى مراحله الأولى – بالتركيز على الجوانب الاقتصادية وحدها ، اعتماداً على ما لدى هؤلاء العلماء من بيانات وإحصاءات من ناحية واستفادتهم من كتابات الاقتصاديين الأول من ناحية أخرى ، وقد أجريت دراسات عديدة على تجارب بعض البلدان الأوروبية خلال القرنين الماضيين ، كان الهدف منها الوقوف على أسلوب هذه البلدان فى عبور التقليدية والتخلف فى نظام الإنتاج والاقتصاد عامة ، وكذلك فى مجال العادات والتقاليد والقيم وأنماط السلوك والتفكير والتحول من كل هذا إلى مجتمعات تأخذ بأساليب إنتاجية متقدمة ومتحررة من قيود هذا التخلف ومعوقاته ، وقد كان هدف هذه الدراسات هو الوصول إلى نظرية عامة تفسر النمو وعوامله وعوائقه ، وتفيد فى مواجهة مشكلات التخلف ، وإحلال

---

(١) أنظر هنا : عبد الهادى والى ، التنمية : مدخل لدراسة المفهومات الأساسية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ ، الفصل الأول والثانى .

التنمية . وقد توصل بعض هذه الدراسات إلى إعلاء شأن المتغيرات التكنولوجية ، بينما انتهى البعض الآخر إلى القول بنوع من الحتمية الاقتصادية ، واستخدم فى الوقت نفسه مفهومات تنتمى إلى مجال الاقتصاد .

فلقد كانت ثروة الأمم تقاس بما لديها من ذهب وفضة ومعادن نفيسة . وقد أدرك علماء الاقتصاد أن مجرد اقتناء هذه المعادن دون توظيفها لخدمة التراكم لا يعنى شيئاً فى مجال النمو الاقتصادى ، ومن هنا أيدو الدعوة للقضاء على الإقطاع فى ضوء ما شاهدوه من جوانب الإنفاق البذخى الذى تتسم به هذه الطبقة ، ومن منظور أنه - فضلاً عن الاكتناز - يهدد التراكم المنشود . فقد ظلت قضية التنمية بمعنى تطوير الاقتصاد القومى ، موضوعاً ينتمى إلى دراسات الاقتصاديين وأبحاثهم ، حتى إذا جاء آدم سميث A. Smith ، وقدم كتابه الشهير " بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم " وتضمن عناصر محدودة للتنمية منها :

أ- ضرورة إحداث كتغييرات هيكلية تتمثل فى القضاء على الإقطاع .

ب- وضع سياسات للتراكم تتمثل فى الدعوة للادخار والهجوم على الإسراف .

ج- إحداث تقدم تكتيكى يتمثل فى تقسيم العمل .

د- ضرورة وجود سياسة اقتصادية تقوم على إطلاق حرية رجال الأعمال ، ومنحهم صلاحية دفع عجلة الإنتاج والاقتصاد القومى[1].

وقد ظهرت هذه الأفكار فى ظل التغيرات الكبرى التى كانت تحدث فى أوروبا الغربية ، ومن أهمها ظهور دول تقوم على أساس الوحدة القومية فى ظل الملكيات المطلقة دون تصفية كاملة للإقطاع ، وفى الوقت ذاته اندلعت الثورة الفرنسية ، وشهدت بداية القرن التاسع عشر انتشار الصناعة ، وانتصار الطبقة الرأسمالية ، وتصفية الإقطاع ، ومن هنا انتهت مشكلة التطوير فى نظر الاقتصاديين الذين تأثروا بفكر ، الطبقة الصاعدة ، واستقرت الفلسفة الاقتصادية فى هذا الوقت على تقديس الفردية والنفعية ، أو ما أطلق عليه النظام الطبيعى الذى يسمح للطاقات الإنسانية بغزو آفاق جديدة وقهرها ، فالفرد أكثر الناس إدراكاً لمصالحة ، وسوف يجتهد فى قطاعات تحقق له ربحاً واضحاً ، الأمر الذى يؤدى إلى تطوير هذه القطاعات والتحول إلى قطاعات أخرى ، وتبدأ دورة جديدة فى العمل

---

(١) شارل بتلهيم . التخطيط والتنمية ، ترجمة إسماعيل صبرى عبد الله ، دار المعارف . القاهره . ١٩٩٦ . ص ص ٣٧-٣٨ .

والإنتاج وهكذا . وإذا ما حدثت هذه الظاهرة على مستوى الدول كأن تتخصص دولة فى إنتاج معين ، وأخرى فى إنتاج آخر ، فإنه سيحدث تطوير على مستوى العالم ككل يتمثل فى تنمية كافة فروع الإنتاج ، واستغلال كل الموارد الطبيعية ، واستخدام كافة الأيدى العاملة ، وسوف تدفع المنافسة المنتجين إلى السعى لخفض تكلفة الإنتاج من أجل زيادة الربح . وبالتالى يتزايد الإنتاج ، وتقل التكلفة ويحصل المجتمع بشكل مستمر على كميات متزايدة من السلع الاستهلاكية التى تنخفض قيمتها بالتدريج وهذا يعنى ارتفاع مستوى المعيشة على نحو اطرادى دائم[1].

وقد أدت هذه الاهتمامات الجديدة إلى انتهاء عصر المدرسة الكلاسيكية فى الاقتصاد لتحل محلها المدرسة الكلاسيكية المحدثة ، وهذه المدرسة تدور أبحاثها جميعاً حول الفرد كمنتج يسعى إلى أعلى ربح ممكن أو كمستهلك يسعى لأقصى إشباع ممكن لحاجاته ، كذلك تدور حول فروض من أهمها سيادة المنافسة الكاملة بين المنتجين والحرية الكاملة فى الإنتاج والعمل والاستهلاك ، وعندئذ انصبت عناية الاقتصاديين على فكرة

(١) السيد بدوى ، علم الاجتماع الاقتصادى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ص ص ٢٦-٢٧ .

"التوازن الاقتصادى " وهذه الفكرة ترفض التنمية والتطوير ، لأنه التوازن يعنى رفض الحركة ، والحركة جوهر التنمية والتطوير ، واستمر الأمر على هذا الحال ، ولم يلتفت أحد إلى ظهور المدارس الاشتراكية التى ظهرت ، وازدهرت فى منتصف القرن التاسع عشر . كذلك لم يهتم علماء الاقتصاد بالتجربة السوفيتية اعتقاداً منهم أنها سوف تنتهى إلى إفلاس مؤكد ، إلا أن فترة الكساد الأعظم (١٩٢٩ - ١٩٣٤) ، وما صاحبها من تدهور وبطالة وهزات اجتماعية وسياسية ، هذه الفترة أظهرت خطورة الوضع السائد وخطأ السياسة الاقتصادية المسلم بها ، وتوصل بعض الباحثين إلى إدانة المنافسة الكاملة لقيامها على بعض الأسس الاحتكارية ، فهى منافسة بين احتكارات ، وهنا ظهر اللورد كينز Keynes قائلاً بأن الحرية الاقتصادية لا تحقق لنا العمال الكاملة تلقائياً ، كما لا تحقق الاستخدام الكامل للموارد الطبيعية .

واقترح مجموعة من الإجراءات لمقاومة الكساد تقوم كلها على تدخل الدولة . وتتلخص نظرية اللورد كينز فى وجوب تدخل الدولة لحماية الاقتصاد القومى من الأزمات الحادة التى يؤدى إليها - دوريا - إطلاق مبدأ الحرية الاقتصادية . فكلما ظهرت بوادر كساد سارعت الدولة إلى اتخاذ إجراءات تكفل

وتسهل الإنفاق العام والخاص لتزيد الطلب على السلع والخدمات ، ويدب النشاط من جديد فى الحياة الاقتصادية ، ومن هذه الإجراءات خفض الضرائب وسعر الفائدة على القروض وزيادة الإنفاق الحكومى عن طرق التمويل بالعجز ، وإذا ما اندفع الاقتصاد بسرعة تهدد بالتضخم ، وارتفاع الأسعار تلجأ الدولة من جديد إلى اتخاذ إجراءات عكسية تتضمن ضغط الإنفاق أو ضغط الطلب فتزيد الضرائب ، وسعر الفائدة وخفض الإنفاق الحكومى ، إلا أنه مما يؤخذ على هذه النظرية أن من الأمور المحيرة الآن وجود البطالة إلى جانب زيادة معدلات التضخم فى البلدان الرأسمالية . وربما يرجع ذلك إلى طبيعة علاقات بعض الدول الرأسمالية بالعالم الثالث[1].وقد ترتب على كل ذلك إهمال الجوانب الاجتماعية فى عمليات التنمية وإغفال أثرها ، وساد اعتقاد بأن التنمية الاقتصادية هى المتغير المستقل ، وأنها السبيل الوحيد لإحداث التقدم الإجتماعى ، وأن العوامل الاجتماعية تمثل متغيرات تابعة أو لاحقة لهذا المتغير المستقل ، ومن بين الدعاوى التى ساقها أنصار هذا الاتجاه أن الفقر هو أساس التخلف ، وبالتالى فإن توفير الدخل المناسب للمواطنين

---

(١) إسماعيل صبرى عبد الله ، نحو نظام اقتصادى عالمى جديد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ص ٨٤-٨٥ .

سوف يساعد بشكل مباشر على تغيير أوضاعهم الاجتماعية ، بما فى ذلك جوانبها التعليمية والثقافية والصحية وغيرها . كما يذهب هؤلاء إلى أن الثورة الصناعية ، وما تبعها من نتائج تقدميه فى اقتصاديات البلدان الغربية قد أدت دون شك إلى نتائج اجتماعية منها انخفاض معدلات الوفيات بين الأطفال وارتفاع متوسط العمر وتحسن الغذاء وارتفاع مستوى الإسكان والخدمات ، وهذه كلها تعتبر مؤشرات على حدوث تنمية اجتماعية حقيقية .

غير أن الجديد فى مجال الاهتمام بقضية التنمية يتمثل فى أن الدعاوى السابقة تنطوى على مزيد من السطحية فى فهم التخلف والنمو ، ونظراً لتشابك ظواهر الحياة الاجتماعية وتساندها وظيفياً ، بحيث يصعب عزو التقدم أو حتى التخلف فيها إلى عامل دون آخر ، أو متغير وحيد ومستقل ، وحتى لو جاز ذلك فى مجال آخر من مجالات المعرفة الإنسانية كالعلوم الطبيعية مثلاً ، فإنه لا يستقيم عند محاولة التخطيط لإحداث تغيرات جوهرية فى الواقع الاجتماعى وأبعاده المتعددة ، هذا وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه إذا كانت التكنولوجيا تمثل المتغير المستقل كما يبدو للبعض ، والمتغير التابع كما يبدو للبعض الآخر ، فإن من المحتم رغم هذه التصورات أن عادات

الناس والقيم التى يكيفون سلوكهم على أساسها هى التى تحدد نوع التكنولوجيا ناحية ، وتحدد ما يمكن أن يحرزه الإنسان فى حاضرة ومستقبله من ناحية أخرى ، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه المتغيرات الاجتماعية هى التى تحدد الاحتياجات المستقبلية التى ينبغى أن تتوافق معها التكنولوجيا .

وليس هدفنا هنا أن نتوصل إلى إنكار أثر العوامل الاقتصادية فى التنمية ولكن على العكس من ذلك فإن لدينا اعتقادا راسخا يتمثل فى أنها أقرب العوامل تأثيرا فى هذا المجال . غاية ما نتوجه إليه هو أن تغليب العوامل الاقتصادية على غيرها من العوامل أمر ينطوى على خطأ علمى مؤكد ، خاصة وأن عددا غيرا قليل من العلماء يؤكد على أن المعايير والتنظيمات الاجتماعية تشكل الدافع المحورى فى توجيه أبناء المجتمع نحو سياسات بعينها ، أو إعطاء أولويات معينة لجانب أو آخر . كما يؤكد هؤلاء على أن النظام الاقتصادى ما هو إلا محصلة نمو وتطور الاتجاهات السائدة فى المجتمع نحو الملكية والاستثمار والإنتاج ، أو بمعنى آخر فإن هذا النظام يشكل محصلة روح الشعب أو المجتمع ، هذه الروح التى بدونها لا يمكن أن تتحدد معالم النظام الاقتصادى وأهدافه .

ومن هنا يمكن القول إن التحليل العلمى لطبيعة الحياة

الاجتماعيـة وتفسـير وقائعـها بمحاولـة إرجـاع مـا يحـدث فـى جوانبها من تقدم أو تخلف إلى العـامل الاقتصـادى ، أو غـيره مـن العوامل على حده ، أمر مجاف للواقع ، نظـراً للتداخـل والتكـامل بين جوانب هذه الحياة ، الأمـر الـذى يجعـل مـن تعـدد العوامـل عند التفسير ضرورة علمية وموضوعية لا غنى عنها .

هـذا وعلـى الرغـم مـن الاعتراضـات التـى كـانت تثـور من جانب علماء الاقتصاد التقليديين ، والتـى كـانت تسـتنكر هـذا القـول وترفضـه ، ولا ترضـى بغـير العـامل الاقتصـادى بديـلاً للتفسير والتحليـل ، إلا أنـه أصبح هنـاك شـعور متزايد بـإدراك أهميـة المتغـيرات الاجتماعيـة ، وصـار تشـخيص قضايـا التنميـة ومشـكلاتها علـى الأسـاس الـذى أشـرنا إليـه هنـا مدخـلاً ملائمـاً ومقبولاً للدراسات التى تكرس جهدها فى هذا المجال .

وعندما تعاظمت أهمية العوامل الاجتماعيـة علـى المسـتوى العلمى والعملى فى التنمية ، صاحب ذلك وعـى متزايد بالحاجـة إلى إحـداث تنميـة اجتماعيـة شـاملة فـى بلـدن آسـيا وأفريقيـا وأمريكـا اللاتينيـة ، وهـى بلـدان مـا اصطلحنـا علـى تسـميتها بالعالم الثـالث ، خاصـة بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة ، ذلـك أن هذه البلدان إذا كـانت قـد رفعـت شـعار الاسـتقلال السياسـى فـى مرحلة المطالبة والكفاح من أجل التحرر ، فإن شـعوبها قـد قبلـت

ألواناً من التضحية من أجل تحقيق هـذا الهـدف وأرجـأت الكثـير مـن تطلعاتـها ليـوم تتحقـق فيـه الأبعـاد الاجتماعيـة لهـذا الاستقلال ، تلـك الأبعـاد التـى تتمثـل فـى الآمـال والتوقعـات ، وجوانب الطمـوح الأخـرى ، وفـى ضـوء هـذه الاعتبـارات اسـتبان لقيادات هذه البلدان أن قضية التنمية قد أصبحت قضية عصرهـا ، وأن تحقيقها فى هذه البلدان هـو محـك نجاحـها ومعيـار تحـرره الحقيقى .

وبذلك يتضح أن علـم الاجتمـاع التنميـة Sociology Of Development قـد نشـأ كـرد فعـل إزاء خيبـة الأمـل التـى استشعرها بعض العلماء وكثير من الساسـة مـن الـتركيز التقليـدى القصير النظر على الجوانب الفنية (التكنولوجيـة) والاقتصاديـة من عملية التنمية ، أو من الانحصار الضيق فـى دائـرة الانتهازيـة السياسـية التـى كـانت تريـد تقديـم " مسـاعدات فنيـة " للبـلاد النامية بشكل أكثر كفاءة ، فقـد كـان يذهـل المسئولين فـى البـلاد الصناعيـة الغربيـة أن مـا يقدمـوه مـن مسـاعدات إلى بعـض الـدول النامية ، ومـا يقيمونـه مـن مشـروعات يصـادف فشـلاً ذريعـاً فـى كثير من الأحيان يتجلـى فـى رفـض الأهـالى لـه ، أو عـدم ثقتـهم فيـه ، بـل وأحيانـا يـؤدى إلى نتـائج عكـس مـا أرادوا لـه ، هــذا بـالطبع رغـم اسـتكماله لكـل المقومـات الفنيـة الصحيـة وسـلامته

الاقتصادية من وجهة نظر الاقتصادى الغربى . ولكن الحقيقة أن " مشروعات التنمية " هذه التى كانت البلاد الغنية تقدمها كمعونة فنية كانت تفتقر إلى البيانات الإحصائية الدقيقة عن طبيعة الحياة فى البلاد التى ستقام فيها ، كما كان القائمين على تخطيطها وتنفيذها يفتقرون إلى الدراية الكافية بالظروف البنائية الاجتماعية لتلك البلاد[1].

وأصبحت التنمية تمثل ميداناً جديداً يتعاظم شأنه فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى إما لأنه الامتداد الطبيعى لدراسات التغير الاجتماعى والثقافى ، أو لأنه يثير من الناحية العلمية قضايا عديدة تتعلق بتجارب اجتماعية حية فى مسيرتها بكل ما تنطوى عليه من دينامية ، وبكل ما تطرحه من مشاكل للتغلب على التخلف من خلال توجيه النمو فى نحو أهداف مضبوطة ومحدودة تترجم عن تطلعات المجتمعات النامية للتقدم. ولهذا أصبح مألوفاً الآن أن يؤكد علماء الاجتماع أن التنمية الاجتماعية والاقتصادية قضية كبرى من قضايا هذا العصر فرضتها ظروف التقدم العلمى والتكنولوجى وأوجبتها مسئولية القيادات المختلفة فى المجتمع عن وضع الإنسان فيه فى موضع ملائم من حركة التقدم الحضارى العالمى ، والتعامل مع ما

---

(١) محمد الجوهرى . مرجع سابق ، ص ٤٧٧

هو مطروح تاريخياً مـن مشـاكل التخلـف وصعوبـات النمـو ، ومـا يظهر بالضرورة من مشاكل التنمية ذاتها[١].

---

(١) محمـد عـاطف غيـث . محمـد علـى محمـد ، دراسـات فـى التنميـة والتخطيـط الاجتماعى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٩ ، ص ص ١٢-١٣ .

خامساً : القانون والمجتمع :

يعرف القانون بأنه نسق مكون من معايير مقننة تنظم السلوك الإنسانى ، وتقوم السلطة الرسمية العامة (السياسية) بفرض القوانين وتفسيرها[١].

والقانون هو مجموعة القواعد التى تنظم سلوك الأفراد داخل المجتمع تنظيماً ملزماً مقترناً بعقاب لمن يخالفه ، وينظم القانون العلاقات الاجتماعية داخل العديد من الأنشطة الإنسانية فى الأسرة ، وفى الاقتصاد ، وفى العمل ، وفى السياسة ، وفى الترفيه ، وفى المدينة ، بل وحتى فى العالم حيث ينظم القانون العلاقات بين الدول وبعضها البعض ، وللقانون صور وأشكال تختلف باختلاف المجتمعات ودرجة تطورها ، ونوعية نظمها الاجتماعية ، وعلى ذلك فإن القانون يصبح موضوعاً لدراسة مختلف أنواع المعرفة والعلوم[٢].

وتعتبر الظاهرة القانونية ظاهرة معقدة تشتمل على عناصر مختلفة بعضها واقعى والآخر مثالى ، وتتميز بخصائص متعددة بعضها رسمي والبعض الآخر غير رسمى . وقد ترتب

---

(١) محمد عاطف غيث وآخرون ، المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩١ ، ص ٢٦٧ .

(٢) سمير نعيم أحمد ، علم الاجتماع القانونى ، مطبعة القاهرة الجديدة ، القاهرة ط٢ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢ .

على ذلك أن أولئك العلماء الذين حاولوا وضع تعريف للقانون كانوا دائماً ينتقون خاصية من خصائص القانون ، أو عنصراً من عناصره ويجعلونه أساساً لتعريفهم ، ولذلك تعددت تعريفات القانون بتعدد المنظورات إليه . وفي هذا الصدد اعتمد عدد من العلماء في تعريفهم للقانون على تلك الصفة الملزمة للمعايير القانونية بوصفها قواعد تفرضها الدولة ، وتقوم بتنفيذها عن طريق استخدام القوة . قد قوبل هذا التعريف بالنقد الشديد من جانب بعض علماء الاجتماع ، ومن أهم الذين عبروا عن ذلك النقد هو سوروكن Sorokin حيث قسم نقده إلى ثلاث أفكار أساسية هي[1]:

أ- إن الدول كصورة من صور الجماعات المنظمة لم تظهر إلا في وقت متأخر نسبياً من تاريخ الجنس البشرى ، وقبل ظهورها كانت هناك عشائر وقبائل وجماعات طوطمية تقوم بوظائفها ، وليس من المعقول تصور وجود تلك الجماعات بدون قانون .

ب- توجد في كثير من المجتمعات وفي الفترات الزمنية المتلاحقة قوانين غير معترف بها من جانب الدولة كالقوانين العرفية ، والقوانين الخاصة بالمزارعين ، وقوانين أخرى

---

(١) سامية محمد جابر ، مرجع سابق ، ص ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

كثيرة ظهرت ولم تكن فى حاجة إلى اعتراف رسمى من الدولة ، وفى العصر الحديث توجد فى كل مجتمع من المجتمعات جماعات منظمة لها قوانينها الخاصة التى ليست لها علاقة بالدولة .

ج- ذهب سوروكن إلى أن وجود الدولة يدل على وجود القانون ، وأنه بدون المعايير القانونية لا يمكن أن توجد الدولة ، ومعنى ذلك أن وجود القانون سابق على وجود الدولة ، ومن ثم لا يمكن تعريف القانون عن طريق القول بأنه يرجع إلى قوة ملزمة تفرضها الدولة .

وذهب فريق آخر فى تعريفه للقانون معتمداً على فكرة الإرادة العامة إلى أن المعايير القانونية هى تعبير عن هذه الإرادة . وقد انتقد سوروكن أيضاً هذا التعريف ، وذهب إلى أنه إذا كان القانون يعتمد على الإرادة العامة ، فإنه لابد من استثارة أعضاء المجتمع أو أفراد الشعب فيما يخصهم من قواعد ومعايير ، ولكن ذلك لا يحدث فى الغالب ، فالمعايير القانونية ليست مرتبطة بأية استثارة تتعلق بأشخاص فى الدولة . وذهب فريق ثالث إلى أن القوانين تستهدف حماية حرية أعضاء الجماعة ، أو أنها توزع الحقوق والواجبات بطريقة عادلة ، وتحمى المصلحة العامة لأعضاء المجتمع ، وقد تعرض هذا التعريف أيضاً

للنقد ، ذلك لأن هناك معايير قانونية كانت تمنح السلطة غير المحدودة لشخص مستبد على شعبه ، وهذه المعايير لا تحمى مصالح وحريات وحقوق أفراد الشعب ، وإنما تحمى مصالح الحاكم المستبد ، ويعتمد فريق رابع فى تعريفه للقانون على فكرة مؤداها أن القانون يشتمل على مجموعة المعايير التى قام العقل بتطويرها ، وأن الصورة الراهنة التى تتخذها المعايير القانونية فى أى مجتمع إنما تعكس درجة النمو التى وصل إلها عقل الإنسان فى مجتمع ما أو آخر ، ويعترض سوروكن على هذا التعريف ، فيذهب إلى أن كثيراً من المعايير القانونية ظهرت وتطورت عن طريق المحاولة والخطأ وفى اعتماد على أى تفكير عقلى منظم أو على خطة مقصودة وموجهة ، وما هو أكثر من ذلك أن هناك معايير قانونية مختلفة تقوم على معتقدات لا تتفق مع العقل ، بل تتناقض معه ، وتعتمد على الجهل الذى يتعارض مع التجربة الواقعية[1].

ويقسم القانون إلى فرعين أساسيين هما القانون العام والقانون الخاص .

ويتناول علماء الاجتماع القانون باعتباره أحد عوامل الضبط الاجتماعى ، وقد حظيت عملية الضبط الاجتماعى

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

Social Control باهتمام متزايد ، هذا إلى جانب التركيز على عملية خلق مؤسسات وهيئات تعمل على تحقيق هذا النوع من الضبط . ولعل عبد الرحمن بن خلدون كان من أوائل العلماء الذين أشاروا إلى طبيعة العلاقة بين الضبط الاجتماعى ، والقضايا التى يهتم بها علم الاجتماع القانونى Sociology Of Law ، فهو حينما يؤكد على ضرورة الضبط الاجتماعى فى الحياة الإنسانية يرى أن الإنسان رغم أنه مدنى بطبعه إلا أن لديه ميولاً عدوانية تتطلب وجود إدارة معينة لضبط سلوكه وتنظيمه ، ومن هنا ذهب إلى أن الدين يعتبر من أهم وأقوى عوامل الضبط فى المجتمع ، خاصة إذا انطوى على تنظيم واضح للنواحى الدنيوية إلى جانب النواحي الروحية ، لأنه فى هذه الحالة سوف يكون مشتملاً على القانون ، والجوانب الأخلاقية للسلوك ، والمثل العليا التى تعبر عن العوامل التلقائية للضبط الاجتماعى[١].

والضبط الاجتماعى يشير فى معناه إلى كل مظهر من مظاهر ممارسة المجتمع للسيطرة على سلوك الأفراد الذين ينتمون إليه ، فضلاً عما يتخذه المجتمع من وسائل تكييف الناس على نحو يتلاءم وقواعد التفكير والعمل معاً[٢].

---

(١) أحمد الخشاب ، الضبط الاجتماعى : أسسه وتطبيقاته العملية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٤٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٩ .

إلا أن للضبط الاجتماعى جذور قديمـة تتمثـل فـى القواعـد التى كانت تنظـم السـلوك الإنسـانى مـن أجـل تحقيـق النظـام فـى المجتمع وبلوغه أقصى درجـة ممكنـة مـن التكـامل . وقـد بـرزت مسـألة حـث الأفـراد علـى الامتثـال لقواعـد المجتمـع ومعايـيره والمحافظة على النظام كموضـوع للدراسـة منـذ العصـور الوسـطى . وتناولها عدد من المشرعين والفلاسـفة والسياسـيين ورجـال الديـن وغـيرهم ، ولكـن الدراسـة السوسـيولوجية للضبـط الاجتمـاعى كموضوع مستقل ومتميز تعتبر دراسة حديثـة نسـبياً ، فلقـد كـان إدوارد روس E. Ross أول من استخدم مصطلح الضبط الاجتمـاعى حينما نشر عنه دراسة متكاملة فى عام ١٩٠١ ثم تطـورت دراسـة الضبط الاجتمـاعى فـى السـنوات الأخـيرة بـتزايد الأبحـاث التـى أجريت على الجماعات والتفاعل الاجتمـاعى ، ومـا نتـج عـن هـذه الدراسات والأبحاث من ظهور موضوعات جديدة فى علم الاجتمـاع كمستويات الفعل الاجتماعى والمعايير الاجتماعية والقيم والقواعـد العامة للسـلوك[1]. وقـد توصـل المـهتمون بـهذا الموضـوع إلى وجـود عمليتين تساعدان على امتثال الأفـراد لقيـم المجتمـع ومعايـيره ، الأول : هـى عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة وتسـاعد علـى إكسـاب

---

(١) محمد عاطف غيث ، المشاكل الاجتماعية والسـلوك الانحرافى ، دار المعـارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٧ ، ص ص ١٧٧-١٧٨.

الفـرد قيـم المجتمـع وقوالـب السـلوك المقبـول فيـــه . والأخــرى تشـتمل علـى ميكانيزمــات الحيــاة الاجتماعيــة بشــكل يحــول دون وقوع الانحراف أو إثارة عوامله[١].

ولقد انطوى البحث فى موضـوع النظـام الاجتمـاعى بمعنـى Social Order علـى مزيـد مـن الفحـص والتعمـق لمفـهوم الضبـط الاجتماعى ، فقد تساءل علماء الاجتمـاع الأول عـن العوامـل التـى تساعد على تحقيق النظام والاستقرار فى المجتمع . وتحدثـوا عـن السـمات الغريزيـة لـدى الإنسـان ، وأسـلوب تهذيبـها والسـيطرة عليـها ، وكذلـك عـن الـرأى العـام والتوافـق الثقـافى لـدى أعضـاء الجماعة ثم أثاروا مسألة الروابـط العاطفيـة بـين أعضـاء المجتمـع ودورها فى تحقيق تضامن فعال وقوى ، وبحثـوا أيضـا فـى مسـألة الاعتماد الوظيفى المتبادل سواء على مسـتوى الفـرد أو المجتمـع ، وأخـيراً تنـاولوا الضبـط الاجتمـاعى الرسمـى الــذى يعمـل علـى دعم القوى الإيجابية فى المجتمع . وقمع عوامل الهدم فيه[٢].

وفى مجال دراستهم لهذا الموضوع ذهب علماء الاجتماع إلى أن هناك عمليات يتركز هدفها حول المحافظة علــى النسـق وقمـع

---

(١) المرجع السابق . ص ص ١٧٩-١٨٠

(2) Luengermann, Patricia M., Definition Of Sociology: A Historical approach, Merrill Publishing Company, Ohio, 1974, p.206.

العوامل التى تحول دن ذلك ، وهذه أطلقوا عليها " الضبط الاجتماعى " كما أن هناك عمليات تهدف إلى التنسيق بين الأفعال الاجتماعية المختلفة ، وتلك أطلقوا عليها " التنظيم الاجتماعى " ورأوا أن العمليتين السابقتين وهما " الضبط والتنظيم " هما وظيفتين من وظائف النسق السياسى أو من وظائف الدولة(١).

وقد أسهم كثير من العلماء فى دراسة مفهوم الضبط الاجتماعى والاجتماع القانونى ، ومن أبرز هؤلاء مونتسيكو فى كتابة روح القوانين ، حيث يشير إلى أن لكل مجتمع ضوابطه القانونية وهذه تتغير وفقاً لظروف هذا المجتمع واحتياجاته ، وكذلك فإن لكل مجتمع قانونه الذى يتلاءم مع بيئته الطبيعية والاجتماعية ، أى أنه يؤكد على العلاقة بين القانون والضبط والظواهر الاجتماعية والنظم وهذه العلاقة تتألف منها روح عامة تؤثر على السلوك الاجتماعى وتضبط التصرفات وتؤثر على المؤسسات والتنظيمات الاجتماعية والقانونية(٢).

ويثير الحديث عن الضبط الاجتماعى ، التعرض لمفاهيم أخرى مثل بناء القوة فى المجتمع والسلطة والسيطرة الاجتماعية وغير ذلك من المفاهيم ، ولكن يهمنا هنا أن نشير إلى أهم وسائل

(1) Ibid, p.224.

(٢) أحمد الخشاب ، مرجع سابق ، ص ٤٦ .

الضبط الاجتماعي هي خمس عشرة وسيلة مرتبة من حيث أهميتها وهي : الرأى العام Public Opinion ، والقانون Law والعقيدة Belief ، والإيحاء الاجتماعي Social Suggestion ، والتربية Education والعادة الجمعية Custom ، والدين Religion ، والمثل العليا الشخصية Personal Ideals ، والشعائر والطقوس Ceremony ، والفن Art ، والشخصية Personality والتوعية والتنوير Enlightment ، والأساطير والأوهام Illusion ، والقيم الاجتماعية Social Values ، وأخيراً القيم الخلقية التي تدافع عنها الطليعة الواعية(١).

ويمكن من جانبنا أن نصنف هذه الوسائل إلى نوعين الأول : لابد أن يكون متضمناً في النسق القانوني المعمول به في المجتمع ، فكل نسق قانوني يتضمن بالضرورة عدة قوانين فرعية في تنظيم مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، هذا فضلاً عن بعض القيم والمثل العليا الدينية والأخلاقية التي تتضمنها الدساتير وبعض القوانين ويمكن أن نشير إلى أن النوع الأول من الضوابط يعتبر ضوابط رسمية ومحددة . أما النوع الثاني فيتضمن عمليات تساعد على تسليح الأفراد بالقيم العليا التي تكفل مصالح المجتمع ، فالرأى العام والتنشئة الاجتماعية وبناء الشخصية

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٥١-٥٣ .

ونمط التنشئة فى الأسرة ، كل هذه تهدف إلى دعم الجانب الذاتى لدى الأفراد والجماعات وإمدادهم بما يشكل له طاقات فعاله ومشاركة ، وهذا التصنيف يتفق مع ما ذهب إليه روس من أن هناك مصدرين رئيسين للضبط الاجتماعى الأول وضعى سياسى ، والآخر إلزامى أخلاقى . وقد كان ذلك مقدمة للحديث عن وسائل للضبط الموضوعى والمقنن والذى يهدف إلى حماية نظام المجتمع ، والمحافظة على استقرار تنظيماته ، ومن أهم هذه الوسائل القانون، أما الوسائل الأخرى فهى ضابطة بشكل تلقائى وغير مباشر وغير متعمد ومستمد من الطبيعة الاجتماعية .

الفصل الثامن

العــولمة

محتويات الفصل

تمهيد :

أولاً : تعريف العولمة .

ثانياً : النموذج المعرفى للعولمة .

ثالثاً : النشأة التاريخية للعولمة .

رابعاً : القديم والجديد فى العولمة : حالة مصر .

تمهيد :-

زادت وتيرة استخدام مصطلح " العولمة " فى السنوات القليلة الماضية، بحيث لا يخلو حديث لرئيس دولة ، أو حكومة ، أو رجل أعمال، أو فى وسائل الاعلام المختلفة ، أو قاعات المحاضرات فى كليات العلوم الاجتماعية من ذكرها ، وبيان محاسنها وعيوبها ، ومكاسبها وخسائرها ، وكيفية التعامل معها.

وتعد العولمة إحدى نتائج مواكبة الفكر الاجتماعى الحديث لواقع الحياة المتغيرة ، وتياراتها الفكرية المتعددة ، وقد شمل هذا التيار بلدان العالم النامى والحديث على حد سواء .

كما تعد الأبعاد الاقتصادية للعولمة هى أبرز ملامحها ، ويبدو أن العالم اليوم أصبح معولما اقتصاديا أكثر منه ثقافيا وسياسيا ، ومن ثم هيمن المفهوم الاقتصادى للعولمة لدى الكثيرين ، أما الأبعاد الثقافية والاجتماعية للعولمة فهى أقل وضوحاً ، أو أكثر غموضا من الأبعاد الاقتصادية .

وقد كان للعولمة تأثيرات بالغة الأثر على كافة جوانب الحياة المجتمعية، الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية ، وانقسمت الآراء حول هذه الآثار ، فمنها ما يرى العولمة ذات الوجه الانسانى الذى يؤتى ثماره فى الحياة المجتمعيه ويؤدى إلى التقدم الانسانى فى مختلف أرجاء المعمور ، ومنها ما يرفض العولمة ويرى أنها قادت

المجتمع المعاصر إلى أزمة وأدت إلى زيادة حدة التفاوت بين دول الشمال والجنوب ، وتعميق الاغتراب الثقافى و ترسيخ التفاوتات الاجتماعية .

لكن التعامل مع العولمة يقتضى منا أن لا نقبلها كل القبول ، أو نرفضها كل الرفض ، و إنما يقتضى ضرورة اتخاذ إجراءات و إستراتيجيات للتعامل معها ، حتى يتم تعظيم الفوائد المحتملة من عملية العولمة ، والتقليل من سلبياتها ومخاطرها .

إن التقدم الفكرى والحضارى عبر مسيرة التاريخ أنتج نظريات ومذاهب، اتجهت كلها لواقع الحياة الاجتماعية الشاملة متضمنة الأبعاد الاقتصادية والثقافية والسياسية ولقد رأينا عدم إغفال هذا التيار الجارف فى رصدنا لمسيرة الفكر الاجتماعى ، وانعكاساته على واقع الحياة الاجتماعية ، وإذا كانت منتجات هذا الفكر الاجتماعى قد تجلت فى المراحل السابقة من خلال بلورة أساليب للعمل والإنتاج والحكم والسياسة وغيرها ، فان ما أفرزه الفكر الاجتماعى من تطورات فى مجال الاعلام والاتصال ، جعلت ظاهرة العولمة تبدو أمامنا كمذهب جديد ، وتيار جديد ، وفكر جديد لا يستطيع أحد أن يتجنبه.

ويتناول هذا الفصل ظاهرة العولمة ، من حيث التعريف والبناء" المعرفى، والنشأة التاريخية ، فضلا عن تجلياتها المختلفة ، و آثارها على قضايا الهوية والخصوصية التاريخية والثقافية وغيرها .

أولاً :- تعريف العولمة :-

لا يمكن الوصول إلى تعريف واحد قاطع للعولمة . شأن مختلف المفهومات فى العلوم الاجتماعية . فمن المتعذر حصر العولمة فى تعريف واحد مهما كان حظ هذا التعريف من الدقة والشمول . حيث تشهد الساحة العديد والعديد من التعريفات للعولمة.

فتعريف العولمة هو أمر شائك . وتوجد صعوبات كبرى فى الاتفاق على مثل هذا التعريف أو القبول بتعريف واحد ومحدد لهذه الظاهرة التاريخية التى مازالت فى حالة سيولة ، كما أن كل المعطيات والتجليات الأولى تشير إلى أنه لا ينبغى الاعتقاد أو الاقتناع بتعريف واحد لظاهرة تاريخية جديدة وغير مستقرة وضخمة ومتعددة المسارات ومليئة بكل الاحتمالات كالعولمة ، لذلك فمن الطبيعى أن يتفاوت فهم الأفراد للعولمة ومضامينها المختلفة ، فالاقتصادى الذى يركز على المستجدات الاقتصادية العالمية وطبيعة المرحلة الراهنة من التراكم الرأسمالى على الصعيد العالمى ، يفهم العولمة بخلاف عالم السياسية الذى يبحث عن تأثير التطورات العلمية والتكنولوجية المعاصرة على الدولة ودورها فى عالم يزداد انكماشا يوماً بعد يوم . كما أن عالم الاجتماع الذى يرصد بروز القضايا العالمية المعاصرة ، كقضايا الانفجار السكانى والبيئة والفقر والمخدرات وازدحام المدن والإرهاب بالإضافة إلى بروز المجتمع المدنى على الصعيد العالمى بفهم العولمة بخلاف المهتم بالشأن الثقافى . والذى يهمه ما يحدث من انفتاح للثقافات والحضارات

وترابطها مع بعضها البعض،و احتمالات هيمنة الثقافة الاستهلاكية وتهديدها للقيم و القناعات المحلية ، لذلك فلقد أصبح من الواضح أن العولمة تأخذ أكثر من شكل وتأتى فى أكثر من صيغة واحدة ، ومن ثم فمن الضرورى فهم الجوانب والمعانى المختلفة للعولمة[1].

يذهب " روزناو" إلى أنه يبدو مبكراً وضع تعريف كامل وجاهز يلائم التنوع الضخم لهذه الظواهر المتعددة ، فعلى سبيل المثال ، يقيم مفهوم العولمة علاقة بين مستويات متعددة للتحليل هى الاقتصاد والسياسة والثقافة والأيديولوجيا ، وتشمل إعادة تنظيم الإنتاج وتداخل الصناعات عبر الحدود وانتشار أسواق التمويل ، وتماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول، نتائج الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة ، فمنهجه يتمثل فى ضرورة تحديد المشكلات المرتبطة بهذا المفهوم منذ البداية [2].

ولتعريف العولمة لابد أن نضع فى اعتبارنا ثلاثة عمليات تكشف عن جوهرها العملية الأولى تتعلق بانتشار المعلومات ، بحيث تصبح مشاعة لدى جميع الناس ، والعملية الثانية تتعلق بتذويب الحدود بين الدول، والعملية الثالثة هى زيادة معدلات التشابه بين الجماعات

---

(١) عبد الخالق عبد الله ، العولمة : جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها، عالم الفكر ، المجلد الثامن والعشرون ، العدد الثانى ، أكتوبر – ديسمبر ، ١٩٩٩، ص ٥٠.

(٢) السيد يسين ، فى مفهوم العولمة ، المستقبل العربى ، العدد ٢٨٨ ، فبراير ، ١٩٩٨ ، ص ٦.

والمجتمعات والمؤسسات، وكل هذه العلميات قد تؤدى إلى نتائج سلبية بالنسبة لبعض المجتمعات ، وإلى نتائج إيجابية بالنسبة لبعضها الآخر، ويمكن القول بأن جوهر عملية العولمة يتمثل فى سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع بين الدول على النطاق الكونى ، ويذهب "روزناو" إلى أن المواد والنشاطات التى تنتشر عبر الحدود يمكن تقسيمها إلى ست فئات هى البضائع والخدمات ، والأفراد ، والأفكار والمعلومات، النقود ، والمؤسسات وأشكال من السلوك والتطبيقات ، وتتم عملية الانتشار من خلال أربعة طرق متداخلة ومترابطة تتمثل فى[1]:-

١- التفاعل الحوارى الثنائى الاتجاه عن طريق تقنيات الاتصال .

٢- الاتصال المونولوجى أحادى الاتجاه من خلال الطبقة المتوسطة .

٣- المنافسة والمحاكاة .

٤- تماثل المؤسسات.

ويعرف "رونالد روبرتسون " العولمة بأنها اتجاه تاريخى نحو انكماش العالم وزيادة وعى الأفراد والمجتمعات بهذا الانكماش ويذهب إلى أن العولمة لا تعنى الانكماش الموضوعى للعالم ، وإنما الأهم من الانكماش الذى حدث على صعيدى الزمان والمكان هو وعى العالم لهذا الانكماش فوعى العالم بالانكماش هو بنفس أهمية الانكماش الفعلى للعالم، بل أن الوعى بالانكماش هو أهم سمة من السمات المميزة للعولمة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧.

خلال التسعينات ، فالعولمة بهذا المعنى تشير إلى وعى وإحساس الأفراد فى كل مكان بأن العالم ينكمش ويتقلص ويقترب من بعضه بعضا.وإدراك العالم لمثل هذه الحركة يعنى أن العولمة قد أصبحت حقيقة حياتية معاشه فى الواقع وفى الوعى ، فالذى لا شك فيه أن سكان العالم هم اليوم أكثر وعيا بعالميتهم ، وهم أكثر إدراكاً لإنسانيتهم من أى وقت آخر ، فالعولمة تتضمن تخيل أن البشرية قد أصبحت أكثر ترابطاً بفعل وسائل الاتصال المتقدمة ، وتتصرف وكأنها وحدة واحدة ، وتتأثر بمجموعة من المؤثرات والقضايا العالمية المشتركة ، وتتعامل عبر مؤسسات عالمية ، وتحمل وعيا بالمصير والانتماء الإنسانى المشترك ، ولا شك أن مثل هذا الوعى يسمح بإعادة تأسيس العالم على أسس جديدة تنطلق من المجال العالمى ، وليس من المجال المحلى وتستند إلى فكرة أن العالم هو وحدة تحليلية واحدة(١) .

وحدد أحد الباحثين بعض الاعتبارات التى تفيد فى فهم الظاهرة وتحليلها من جوانبها المختلفة وتأثيراتها المتباينة تتمثل فيما يلى(٢) .

(١) السجال الذى يدور حول مفهوم العولمة ، وحول مختلف ممارساتها، وبرغم ذلك لم نصل بعد إلى فهم دقيق لما تعنيه كعلمية ثلاثية الأبعاد: اقتصادية وسياسية واجتماعية .

---

(١) عبد الخالق عبد الله ، مرجع سابق ، ص ص ٥٠-٥١.

(٢) أحمد محمد حجازى ، العولمة و تهميش الثقافة الوطنية : رؤية نقدية من العالم الثالث، عالم الفكر ، مرجع سابق ، ص ١٢٨.

(٢) العولة بالمفهوم المتداول الآن ، وبعد سقوط نظام القطبين ، واندثار العالم الثالث لم تعد منسوبة منذ عقدين تقريبا إلى كلمة globe أو كوكب الأرض ولكن تعرب بكلمة كوكبة Globalization ، وتصبح العولة كعلمية هى ترجمة لكلمة Globality وهى العملية التى تملك آليات التطبيق ، أى تحويل العالم إلى شكل موحد يلغى الحدود بين الدول والأمم.

(٣) عولة اليوم تتجاوز الحدود ، ولا تقر بالوطن باعتباره الفسحة الوحيدة المتاحة التى يستطيع فيها الناس ممارسة حقوقهم السياسية كاملة هنا ، أو منقوصة هناك .

(٤) تعنى العولة فى حياة الشعوب الأكثر فقراً ، التعبير الصارخ عن الهوة السحيقة المتزايدة عمقاً والتى تفصل بين قدرات الشعوب على تحقيق مطامحها ، و بين القرارات الكبرى التى تحدد مصيرها وتؤخذ دائما بمعزل عنها خارج الحدود.

(٥) العولة الكوكبية هى نتاج متغيرات متلاحقة تكرست بانتهاء الحرب الباردة ، فهى تمثل مرحلة جديدة يسميها البعض مرحلة " ما بعد الإمبريالية" ويسميها البعض الآخر مرحلة " ما بعد التنمية " ويتفق الجميع تقريباً على كونها الوليد الشرعى للشركات متعددة الجنسية، تلك الشركات التى استطاعت

السيطرة على معظم أجزاء الكوكب اقتصاديا واجتماعيا وسياسياً وثقافيا دون أن تنتمى إلى وطن محدد أو دولة معينة .

(٦) غياب الصفة الوطنية عن هذه الشركات لا يجعلها ملك البشرية جمعاء، فهى ملك الأغنياء فى دول الشمال تحديداً، حيث تغزو بنشاطاتها المتنوعة عشرات البلدان ، وتنتج فى عشرات البلدان الأخرى مصنعات وفق نظام الإنتاج عن بعد **Tele Production** .

(٧) فى ظل العولمة يختفى دور المصمم أو المبدع ليحل محله مروج السلعة ربائعها ، تلك السلع التى تنتجها الشركات متعددة القوميات وفق نظام الإنتاج عن بعد ، والتى تلعب فيها وسائل الاعلام الدور المحورى فى تشكيل طموحات المستهلكين للثقافة العولمة .

ويحدد المفكر السورى صادق العظم " العولمة بأنها " وصول نمط الإنتاج الرأسمالى عند منتصف القرن السابق تقريباً إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها ، أى أن ظاهرة العولمة التى نشهدها هى بداية عولمة الإنتاج.والرأسمال الإنتاجى ، وقوى الإنتاج الرأسمالية ، وبالتالى علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضا ونشرها فى كل مكان مناسب وملائم خارج المركز الأصلى ودوله ، فالعولمة بهذا المعنى هى رسملة

العالم على مستوى العمق ، بعـد أن كـانت رسملتـه علـى مسـتوى سـطح النمط ومظاهرة ، وينتهى الباحث إلى صياغة تعريف عام للعولمة بكونها " حقبة التحول الرأسمالى العميق للإنسانية جمعاء فـى ظـل هيمنـة دول المركز وبقيادتها[١] وتحت سيطرتها ، وفى ظل سيادة نظام عالمى للتبادل غير المتكافئ.

و للعولمة عدة أبعاد تتمثل فيما يلى[٢].

١- العولمة الاقتصادية :-

العولمة هى أساساً مفهوم اقتصادى قبل أن تكون مفهوماً علميـا أو سياسياً أو ثقافياً أو اجتماعياً ، كمـا أن أكـثر مـا يتبـادر إلى الذهـن عنـد الحديث عن العولمة هو العولمة الاقتصادية.

ويعود هذا الارتباط العميق والعضـوى بـين العولـة مـن ناحيـة ، والعولـة الاقتصاديـة مـن ناحيـة أخـرى إلى أن المظـاهر و التجليـات الاقتصادية للعولمة هى الأكثر وضوحاً فى هذه المرحلة مـن مراحـل بـروز وتطور العولمة كلحظة تاريخية جديدة، وتوحى العولـة الاقتصاديـة بـأن العالم الذى تشكل فى تسعينات القرن الماضى قـد أصبـح عالمـاً بـلا حـدود اقتصاديـة ، فـالنظم الاقتصاديـة المختلفـة أصبحـت متقاربـة ومتداخلـة ومؤثرة فى بعضها البعض ، ولم تعد هناك حدود وفواصل فيمـا بينـها ،

---

(١) السيد يسين ، فى مفهوم العولمة ، مرجع سابق ، ص ٨.

(٢) عبد الخالق عبد الله، مرجع سابق ، ص ٦٧.

فالنظام الاقتصادى العالمى هو اليوم نظام واحد تحكمه أسس عالمية مشتركة ، وتديره مؤسسات وشركات عالمية ذات تأثير على كل الاقتصاديات المحلية ، أما الأسواق التجارية والمالية العالمية ، فإنها لم تعد موحدة أكثر من أى وقت آخر فحسب بل هى خارجه عن تحكم كل دول العالم بما فى ذلك أكبرها وأكثرها غنى [١].

فالاقتصاد العالمى الحديث يتميز بعملية متماثلة من عدة عمليات أدت فى مجملها إلى التحول من الاقتصاد الدولى إلى الاقتصاد العالمى وتتمثل فيما يلى[٢] :-

أ - التحول المنظم والمستمر للإنتاج الصناعى من الولايات المتحدة وأوربا إلى الدول الصناعية الجديدة NICS فى ناحية الباسفيك وفى جنوب وشرق آسيا وأمريكا اللاتينية .

ب- الدور المتزايد لرأس المال كقوة رائدة فى الاقتصاد العالمى ،فرأس المال التمويلى قد أصبح قوة مستقلة فى العالم الحديث.

جـ الدور الكبير للمعلومات كعامل للإنتاج وكأساس للإدارة

---

(١) عبد الخالق عبد الله ، مرجع سابق ، ص ٦٧.

(2) Shachar, Arie, Economic globalization and Urban dymamics I , In Moulaert, Frank & Scott, Allen J. (eds) , Cities, Enterprises and Society on the eve of 21 Century, pinter, London, 1997,P.19.

ويعد انتقال مركز الثقل الاقتصادى العالمى من الوطنى إلى العالمى، ومن الدولة إلى الشركات والمؤسسات والتكتلات الاقتصادية هو جوهر العولمة الاقتصادية ، فالاقتصاد العالمى ونموه وسلامته – وليست الاقتصاديات المحلية– هو محور الاهتمام العالمى.كما أن الأولوية الاقتصادية فى ظل العولمة هى لحركة رأس المال والاستثمارات والموارد والسياسات والقرارات على الصعيد العالمى وليس على الصعيد المحلى . والعولمة الاقتصادية تستجيب لقرارات المؤسسات العالمية ولاحتياجات التكتلات التجارية ومتطلبات الشركات متعددة الجنسية أكثر من استجابتها لمتطلبات الاقتصاديات الوطنية التى أخذت تذوب فى الاقتصاد العالمى ، كذلك تصبح كيفية إدارة الاقتصاد العالمى أكثر أهمية من كيفية إدارة الاقتصادات المحلية[1].

وتجسد العولمة الاقتصادية فى حقيقتها مجموعة المستجدات والتطورات الاقتصادية التى برزت على الساحة بشكل واضح خلال تسعينات القرن الماضى ، ويأتى فى مقدمة هذه التطورات الدور المتزايد للشركات العابرة للحدود ، والتى ليس لها مقر أو وطن ، فلقد برزت فى الآونة الأخيرة مجموعة من الشركات الصناعية والمصرفية و الخدمية العملاقة والقائمة على دمج شركات أوروبية وأمريكية

---

(١) عبد الخالق عبد الله ، مرجع سابق ، ص ٦٨.

ويابانية ، و التى تقوم حاليا بنسج تحالفات عابرة للقارات والمحيطات والمتنوعة أشد التنوع فى نشاطاتها وتتسم هذه الشركات بأنه لم يعد لها هوية أو جنسية محددة ولم تعد تنتمى لدولة ولا تعترف بموطئ قدم واحدة ، ولا تؤمن بالولاء لأية قومية أو منطقة جغرافية كما أنه ليس لهذه الشركات مقر واحد ، ولا تتأثر بسياسات دولة من الدول متجاوزة بذلك الحواجز والقيود التقليدية على النشاط التجارى والمالى والصناعى، فمقرها الإدارى فى دولة ، ومقرها التسويقى فى دولة ثانية ، ومقرها الهندسى والفنى فى دولة ثالثة، ومقرها الإنتاجى فى دولة رابعة ، ومقرها الإقليمى فى دولة خامسة، ومقرها الدعائى والإعلانى فى دولة سادسة، ومقرها التنفيذى فى دولة سابعة ، وتنتقل هذه الشركات بحرية كاملة بين كل الدول الصغيرة والكبيرة والغنية والفقيرة ، وتفترض أن العالم بالنسبة لها هو عالم بلا حدود سياسية أو اقتصادية أو جغرافية ، كما أن هذه الشركات تعمل من منطلق أن حدودها هى حدود العالم بل الكون بأسره ، لذلك فهى لا تجد صعوبة فى نقل سلعها وخدماتها وأصولها و إدارتها ومراكز بحوثها إلى أى مكان مستخدمة آخر التقنيات التى تقلص الزمان والمكان[1].

كما أن منظمة التجارة العالمية هى اليوم أهم مؤسسة من مؤسسات العولمة الاقتصادية ويشكل إنشاؤها منعطفا فى التاريخ الاقتصادى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩ – ٧٠.

العالمى ، ورغم أن منظمة التجارة تنسق عملها وسياستها مع بقية المؤسسات الاقتصادية العالمية، إلا أنها هى الجهة الوحيدة التى تتولى إدارة العالم تجاريا ، وذلك من خلال تطبيق مبادئها التى يأتى فى مقدمتها مبدأ الدولة الأولى بالرعاية ، ومبدأ الشفافية التامة تجاه المعلومات والممارسات التجارية ، والذى هو أهم مبدأ من مبادئ منظمة التجارة العالمية ، هذه المبادئ عامة واسترشادية ، أما قرارات المنظمة فهى قرارات نهائية وملزمة لجميع الدول بما فى ذلك الدول العظمى كالولايات المتحدة الأمريكية(1).

٢-العولمة الثقافية :-

إذا كانت العولمة الاقتصادية واضحة كل الوضوح ، فان العولمة الثقافية، وعلى العكس من ذلك ، ليست بنفس وضوح العولمة الاقتصادية، كما أنه إذا كانت العولمة الاقتصادية تبدو للبعض مكتملة على أرض الواقع ، والعالم قد أوشك أن يكون معولما عولمة اقتصادية كاملة، فان العولمة الثقافية ليست بنفس القدر من الاكتمال ، والعالم بعيد كل البعد عن أن يكون معولما عولمة ثقافية كذلك فانه إذا كانت العولمة الاقتصادية هى محصلة لتاريخ طويل من التطورات الاقتصادية والتجارية والمالية والتى تسارعت خلال عقدى السبعينات والثمانينات. فان العولمة الثقافية هى فى المقابل ظاهرة جديدة ، وتمر بمراحلها التأسيسية الأولى ، ولم تبرز كحقيقة حياتية الإخلال عقد التسعينات .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٧١ -٧٢

بالإضافة إلى ذلك فانه إذا كان هناك إجماع حول معنى مفهوم العولمة الاقتصادية ، فان الأمر ليس كذلك بالنسبة لمفهوم العولمة الثقافية ، من ناحية أخرى ، فان العولمة الثقافية لم تتمكن بعد أن تجارى في تجلياتها وتطبيقاتها على أرض الواقع التجليات الحياتية والسلوكية والتطبيقات و المؤسساتية للعولمة الاقتصادية ، والعالم ليس موحداً ثقافيا، كما هو موحد تجاريا وماليا ، كما أنه لا وجود لنظام ثقافى عالمى كما يوجد نظام اقتصادى عالمى(١).

وتتضمن العولمة الثقافية بلوغ البشرية مرحلة الحرية الكاملة لانتقال الأفكار ، والمعلومات ، والبيانات ، والاتجاهات ، والقيم، والأذواق على الصعيد العالمى ، وبأقل قدر من القيود والعراقيل والضوابط، لقد فقدت الدول فى ظل العولمة الثقافية القدرة على التحكم فى تدفق الأفكار والقيم والقناعات فيما بين المجتمعات والأجيال ، وفقدت الدول السيطرة على التداول الحر للأخبار والمعلومات والذى يتم عبر وسائل ووسائط وتقنيات جديدة لم تبرز إلا فى تسعينات القرن الماضى حيث أصبح ملايين من البشر موحدين تليفزيونيا ومن خلال البريد الإلكترونى و شبكات الإنترنت(٢).

على صعيد أخر فان العولمة الثقافية تعنى انتقال تركيز اهتمام

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٤.

(٢) عبد الخالق عبد الله ، مرجع سابق ، ص ٧٦.

ووعى الإنسان من المجال المحلى إلى المجال العالمى ، ومن المحيط الداخلى إلى المحيط الخارجى ، ففى ظل العولمة الثقافية يزداد الوعى بعالمية العالم وبوحدة البشرية ، وستبرز بوضوح الهوية والمواطنة العالمية[١].

٣-العولمة السياسية :-

كانت السياسة دائما وعلى العكس من كل من الاقتصاد والثقافة محصورة ضمن النطاق المحلى ومعزولة عن التطورات والتأثيرات الخارجية، فالسياسة بطبيعتها محلية ، بل إن السياسة هى من أبرز اختصاصات الدولة القومية التى تحرص كل الحرص على عدم التفريط بها واحتكارها ضمن نطاقها الجغرافى الضيق ومجالها الوطنى الأضيق ، ويعد احتكار السياسة ضمن المجال المحلى .وبعيداً عن التدخلات الخارجية مرتبطا أشد الارتباط بمفهوم السيادة ، و بممارسة الدولة لصلاحياتها وسلطاتها على شعبها و أرضها وثرواتها الطبيعية ، فالدولة القومية هى نقيض العولمة ، كما أن السياسة ونتيجة لطبيعتها المحلية ستكون من أكثر الأبعاد الحياتية مقاومة للعولمة التى تتضمن انكماش العالم وإلغاء الحدود الجغرافية ، وربط الاقتصاديات والثقافات والمجتمعات والأفراد بروابط تتخطى الدول وتتجاوز سيطرتها التقليدية على مجالها الوطنى والمحلى[٢].

فالعولمة السياسية هى مشروع مستقبلى ، وهى فى جوهرها مرحلة تطورية لاحقة للعولمة الاقتصادية والثقافية ، فقيام عالم بلا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٧.

(٢) عبد الخالق عبد الله ، مرجع سابق ، ص ص ٨٠ – ٨١.

حدود سياسية لن يكون تلقائيا أو بنفس سرعة أو سهولة قيام عالم بلا حدود اقتصادية أو ثقافية، كما أن الانتقال الحر للأفراد والسلع والخدمات والأفكار والمعلومات عبر المجتمعات والقارات والذى تم خلال تسعينات القرن الماضى ربما أدى إلى انحسار نسبى للسيادة المطلقة، وربما خلق الانطباع بأن الدولة لم تعد ضرورية، وأنها قد فقدت دورها وأهميتها ، بيد أنه لم ولن يسقط كل مظاهر السيادة ولن يضع نهاية للدولة ، كما أنه لن يؤدى إلى قيام الحكومة العالمية الموعودة والتى ستحل محل الدولة القومية ، والتى ستدير العالم وكأنه وحدة اقتصادية وثقافية واجتماعية وسياسية واحدة[1].

ولقد أصبحت نهاية السيادة والدولة ، وبروز الحكومة العالمية ممكنة أكثر من أى وقت آخر فى ظل العولمة بيد، أن كل ذلك لن يحدث قريباً، أو حتى خلال المستقبل القريب ، فالعولمة السياسية لا تعنى القضاء على الدولة ، أو بروز الحكم العالمى، وإنما تتضمن دخول البشرية إلى مرحلة سياسية جديدة يتم خلالها الانتقال الحر للقرارات والتشريعات والسياسات و القناعات والخيارات عبر المجتمعات والقارات ، وبأقل قدر من القيود والضوابط متجاوزة بذلك الدول والحدود الجغرافية ، ولا شك أن هذا الانتقال الحر للسياسيات والقرارات والتشريعات سينقل السياسة من المجال المحلى إلى المجال العالمى، وسيخرج النشاط السياسى عن إطار الدولة وحدودها ، ولن يتحدد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨١.

المجال السياسى الجديد الذى يتشكل فى ظل العولمة بحدود وقيود الدولة، وستصبح السياسة – وللمرة الأولى فى التاريخ – ممكنة على الصعيد العالمى بدلاً من الصعيد المحلى ، كما كانت تدار فى السابق ، بالإضافة إلى ذلك فإن العولمة السياسية تتضمن حدوث زيادة غير مسبوقة فى الروابط السياسية بين دول العالم ، وذلك على نسق زيادة الروابط الاقتصادية بين اقتصاديات العالم ، وزيادة الروابط الثقافية بين الثقافات فى العالم [1].

كذلك ينبغى أن نتذكر أن مناقشة قضية العولمة كثيراً ما تختلط بمناقشة نمط الحياة الأمريكى ، فنظراً لأن الولايات الأمريكية تمثل حالياً أكثر الدول توغلاً فى التطورات التكنولوجية ، وبالتالى أكثرها اتباعاً لمظاهر العولمة ، فكثيراً ما تتحول مناقشة قضية العولمة إلى مناقشة السيطرة الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكى، وكثيراً ما تذهب معارضة العولمة إلى معارضة الهيمنة الأمريكية ، وتتميز العولمة كمرحلة من مراحل التطور ، بخصائص عدة أو مؤشرات جديدة تتمثل فى ظهور أسواق جديدة ، مثل أسواق العملات والتى تعمل على مدار الساعة على مستوى العالم ، وظهور أدوات جديدة للتعامل والاتصال مثل الإنترنت والتليفون المحمول وشبكات الاعلام وظهور لاعبين جدد على الساحة

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٨١ –٨٢ .

مثـل المنظمـات الدوليـة ، منظمـة التجـارة العالميـة ومنظمـات المجتمـع المدني، وأخـيراً ظـهور قواعـد خدمـة للتعـامل مثـل الاتفاقـات الدوليـة لتنظيم مختلف الأنشطة، ومع ذلك فان توسيع الأسواق وإزالـة أو إلغـاء الحـدود والحواجـز الجغرافيـة والسياسـة لم يتحقـق دائمـا بالدرجـة نفسها، فعلى حين أن انتقال المعلومات لا يكاد يواجه أى عقبـات ، فـان حركات الأموال بين مختلف الدول بدأت تتم فى سهولة ويسر ، وبالمثل فان الحواجز أمام انتقال السلع بدأت تتلاشى وتتراجع مع إنشاء منظمـة التجارة العالمية ، وعلى العكس من ذلك تماماً انتقالات البشر التى بدأت تعرف مزيداً من القيود والصعوبات[1].

ثانيا : النموذج المعرفى للعولمة:-

تعد الايبستمولوجيا فرعا من فـروع العلـم الاجتمـاعى حيـث ذاع اسـتخدام مناهجـها فـى العقـود الماضيـة ، وبخاصـة فـى مجـال تحليـل الخطاب بكل أنواعه، ويمكـن تعريفـها بأنـها دراسـة نقديـة موضوعـها المعرفة العلمية من حيث المبادئ التى ترتكز عليـها، والفرضيـات التـى تنطلق منها، والنتائج التى تنتهى إليها ، أما هدف هـذه الدراسـة فـهو البحث فى الأصول المنطقية لهذه الفرضيات والمبادئ والنتائج من جهة،

---

(١) حازم الببلاوى ، النظام الاقتصادى الدولى المعاصر من نهاية الحـرب العالميـة الثانيـة إلى نهاية الحـرب البـاردة ، عـالم المعرفـة ، العـدد ٢٥٧ ، مـايو ، ٢٠٠٠ ، ص ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

وبيان قيمتها من جهة أخرى.

معنى ذلك أنه لو أريد القيام بدراسة معرفية للعولمة فلن يتم الخوض فى تشريح الظاهرة ذاتها ، ولا فى تحليل مختلف تجلياتها ، ولا فى تعقب آثارها ، ولكن سيتم التركيز على المعرفة العلمية الخاصة بالعولمة من ناحية التعريفات والمفاهيم و الأطروحات والمجالات .

وابتداء يمكن القول أنه لا بد من تصنيف المنظرين الذين يتناولون العولمة بالدراسة والتحليل ، فالعولمة بالنسبة للبعض تمثل تقدماً طبيعياً تجاه " عالم بلا حدود " وهى بالنسبة للبعض الآخر مفهوم يتم التركيز عليه تركيزاً مبالغاً فيه ، كما تتم المبالغة أيضا فى تحديد آثاره فى التطبيق، وإذا أضفنا إلى ذلك المخاوف التى تثيرها العولمة باعتبارها أحد أسباب تخفيض العمالة وتقليص برامج الرعاية الاجتماعية ، لأدركنا أنه لا بد من التمييز المبدئى بين الخطابات المتصارعة حول العولمة[1].

ويمكن القول بشكل عام إن الصراع يدور أساساً بين أنصار العولمة الذين يصفون العالم بأنه سائر حتماً في طريقها، وبين هؤلاء الذين يرفضون هذه الحتمية ، ويقرون أن طابع النظام الدولى الذى يتكون من

---

(١) السيد يسين : نحو خريطة معرفية للعولمة (١) ، جريدة الأهرام ، ١٩٩٨/١١/١٩، ص ٣٤.

الدول ، والتى هى الوحدات الأساسية له سيبقى ولن يتغير كثيراً ، ويرى أنصار الاتجاه الأول أنه ستظهر " مراكز سلطة " بديلة ، وخصوصا فى عالم الشركات ، وعلى الأخص تلك التى يطلق عليها " دولية النشاط" والتى ستتنافس غالباً بنجاح مع الدول فى تحديد اتجاهات الاقتصاد السياسى الكونى ، ويرى أنصار الاتجاه الثانى أن الدول ستظل هى الأطراف الرئيسية الفاعلة فى الأنظمة السياسية والاقتصادية ويعتقدون أن موضوعات الأمن القومى مازالت لها الأهمية العليا ، ويطلق على أصحاب الفريق الأول المتعولون Globalizers وعلى الفريق الثانى الدوليتون (من دولة) Internationalists ، وتحتاج ظاهرة العولمة إلى صياغة نموذج متعدد الأبعاد حتى نصل إلى جوهرها الحقيقى ، وهذا النموذج من وجهة النظر المعرفية لابد له أن يربط ربطاً عضويا وثيقا بين تعريفات العولمة المختلفة والمسلمات التى تقوم عليها و الأطروحات التى تتضمنها ومجالات السياسات التى تصاغ بناء على هذه المسلمات وصور المقاومة لها ، وذلك من خلال منظور معرفى متكامل .

ويتكون النموذج المعرفى المقترح من ثلاثة أبعاد ، فهو فى بعد أول دراسة دقيقة لتعريفات العولمة التى يشيع استخدامها لدى الباحثين

العلميين ولدى الساسة فى نفس الوقت ، وهى تنقسم إلى أربع فئات تتمثل فيما يلى[١] :-

١- العولمة باعتبارها مرحلة تاريخية.

٢- العولمة باعتبارها تجليات لظواهر اقتصادية.

٣- العولمة باعتبارها انتصارا للقيم الأمريكية.

٤- العولمة باعتبارها ثورة اجتماعية وتكنولوجية.

وينزع التعريف الأول للعولمة باعتبارها حقبة محددة من التاريخ أكثر منها ظاهرة اجتماعية أو إطارا نظريا ، وهى فى نظر البعض تبدأ بشكل عام منذ بداية ما عرف بسياسة الوفاق التى سادت فى الستينات بين القطبين المتصارعين فى النظام الدولى آنذاك إلى أن انتهى الصراع والذى يرمز له انهيار حائط برلين الشهير ونهاية الحرب الباردة ، وعلى ذلك فالعولمة فى نظر أصحاب هذا الرأى هى المرحلة التى تعقب الحرب الباردة من الناحية التاريخية ، ومصطلح العولمة - مثله فى ذلك مصطلح الحرب الباردة الذى سبقه ، يؤدى دوره كحد زمنى لوصف سياق تحدث فيه الأحداث كأن يقال مثلا نحن نعيش فى عصر العولمة لتبرير أو فهم سياسات معينة اقتصادية أو سياسية أو ثقافية[٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤.

ويركز التعريف الثانى للعولمة ، على العكس من التعريف السابق ، على الدولة وظيفيا باعتبارها سلسلة مترابطة من الظواهر الاقتصادية وتتضمن هذه الظواهر تحرير الأسواق وخصخصة الأصول وانسحاب الدولة من أداء بعض وظائفها وخصوصاً فى مجال الرعاية الاجتماعية ، ونشر التكنولوجيا والتوزيع العابر للقارات للإنتاج المصنع من خلال الاستثمار الأجنبى المباشر والتكامل بين الأسواق الرأسمالية[1].

والعولمة فى تعريفها الضيق تشير كظاهرة إلى الانتشار الواسع المدى فى كل أنحاء العالم للمبيعات والإنتاج وعمليات التصنيع ومما يشكل إعادة صياغة للتقسيم الدولى للعمل ، وهذا هو التعريف الذى يمكن أن يطلق عليه تعريف اقتصادى للعولمة ولكن فى الوقت الذى يركز فيه على التمويل والإنتاج والتكنولوجيا والتنظيم والسلطة كعوامل للتغير ، فانه يشير فى نفس الوقت إلى أن عددا من هذه الأنشطة ليس جديداً تماماً بالمعنى التاريخى للكلمة[2].

ولعل خير ما يعبر عن التعريف الثالث للعولمة كتاب المفكر الأمريكى اليابانى الأصل فوكوياما " نهاية التاريخ " والذى اعتبر فيه سقوط الاتحاد السوفيتى وانهيار الكتلة الاشتراكية انتصاراً حاسما

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤.

للرأسمالية على الشيوعية ، وهو يرى أن نهاية الحرب الباردة تمثل المحصلة النهائية للمعركة الأيديولوجية التى بدأت بعد الحرب العالمية الثانية بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية ، وهى الحقبة التى تم فيها التركيز على سمو القدرات التكنولوجية الأمريكية وعلى تفوق المؤسسات والنظم الأمريكية[١].

ووفق هذا المنظور ، فالعولمة بالمعنى المعيارى للكلمة ظاهرة جيدة وتمثل تقدماً فى التاريخ ، لأنها ترمز فى الواقع إلى انتصار ظواهر التحديث وسيادة الديموقراطية كنظام سياسى ، والمنادون بهذا الرأى يشبهون إلى حد كبير أنصار نظرية التحديث فى الفكر السياسى الأمريكى ، والتى وفقا لها فإن التجانس فى القيم ينبغى أن يتم من خلال التمسك بمبادئ الرأسمالية والديموقراطية[٢] .

ويعارض التعريف الرابع الذى ينظر للعولمة باعتبارها ثورة تكنولوجية واجتماعية ، يعارض بوضوح التعريف الثانى الذى لا يرى فى العولمة سوى مجموعة متشابكة من الأنشطة الاقتصادية ، وعلى العكس من ذلك يرى هذا التعريف أن العولمة هى شكل جديد من أشكال النشاط تم فيها الانتقال بشكل حاسم من الرأسمالية الصناعية إلى المفهوم الما بعد الصناعى للعلاقات الصناعية ، وهذا التحول تقوده نخبة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤.

تكنولوجية صناعية ، تسعى إلى تدعيم السوق الكونية الواحدة بتطبيق سياسات مالية وائتمانية وتكنولوجية واقتصادية شتى ، وعلى عكس التعريف الأول الذى يركز على عنصر الزمن وينظر للعولمة باعتبارها حقبة تاريخية ، فان هذا التعريف يرى أن الزمن لا معنى له ، وأن الفضاء نتيجة للثورة التكنولوجية والاتصالية قد تم بالفعل ضغطة ،مما أدى إلى ظهور الاقتصاد الذى يقوم على تلاحم الشبكات المختلفة[1].

أما البعد الثانى فى النموذج المعرفى المقترح ، فهو يتعلق بالدراسة النقدية للأطروحات الأساسية التى صيغت بناء على التعريفات التى قدمت للعولمة ، وبدون تحديد هذه الأطروحات ومناقشتها لا يمكن فهم ميدان البحث البازغ الخاص بدراسات العولمة فى مجال بحوث العلاقات الدولية وتتمثل هذه الأطروحات فيما يلى[2] :-

١- أطروحة إعادة التوزيع :

ويتبناها أنصار الاشتراكية الذين يرون أن التنمية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لا تتحدد فقط بالهياكل والبنى السياسية والاجتماعية ، ولكن بالإضافة إلى ذلك هناك دور حاسم للعامل الإنسانى

---

(١) السيد يسين ، نظرة نقدية لتعريفات العولمة (٢) ، جريدة الأهرام، ١٩٩٨/١١/٢٦ ص ٣٤.

(٢) السيد يسين ، أطروحات العولمة(٣)، جريدة الأهرام، ١٩٩٨/١٢/٣ ، ص ٣٤.

يتمثل فى الفاعلين الذين يقودون أو يقاومون التغيير ، ويمكن القول بأن الاشتراكيين الديمقراطيين والماركسيين مركزون الآن جهودهم على أهمية عدالة التوزيع فى سياق العولمة، والعولمة بالنسبة لهم ليست مجرد مجموعة من الظواهر الاقتصادية ، ولكنها أيضاً بل فى المقام الأول، مجموعة ظواهر لسياسية أيديولوجية تقدم كمبرر لاتجاهات بازغة فى مجال الحكم المعاصر، وإذا كانت العولمة قد ركزت على بعد حرية السوق فيها ، فانه لم يتم تحليلها بالقدر الكافى من زاوية السياق الدولى الذى تعمل فيه ، ولا من ناحية قوى المقاومة سواء داخل البلاد المتقدمة ذاتها أو البلاد النامية .

والنقطة الجوهرية التى يثيرها الاشتراكيون الديمقراطيون هى أن الدولة الرأسمالية فى استجابتها للعولمة ، قد قضت بذلك على الصيغة الهشة للحل الوسط الليبرالى الذى صيغ لتحديد العلاقة بين الدولة والمجتمع والذى سمح للرأسمالية بأن تتوسع داخليا وخارجيا على أساس تفادى الصراع الطبقى بين الرأسماليين والعمال المنتجين بشكل عام من خلال برامج الرعاية الاجتماعية المتعددة ، بعبارة أخرى أصبحت ما يمكن أن نطلق عليها رأسمالية الرعاية الاجتماعية ، أو دولة الرفاهية الاجتماعية ضحية العولمة ومن المعروف أن هناك أزمة شديدة

فى مجال تمويل هذه البرامج ، وجدلاً سياسيا محتدما حول ضرورة تقليصها ، وفى نظر بعض المتطرفين إلغائها نهائياً[١].

٢-أطروحة الرأسمالية المقارنة :-

تقوم هذه الأطروحة على فكرة بسيطة ، وهى أن الرأسمالية ليست واحدة فى كل مكان ، وأن الأنظمة الرأسمالية المتعددة ليس من الضرورى أن تقترب من بعضها البعض لدرجة تختلط فيها سماتها ، وإذا كانت الرأسمالية أو الديمقراطية يمكن تعريف كل منها بطريقة مجردة ، إلا أن هذا التجريد لا ينفى الاختلافات الواضحة بين كل نظام رأسمالى وآخر ، سواء من الناحية الاقتصادية ، أو من الناحية السياسية، ويكفى أن نقارن النظام الرأسمالى الأمريكى بالنظام الرأسمالى اليابانى ليبدو ذلك واضحاً.

وفى ضوء هذه الملاحظة النظرية المنهجية المهمة يمكن الوصول إلى نتيجة غاية فى الأهمية فحواها أنه ، فى التطبيق ستختلف صور الاستجابة للعولمة بحسب النماذج التى قد تكون متباينة للرأسمالية وفى ظل هذا المنظور فان دور الدولة سيظل قائما وسيقوم بالدور الرئيسى فى التفاعل مع الدول الأخرى وفى مواجهة المؤسسات التى تبحث عن الربح ، وتلك التى لا تبحث عن الربح مثل الجمعيات الأهلية وذلك داخل كل مجتمع[٢].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤.

٣-أطروحة الإقليمية :-

يعتبر مفهوم الإقليمية مفهوما متبايناً ، فبعض الباحثين فى العلاقات الدولية يعتبر الإقليمية نشاطاً بين الدول يتدرج من مجرد التنسيق بين السياسات إلى التكامل فى سوق مشتركة مثل حالة الاتحاد الأوروبى ، وهو فى نظر البعض الآخر تفاعل بين المحلى والإقليمى فى المجال الاقتصادى والسياسى ، وتوجد الآن نظرة شائعة للإقليمية على أنها وسيلة تتبعها نماذج النظم الرأسمالية المختلفة للمناورة مع مشكلات التكامل الكونى الذى تدفع إليه العولمة ، ويكشف عن صدق هذه الملاحظة تعدد صور الإقليمية باعتبارها إحدى وسائل الحفاظ على الاختلافات بين النظم ، وفى نفس الوقت بحسبانها محاولة للوصول إلى حل وسط مع الاقتصاد الكونى ، وهناك رأى آخر يرى أن الإقليمية فى الواقع لا تمثل حلاً وسطاً ، بل هى فعل من أفعال المقاومة ضد العولمة ، ومن ناحية أخرى يبرز رأى مضاد يذهب إلى أن الإقليمية عمل مكمل لذيوع العولمة ، وكأنها خطوة من خطوات الوصول إلى العولمة الكاملة.

وهناك خلاصة يقدمها البعض تتمثل فى أن العولمة ، وإن كانت فى نفس الوقت مجموعة من العمليات و أيديولوجية للإدارة الاقتصادية، فان الإقليمية تعد مظهراً من مظاهر العولمة تتقاطع معها ، ولا يمكن فهمها بدون فهم ظاهرة العولمة ، أما المحلية فهى تمثل تياراً

مضاداً للعولمة يمكن أن يؤدى إلى فهم مختلف للقضاء السياسى والحدود الإقليمية ، فالعولمة تقلل من مكونات المشروع التقليدية وهى الأرض والعمل ورأس المال ، وذلك فى ضوء الصناعات التى تقوم على المعرفة ، بحيث أصبحت هى أهم مكون من مكونات المشروع الصناعى المعاصر[1].

٤-أطروحة الثورة الاتصالية ورمزها البارز هو شبكة الإنترنت :

فعادة ما يشار إلى شبكة الإنترنت باعتبارها رمزاً للثورة التكنولوجية والاتصالية ، والتى هى الآن من أبرز علامات العولمة الاتصالية، ويكفى أن نشير إلى ما يسمى بالتجارة الإلكترونية

غير أن النظر إلى العولمة باعتبارها ثورة تكنولوجية أساساً قد يؤدى إلى إغفال المشكلات التى يلاقيها تيار الليبرالية الجديدة الآن وخصوصاً فيما يتعلق بموضوع عدالة التوزيع ، وهكذا فان هذه الأطروحة قد تعود إلى نوع من أنواع الحتمية التكنولوجية فى عصر سقطت فيه الحتمية فى العلم والطبيعة والمجتمع.

ويتمثل البعد الثالث للنموذج المعرفى المقترح فى مجالات السياسة المختلفة ، والتى تظهر فيها قوى متصارعة متعددة يقوم بعضها على أساس الاعتراض على بعض سياسات العولمة ، وفى بعض الأحيان رسم خطط لمقاومتها ، ويلمس هذا البعد مباشرة الإشكالية الكبرى التى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤.

تواجه مختلف الدول فى الوقت الراهن ، ولا فرق فــى ذلـك بـين الـدول الغنية والدول النامية. ويعنى بذلك على وجه التحديد العلاقات المتغيرة بين الدول والأسواق والمجتمع المدنى.

ولا شك أن الدولة القومية صيغة أساسـية استقرت منـذ عشـرات السنين، باعتبارها الوحدة الرئيسية التى تكــون النظـام الـدولى ، وهـذه الدولة قامت أساساً على تقديس حدودها حتى أن حروبــاً متعـددة قـامت حين اخترقت فيه هذه الحدود من قبل دول أخرى، ومن ثم يمكن القول بأن النظـام الـدولى حكمتـه طـوال القـرن العشـرين اعتبـارات الجغرافيـا السياسية.

غير أن المتغـيرات العاليـة والتـى عمقـت مـن آثـار العولـة بكـل تجلياتها السياسية والاقتصادية والثقافية قد أتـت اعتبـارات الجغرافيـا السياسية لتصعد بدلا منها اعتبـارات الجغرافيـا الاقتصاديـة بمعنـى أن التفاعلات الاقتصادية بين الدول – وبغض النظـر عـن مشـكلة الحـدود – أصبحت لها اليد العليا فى رسم السياسات الخارجية لهــذه الـدول وفـى تحديد مصالحها القومية، وفى صياغة برامج الأمـن القومـى ، ومـن هنـا شـهدنا صعـوداً بـارزاً للتكتـلات الإقليميـة مثـل " الاتحـاد الأوربـــى " والنافتا" و "والآسيان " قامت أساسا لتحقيـق المصـالح الاقتصاديـة للـدول المنضمة إليها قبل تحقيق أى أهداف سياسية أو ثقافية .

ومـن ناحيــة أخــرى تصـاعدت معـدلات "العلاقـات متعـددة الأطراف" التى لا تلقى بالا إلى مسـألة الحـدود الجغرافيـة ، وإنمـا هـى تتجاوزها لتركز على مضمون العلاقات غير أنه إلى جـانب ذلـك لا ننكـر أن الدولة القومية نتيجة للإقليمية المتصـاعدة ولتأثـير موجـات العولـة المتدفقة ووجهت بمشكلة تقلص مجال سيادتها ، مما يخلـق فـى الواقـع توترات شديدة لم تحل حتى الآن[1].

ثالثا : النشأة التاريخية للعولمة :-

إذا كان تعريف العولمة صعباً ، فـإن تحديـد متـى بـرزت العولـة كحقيقة حياتية أكثر صعوبة ، وإن كان هناك إجماع بأن العولمة كمصطلح قد برز خلال التسعينات وأصبح بعد ذلك واسع التداول ، فانه لا يوجـد إجماع حول تاريخ ولادة العولمة كواقع اقتصادى ، وربما ثقافى وسياسـى معاش وليس من السهل تحديد لحظة ولادة العولمة ، كمـا أنـه ليـس مـن السهل الإجابة علـى السـؤال حـول متـى بـرزت العولـة ؟ وربمـا يعـود الغموض حول الإجابة على ذلك إلى تلك المعانى والمضامين المختلفـة التـى أعطيت لمصطلح العولمة " فإذا كانت العولـة تعنـى حركـة لدمـج العـالم ، فحركة دمج العالم قديمة كل القدم ،وإذا كـانت العولـة تشـير إلى زيـادة ربط العالم بروابـط اقتصاديـة وتجاريـة واسـتثمارية ، فـان ربـط العـالم

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٤.

بروابط اقتصادية بدأ فعليا، وكما يقول"ايمانويل والرشتاين " مـع بـروز نمط الإنتاج الرأسمالى كنظام اقتصادى عالمى قبل أكثر من ٣٠٠ سـنة، أما إذا كـانت العولـة هـى تجسيد لتلـك التطـورات الحياتيـة والفكريـة والتكنولوجيـة المتلاحقـة ، والتـى تـؤدى إلى انكمـاش العـالم مـن حيـث الزمان والمكان ، وبالتالى زيادة وعى الأفراد بهذا الانكماش ، فان العولمة هى حقيقة حياتية جديدة لم تبرز إلا خـلال تسـعينات القـرن الماضى ، أخيراً ، إذا كانت العولمة تعنى بروز عالم بلا حدود اقتصادية أو ثقافيـة وسياسـية ، وبالتـالى بـروز نظـام اقتصـادى عـالمى موحـد وثقافـة عالميـة موحدة ومجتمـع عـالمى واحـد، فـان العولـة غـير موجـودة حتـى الآن ، والعالم القائم حاليا هو امتداد للعالم القديم ومازال متمسـكا كـل التمسـك بالحدود بما فـى ذلـك الحـدود الجغرافيـة ، وحتمـا الحـدود السياسـية والتى تتجسد فى شكل الدول التى تحاول أن تؤكد أنها مـازالت الوحـدة الارتكازية فى العالم المعاصر[١].

و إذا حاولنا أن نتتبع النشأة التاريخية للعولمة ، يمكن أن نعتمد على النموذج الذى صاغه " رولانـد روبرتسـون " فـى دراسـته " تخطيط الوضع الكونى: العولمة باعتبارها المفهوم الرئيسى " والذى حاول فيه أن يرصد المراحل المتتابعة لتطور العولـة وامتدادهـا عـبر المكـان والزمـان ،

---

(١) عبد الخالق عبد الله ، مرجع سابق ، ص ص ٥٥ – ٥٦.

ونقطة البداية عنده هى ظهور " الدولة القومية الموحدة " على أساس أن هذه النشأة تسجل نقطة تاريخية فاصلة فى تاريخ المجتمعات المعاصرة، ذلك أن ظهور المجتمع القومى منذ حوالى منتصف القرن الثامن عشر يمثل بنية تاريخية فريدة ، وأن الدولة القومية المتجانسة والتجانس الثقافى والمواطنين الذين يخضعون لإدارتها، تمثل تشكيلا لنمط محدد من الحياة ، ويمكن القول فى الحقيقة أن شيوع المجتمعات القومية فى نهاية القرن العشرين هو فعل من أفعال العولمة ، بمعنى أن إذاعة ونشر الفكرة الخاصة بالمجتمع القومى كصورة من صور الاجتماع المؤسسة ، كان جوهرياً بالنسبة لتعجيل العولمة التى ظهرت منذ قرن من الزمان ، وهناك مكونان آخران للعولمة - بالإضافة إلى المجتمعات القومية هما مفاهيم " الأفراد" و "الإنسانية " وبناء على هذه الاعتبارات صاغ روبرتسون نموذجة من خلال تعقب البعد الزمنى التاريخى الذى أوصلنا إلى الوضع الراهن والذى يتسم بدرجة عالية من الكثافة الكونية والتعقيد وينقسم النموذج إلى خمس مراحل كما يلى[1]:-

١-المرحلة الجنينية :-

استمرت فى أوروبا منذ بواكير القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وشهدت هذه المرحلة نمو المجتمعات

(١) السيد يسين ، فى مفهوم العولمة ، مرجع سابق ، ص ص ٩ - ١١ .

القومية ، واضعافا للقيود التى كانت سائدة فى القرون الوسطى ، كما تعمقت الأفكار الخاصة بالفرد والإنسانية ، وسادت نظرية عن العالم وبدأت الجغرافيا الحديثة.

٢-مرحلة النشوء :

استمرت فى أوروبا أساسا من منتصف القرن الثامن عشر حتى عام ١٨٧٠ وما بعده ، فقد حدث تحول حاد فى فكر الدولة المتجانسة الموحدة ، وأخذت تتبلور المفاهيم الخاصة بالعلاقات الدولية ، وبالأفراد باعتبارهم مواطنين لهم أوضاع مقننة فى الدولة ، ونشأ مفهوم أكثر تحديدا للإنسانية، وزادت إلى حد كبير الاتفاقات الدولية ، ونشأت المؤسسات المتعلقة الخاصة بتنظيم العلاقات والاتصالات بين الدول، وبدأت مشكلة قبول المجتمعات غير الأوروبية فى المجتمع الدولى ، وبدأ الاهتمام بموضوع القومية والعالمية.

٣-مرحلة الانطلاق :

واستمرت من عام ١٨٧٠ وما بعده حتى العشرينات من القرن العشرين وظهرت مفاهيم كونية مثل " خط التطور الصحيح " ، والمجتمع القومى "المقبول " وظهرت مفاهيم تتعلق بالهويات القومية والفردية ، وتم إدماج عدد من المجتمعات غير الأوربية فى "المجتمع الدولى" وبدأت عملية الصياغة الدولية للأفكار الخاصة بالإنسانية

ومحاولة تطبيقها ، وحدث تطور هائل فى عدد وسرعة الأشكال الكونية للاتصال ، وتمت المنافسات الكونية مثل الألعاب الأولمبية وجوائز نوبل، ووقعت فى هذه المرحلة الحرب العالمية الأولى ، ونشأت عصبة الأمم .

٤-الصراع من أجل الهيمنة :

استمرت هذه المرحلة من العشرينات حتى منتصف الستينات ، وبدأت الخلافات والحروب الفكرية حول المصطلحات الناشئة الخاصة بعملية العولمة، والتى بدأت فى مرحلة الانطلاق ونشأت صراعات كونية حول صور الحياة وأشكالها المختلفة ، وقد تم التركيز على الموضوعات الإنسانية بحكم حوادث الهولوكست و إلقاء القنبلة الذرية على اليابان وبروز دور الأمم المتحدة.

٥-مرحلة عدم اليقين :-

بدأت منذ الستينات وأدت إلى اتجاهات وأزمات فى التسعينات وقد تم إدماج العالم الثالث فى المجتمع العالمى، وتصاعد الوعى الكونى فى الستينات ، وحدث هبوط على القمر وتعمقت قيم ما بعد المادية ، وشهدت المرحلة نهاية الحرب الباردة ، وشيوع الأسلحة الذرية ، وزادت إلى حد كبير المؤسسات الكونية والحركات العالمية ، وتواجه المجتمعات الإنسانية اليوم مشكلة تعدد الثقافات وتعدد السلالات داخل المجتمع نفسه ، وأصبحت المفاهيم الخاصة بالأفراد أكثر تعقيدا من

خلال الاعتبارات الخاصة بالجنس والسلالة ، وظهرت الحقوق المدنية ، وأصبح النظام الدولى أكثر سيولة ، وانتهى النظام الثنائى القومية ، وزاد الاهتمام فى هذه المرحلة بالمجتمع المدنى العالمى ، والمواطنة ، وتم تدعيم نظام الإعلام الكونى .

ويرى أحد الباحثين أن ظاهرة العولمة عمرها خمسة قرون على الأقل، وبدايتها ونموها مرتبطان ارتباطا وثيقا بتقدم تكنولوجية الاتصال والتجارة ، منذ اختراع البوصلة وحتى الأقمار الصناعية ، وأنه من المهم إدراك هذه الحقيقة و التأكيد عليها ، ولكن من المهم أيضا الاعتراف بأن أشياء جديدة ومهمة قد طرأت على ظاهرة العولمة فى الثلاثين عاما الأخيرة منها ما يلى[١] :-

١- انهيار أسوار مالية كانت تحتمى بها بعض الأمم والمجتمعات من تيار العولمة ، ومن ثم اكتسح تيار العولمة مناطق مهمة من العالم كانت معزولة بدرجة أو أخرى عنها ، وأهم هذه الأمم هى بالطبع أمم أوروبا الشرقية والصين التى انتهت عزلتها الاختيارية أو أجبرت بطريقة أو بأخرى على التخلى عن هذه العزلة[٢].

---

(١) جلال أمين ، العولمة والدولة ،فى: العرب والعولمة : بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ص ص ١٥٣.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٤.

٢- الزيادة الكبيرة فى درجة تنوع السلع والخدمات التى يجرى تبادلها بين الأمم وكذلك تنوع مجالات الاستثمار التى تتجه إليها رؤوس الأموال من بلد إلى آخر ، لم تعد صادرات دولة "اقل نموا" تنحصر في مادة أولية واحدة ، ولا وارداتها فى عدد محدود من السلع ، كما كان الحال فى ظل الاستعمار التقليدى ،ولا الاستثمار الأجنبى يكاد ينحصر فى إنتاج المادة الأولية وتطوير البنية الأساسية اللازمة لهذا الإنتاج ، بل تعددت هذه الصادرات وتنوعت ، وكذلك الواردات ، كما تعددت وتنوعت المجالات التى ينتقل إليها رأس المال الأجنبى بحثا عن فرص الربح [١].

٣- ارتفعت نسبة السكان – فى داخل كل مجتمع أو أمة – التى تتفاعل مع العالم الخارجى وتتأثر به فلقد مرت مصر مثلا بفترات خلال القرنين الماضين كانت نسبة التجارة الخارجية إلى دخلها القومى أكبر مما هى عليه الآن، ومعدل تدفق رؤوس الأموال الأجنبية إليها من إجمالى الاستثمار ، أعلى أيضا مما هو عليه الآن ، ومع ذلك كانت نسبة السكان ، المتأثرة بهذه العلاقات الدولية ضئيلة جدا ، حيث ظلت الغالبية العظمى من السكان ، حتى من كان منهم يساهم فى إنتاج السلعة التصديرية الأولى ، وهى القطن ، تكاد تكون منقطعة الصلة عن العالم الخارجى فى نمط حياتها وتفكيرها.

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٤.

ولم يعد الأمر كذلك على الإطلاق ، فلقد أصبح نحو سدس السكان على الأقل يفيدون مباشرة أو بطريق غير مباشر من السياحة وحدها ، ونسبة مماثلة تتلقى تحويلات من أفراد أسرها العاملين خارج مصر ، وأما الواردات فقد دخلت كل بيت ، حتى بيوت أفقر الفلاحين[١].

٤- ظل تبادل السلع ورؤوس الأموال هو العنصر المسيطر على العلاقات بين الدول حتى وقت قريب للغاية ، ثم بدأ تبادل المعلومات والأفكار يصبح هو العنصر الغالب على هذه العلاقات ، أو على الأقل هو العنصر الذى ينمو بأكبر سرعة. كانت الثلاثين عاما الأخيرة هى الحقبة التاريخية التى أصبح فيها استيراد الأفكار والقيم لا يتوقف على حجم التجارة أو حجم تدفق الأشخاص أو رؤوس الأموال ، بل أصبح استيرادا مباشرا عن طريق الاتصال بمصدر هذه الأفكار والقيم حتى وهى قابعة فى مكانها[٢].

٥- أصبحت الوسيلة الأكثر فعالية فى تحقيق هذا الانتقال للسلع ورأس المال والمعلومات والأفكار ، بل المهيمن على هذا الانتقال ، هى الشركات المتعددة الجنسية ، فلقد ظلت العلاقات بين الدول

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٥٤ - ١٥٥.

والأمم لعدة قرون تتم في الأساس عن طريق شركات قد تسمى بالدولية ، ولكن نشاطها يقتصر على عدد محدود من الدول ، أو حتى على العلاقة بين الدولة الأم والدولة المستعمرة ، ولا تتخذ العالم كله ، كما تتخذه الشركات متعددة الجنسية اليوم مسرحا لعلمياتها ، سواء فيما يتعلق بالحصول على المستخدمات أو توزيع عمليات الإنتاج أو التسويق[1].

٦- طرأ خلال هذه العقود الأخيرة تغير ملحوظ على مركز الدولة من هذا النمر في العلاقات بين المجتمعات ، فلقد اقترنت بداية العولمة منذ خمسة قرون ببزوغ ظاهرة الدولة القومية ، حيث تطلب التقدم التكنولوجي وزيادة الإنتاجية في ذلك الوقت توسيع نطاق السوق ليشمل الأمة بأسرها، بعد أن كان محددا بالمقاطعة ، فحلت الدولة محل الإقطاعية ، كما تطلب التقدم التكنولوجي أيضا وزيادة الإنتاجية تطلبا غزو الأسواق الخارجية ، الأمر الذى تطلب بدوره أن يكون للدولة جيش قوى يمكنها من منافسة الدول الأخرى في الحصول على هذه الأسواق الخارجية الحديثة ، أى المستعمرات، وحمايتها ، وكان نمو حجم السوق في مرحلة من المراحل ، ضروريا لنشأة الدولة ونمو قوتها ، ولكن النمو في حجم السوق هو

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٥.

أيضا الذى حتم بدوره فى العقود الأخيرة ، بداية التضاؤل فى قوة الدولة ، وكما حلت الدولة محل الإقطاعية تدريجيا منذ نحو خمسة قرون ، تحل اليوم الشركات متعددة الجنسية تدريجيا محل الدولة، والسبب فى الحالتين واحد هو التقدم التكنولوجى وزيادة الإنتاجية والحاجة إلى أسواق أوسع[1].

رابعا: القديم والحديث فى العولمة: حالة مصر:-

كانت مصر أول دولة عربية تتصل بالحضارة الغربية الحديثة نتيجة للحملة الفرنسية عليها منذ مائتى عام ،ولكنها شهدت ، خلال هذين القرنين، تعاقب فترات من الانفتاح النسبى على الغرب وفترات من العزلة النسبية والحماية . وبعد ذلك العمر القصير للحملة الفرنسية، مرت مصر بفترة استغرقت ما يقرب من نصف قرن من المساهمة النشطة فى التجارة الدولية ، واستعارة وسائل التكنولوجيا الحديثة والمهارات من الخارج ، ولكن فى إطار استراتيجيات التصنيع ذات التوجه الداخلى والتى اعتمدت فى الأساس على المواد الأولية المنتجة محليا ، واعتمادا كليا تقريبا على السوق المحلية ، واعتمادا تاما على المدخرات الوطنية[2].

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٥٥ - ١٥٧.

(٢) جلال أمين ، العولمة والتنمية العربية من حملة نابليون إلى جولة الأورغواى ١٧٩٨- ١٩٩٨)، مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ١٩٩٩ ، ص .

تلت ذلك فترة استغرقت نحو ستين عاما (١٨٥٤- ١٩١٤)تدخل فيها العقود الثلاثة الأولى من الاحتلال البريطانى لمصر، فتحت فيها أبواب الاقتصاد والمجتمع على مصاريعها للمؤثرات الخارجية ، فزادت بشدة مساهمة مصر فى التجارة الدولية ، وتدفقت رؤوس الأموال الأجنبية على مصر ، وزاد بسرعة عدد الأجانب المقيمين فيها ، وشهدت الزراعة المصرية تحولا جذريا بسبب تطبيق أساليب الرى الحديثة ، كما شهدت أنماط الاستهلاك التى ظلت على حالها تقريبا دون تغير يذكر طوال النصف الأول من القرن انقلابا خطيرا فى نصفه الثانى[1].

ثم اضطرت مصر خلال فترة ما بين الحربين (١٩١٤ - ١٩٤٥) كما اضطر كثير من دول العالم الأخرى ، إلى تبنى سياسات اقتصادية أكثر توجها إلى الداخل ، ولكن مصر عادت إلى الاندماج فى الاقتصاد العالمى والتفاعل معه خلال العقد التالى لانتهاء الحرب العالمية الثانية، ثم حدث فى العقدين التاليين (١٩٥٦ -١٩٧٤)أن عادت مصر إلى اتباع سياسة التوجه إلى الداخل، فعلى الرغم من أنها استمرت فى الاعتماد بشدة على التجارة الخارجية ، بل وخلال هذين العقدين اعتمدت أيضا بشدة على المعونات الخارجية ، وعلى استيراد التكنولوجيا والخبرة الأجنبية ، فان سياسة التصنيع خلال هذين العقدين اعتمدت اعتمادا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٩.

يكاد يكون تاما علـى السـوق المحليـة ، و أبـدت أيضـا حـذرا بالغـا مـن الاستثمارات الأجنبية الخاصة[١].

ثم بـدأت مصـر مـن جديـد ، ابتـداء مـن منتصـف السـبعينات ، بمرحلة من الاندماج المتزايد فـي الاقتصـاد العـالمى : مزيـدا مـن تحريـر التجارة الخارجية ، وتشجيعا متزايدا للاستثمارات الأجنبية الخاصة، وانفتاحا أكثر فأكثر على التكنولوجيا الحديثة ، بما فى ذلك وسائل نقل المعلومات والأفكار وأنمـاط الاسـتهلاك ، فتبنـت مصـر سياسـة الانفتـاح الاقتصادى فى عام ١٩٧٤ ، وعلى الرغم من أن التصريحات الرسمية قـد تفاوتت ، منذ ذلك الوقت ، فى قوة التعبير عن الالتزام بهذه السياسة ، فان الأبواب التى فتحت فى عام ١٩٧٤ لم يجر إغلاقها قـط بعـد ذلـك ، واستمرت مصر تساهم بدرجة متزايدة فى تيـــار العولمة[٢].

واتسمت هذه الحقبة الأخيرة من حقب انفتاح مصر على الاقتصاد العالمى ، وهـذه الحقبـة التـى اقـترنت بشـيوع اسـتخدام تعبـير العولمـة ببعض السمات التى تميزها عن الحقب السابقة لاندماج الاقتصاد المصرى بالعالم الخارجى تتمثل فيما يلى[٣]:-

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٨٩ – ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠.

(٣) المرجع السابق ، ص ص ٩٠ – ٩٢.

أولا : يلاحظ زيادة درجة التنوع فى السلع والخدمات التى تكون الآن قائمة الصادرات وقائمة الواردات المصرية ، وكذلك تنوع شركاء مصر فى التجارة الخارجية ، إن نسبة التجارة إلى الدخل القومى المصرى هى بلا شك أقل الآن مما كانت فى فترات معينة من القرن الماضى والعقود الأولى من القرن الحالى ، ولكن تجارة مصر الخارجية فى ذلك الوقت بعكسها الآن ، كانت تسيطر عليها سلعة واحدة : هى القطن الخام، وشريك واحد هو بريطانيا .

ثانيا : هناك الآن أيضا تنوع أكبر بكثير فى ميادين جذب الاستثمارات الأجنبية الخاصة ، فمنذ مائة عام ،كانت الاستثمارات الأجنبية الخاصة فى مصر تكاد تقتصر على مشروعات البنية الأساسية الاقتصادية ، وكانت القروض الأجنبية لمصر تكاد تقتصر على القروض المقدمة إلى حاكم مصر ، أما الآن ، فالاستثمارات الأجنبية الخاصة تمتد لتشمل فروعا متنوعة من الصناعة التحويلية والسياحة والبنوك وغيرها من الخدمات ، والقروض الأجنبية تقدم بدرجة متزايدة إلى مشروعات القطاع الخاص أيضا ، بالإضافة إلى القروض المقدمة إلى الدولة ومشروعات القطاع العام .

ثالثا: زادت بشدة نسبة السكان الذين يقومـون بنشـاط يتصـل بشـكل أو بآخر بالاقتصاد العالمى ، فعبر فترة طويلة امتدت إلى مـا يقـرب من قرن ونصف قرن ، منذ الحملة الفرنسـية علـى مصـر وحتـى منتصف القـرن العشـرين ، ظلـت الغالبيـة العظمـى مـن الشـعب المصرى تكاد لا تسـتخدم أى سـلعة مسـتوردة مـن الخـارج ، ولا تحقق لنفسها، فى الوقت نفسه، نفعا يذكر من تصدير القطـن ، فلقد ظل معظـم المصريـين طـوال تلـك الفـترة يعيشـون علـى حـد الكفـاف بينمـا كـانت درجـة درايتـهم بالأفكـار وأنمـاط الحيـاة الأجنبية منخفضة للغاية ، أمـا اليـوم فإننـا نـرى بعـض السـلع المستوردة فى بيوت الغالبية العظمى من المصريين ، بما فى ذلـك بيوت كثير من أشد العائلات الريفية فقرا.

وعلى الرغم من أن عدد المصريين المشتغلين أو المتصلين علـى نحـو أو آخر بتصدير النفط ، هو عـدد صغـير للغايـة ، فقـدر عـدد العـائلات المصرية التى تحقق نفعا ماديا ، مباشـر أو غـير مباشـر مـن السـياحة ، بنحو مليونى أسرة أى نحو سدس السكان ، كما أن هنـاك عـددا ممـاثلا من الأسرة المصرية يحصل على تحويلات مـن المصريـين العـاملين بـدول النفط العربية ، هذه التحويلات التى تمثل الآن أهم مصـدر مـن مصـادر العملة الأجنبية فى مصر .

رابعا : تلعب الآن الشركات والمؤسسات متعددة الجنسية دورا هاما فى إدماج مصر بالاقتصاد العالمى ، إذ تعمل فى مصر الآن أكثر من ٤٠٠ شركة من الشركات متعددة الجنسية ومع بداية التسارع فى عملية الخصخصة فى مصر ، ينتظر أن تزيد مساهمة هذه الشركات فى الاقتصاد المصرى ، كذلك تلعب المؤسستان الدوليتان العتيدتان ، صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ٠، دورا مهما فى التعجيل باندماج الاقتصاد المصرى فى الاقتصاد العالمى ، مما لا تجد له مثيلا فى تجارب مصر السابقة فى علاقاتها الاقتصادية الخارجية .

وهذه السمات الأربع التى قد تجعل اندماج الاقتصاد المصرى بالاقتصاد العالمى يبدو وكأنه ظاهرة جديدة تماما ، مما قد يبرر استخدام هذا اللفظ الجديد " العولمة " ، قد جعلت الآثار المترتبة على هذا الاندماج أبعد مدى وأعمق من أى أثر قد تكون مصر عرفته فى الماضى لاتصالها بالعالم الخارجى ، فتيار العولمة الآن يكاد يلمس كل جانب من جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى مصر [1].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٢.

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

مناهج البحث فى علم الاجتماع

الفصل الرابع

طرق البحث الاجتماعى

الفصل الخامس

علم الاجتماع فى العالم العربى

الفصل السادس

علم الاجتماع فى العالم الغربى

الفصل السابع

مجالات حديثة فى علم الاجتماع

الفصل الثامن

العولمة

دار المصطفى للنشر والتوزيع